

الأخلاق

من آثار المرحوم

عبد الرحمن زغلول

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم)
والقضاء الشرعى

ينشرها تلميذه

محمد عبد الجواد

المدرس بدار العلوم العليا

عنيت بطبعه
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر





المرحوم عبد الرحمن زغلول

ولد فى ١٩/٥/١٨٦٧م وتوفى رحمه الله فى ١٨/١٢/١٩١٨م

إلى كل معلم يقف من تلميذه موقف الوالد المربى ،
وإلى كل تلميذ يقعد من معلمه مقعد الابن المطيع ،
أقدم هذا الكنز الثمين ، والمصباح المنير ،
نبراسا يضىء لهم أقوم السبل ،
فى دياجير العصر الخلقى الحاضر ؟

محمد عبد الجواد

المضمون

أولا : مقدمة الناشر :

صفحة

ثانيا : مواد الرسالة :

الصلة بين المعلم وتلميذه

لا تقوم التربية الحقة إلا على أساس متين ، من صلة المعلم بتلميذه ؛ إذ أنها تسهل على المربى أداء مهمته ، وتشجعه على الدأب فى سبيل علاج التلميذ على الوجه الصحيح .

وقد كان الطلاب — إلى عهد قريب — يتنافسون فى اتصالهم بأستاذيهم ، ويتبرعون بخدمتهم ، رغبة منهم فى هذا الاتصال الروحى ، كى يحصلوا على المكنون من كنوز معارف الأساتذة ، وينتفعوا بها إلى أقصى مدى . ولنا أيام الطلب بالمعاهد الدينية حوادث ووقائع ، يسخر من سماعها تلميذو اليوم ، ولكنها تمثل تفانى التلميذ فى إخلاصه لأستاذه حتى يتصل به .

ويشاركنى فى تذكر أمثال هذه الوقائع ، أو النوادر والفكاهات ، كل من ضمته حلقة من حلقات التعليم قبيل ثلث قرن ، فأصابه رشاش من قذائف « السلاح الأحمر » ، التى كان يقذف بها الأستاذ تلميذه ، فيعد ذلك اليوم من أسعد أيامه ، ويشعر بكثير من الارتياح لقرب **وصوله** ، ويعتبر ذلك بشرى **الفتوح** من الله العزيز العليم .

ومهما تغايرت الوسائل التى بها تظهر صور الصلة بين المعلم والتلميذ ، ومهما سخر منها الساخرون وقتا ما ، فليس من شك فى أن المعلم الذى لا تربطه بتلاميذه صلة متينة ، من المحبة والاخلاص ، والاختلاط والامتزاج ، على وجه ما — لا تعتبره التربية الصحيحة مربياً .

وقد اتُّهِمْت — تلميذاً ومعلماً — فى حسن صلتى بأستاذىّ وتلاميذى ، وأصابنى من ذلك أذى ليس بالهين عندى فى كلتا الحالين . ولكن يقينى بصحة خطتى ، حفزنى للتمسك بهذا المذهب على سوء ظن الناس به ، وإن آلمنى ذلك ظاهراً ، لعدم إدراكهم الغرض منه ، وانحرافهم عن مرماه ، فظنوا بالمعلم — سامحهم الله — فى موقفه نحو تلاميذه ، ظن السوء .

ولقد قاسيت من المعلم الأول ، فى مرحلة التعليم الأولى ، ما ترك بجسمى سمات تذكرنى مدى الدهر بقسوة التعليم إذ ذاك :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة ... تجرع كأس الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم فى زمن الصبا ... فكبر عليـــه أربعاً لوفاته

ولكن هذا لم يحل دون تعلقى بحبه ، والعذاب فى التعليم هين ، فاحتفظت له بكثير من المحبة والتودد ، والإجلال والاحترام ، دعوت به زوجه أُمًّا ، وعددت أفراد أسرته — حتى بعد وفاته — من قرابتى .

فهذا مربى الروح ، والروح جوهر ... وذاك مربى الجسم ، والجسم كالصدف

تمكنَتْ فى نفسى هذه العاطفة لمعلمىّ ، فلم أُطق إهمالها ، أو التفريط فى حقها ، مدةً ، كاد قرن من الزمان ينتصف معها ، فربَتْ ونَمَتْ ، وأحمد الله على أن لم يكن لى من خيرة أساتذتى وتلاميذى ، إلا كل صديق صدوق ، رفعت حواجز الكلفة بيننا وبينهم ، وأقامت القرابة العلميـة حولنا سياجاً من المحبة الخالصة ، والاحترام المتين .

ولقد أذكر كثيراً من أساتذتى — رحمهم الله — فأراهم رؤيا واضحة ، أستعيد

بها فى الليل أيامهم ، وأجدد بها عهدهم ، وقد غَبَر . ولا أزال أفخر بصلتى بأستاذىّ ، ولا أرى غضاضة فى أن يكون منهم من هو دونى ، سناً ومنزلة .

ولقد كان من بين أساتذتى من استبق غيره منهم إلى قلبى ، فاحتل منه المكان الأرفع ، لأسباب لا أشك فى أنها روحية بحتة ، فامتزج روحانا بعد إذ توافقا ، للنظرة الأولى ، فى المرة الأولى . ثم أخذ هذا الحب يلتهب ، إذا صح هذا التعبير ، والصلة تقوى ، والرباط يحكم يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهر ، حتى عددته المثل الأعلى للأساتذة ؛ وإذا به يحسبنى مثلاً أعلى للتاميذ ، فيعجبه منى كل شىء حسن ، ولا يفوته توجيه نظرى لما يعده رياء أو عجباً . وإن أنس ، لا أنس إعجابه « بتقويم دار العلوم » الذى ابتدهته سنة ١٩١٤ ، ورسالته إلىّ ، وملاحظته أشياء خلقية جاءت فى مقدمته ، ونقده نقداً خفيفاً بليغاً .

وكلما بسطت فى عملى ، وحاولته بلا كلفة ، زاد إعجابه بى ، وتشجيعه إياى ، حتى اشتد شغفى به ، ورسخت عقيدتى فيه ، وزاد ترددى عليه ؛ أكرع من معين علمه وفضله ، وأستعد بكل جوارحى لملاقاته ، فلا يكاد يرانى حتى يسألنى عن حالى فيما يهمه . ثم هو لا يدع نُهْزة إلا اقتنصها ، فأفادنى من علمه وملاحظته ، بما يدفعنى إلى التردد عليه ، ويحملنى على زيادة التمسك به .

وكأن كلينا كان يشعر بما عند الآخر ، يغذيه ويخفيه ، ثم لا يكاد يصرح به أو يبديه . وقد أصبحت معه كما قال رحمه الله فى باب المحبة صفحة ١٥٦ :

« فالمعلم متى أخلص فى وجهته ، وتوخى الخير حقيقة للمتعلم ، وكان المتعلم مجتهداً قابلاً ، يبغى الخير ، تمت الألفة بينهما ، على نحو ما يكون بين الأب والابن . فإن المعلم ، حينئذ ، يحاول نقل صورته المعنوية إلى التاميذ ، ويكون هذا الأخير فى المعنى صورة منه » .

وهذا خير مثال لارتباط المعلم بتلميذه ، وصلته به ، وتلك نتيجة إخلاص استمر كامناً نحو ربع قرن ، وحاولت عوارضه الظهور إلى عالم الحس بأى مظهر ، حتى تقمصت فى هذه الصفحات ، وظهرت فى بعث هذه الذخيرة النفيسة الأدبية الخلقية من مرقدها . نعم ، هى كنز نثر الزمان غبار النسيان على صفحاته المطوية ، بين كثير من مذكرات الطلاب ، الذين تلقوها من أستاذهم ، وأودعوها محفوظاتهم ، فقصر النفع على من علم بها أو درسها ، دون كثير ممن هم فى أشد الحاجة إلى مثلها.

وقد كنت — ولله الحمد — أسبق الناس إلى نشر شذاها ، وتعطير القلوب بأريجها . وهذا أقل ما يجب علىّ ، تلميذا يحتفظ لأستاذه بأجمل ذكرى ، وأحسن ذكر ، أنخر به منذ توليت العمل فى مهنة التربية ، وأنشره الآن ، مثلا أعلى لتلاميذى ، وهم أساتذة المستقبل ، وأرجو ، وأنا شيخ كبير فى السنوات الأخيرة ، أن يُسْمَع هذا الصوت من فوق هذا المنبر ، فيحرص المعلمون على منفعة تلاميذهم ، ويقيم المتعلمون على احترام أساتذتهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ !

دروس الأخلاق

تلك آيات بينات فى الأدب والبلاغة ، وفرقان حكيم جاء بالفلسفة الخلقية ، يبدو من خلالها صورة من الروح النقى الصافى ، الذى يتفجر ينبوعه حكمة وعلما ، وتفيض سطوره إخلاصاً وثقاة ، ويشع من كل أولئك رغبة صادقة فى تطهير الخلق من الأرجاس والدنايا ، بقلم يتسابق ولسان صاحبه ذرابة وسهولة ، ويتسايلان رقة وعذوبة ، ويتساءلان أينا السابق ؟ يحتكمان إلى القارئ والسامع ، فلا يستطيع أن يحكم لأحدهما على الآخر ، إلا باستعادة القراءة أو السمع ، ثم هو كلما استزاد من ذلك ، لج به ظمؤه ، وزاد تعطشه ، إلى السمع أو القراءة

من جديد ، حتى ينسى نفسه وهو يقرأ ، ممثلا حال النحلة ترتشف رحيق زهرة فيغريها ذلك بأخرى ، فلا تزال تنتقل بين غصن منوّر ، ونبتة أرجة ، تعب من هذا الرحيق ، وذاك النمير ، فيتحول فى جوفها شهدا .

كذلك كان حال السامع ، إذ يجلس منصتا إلى درس الأخلاق ، فلا يكاد يملك انتباهه لشىء آخر ، حتى يوقظه من إغفاءة سماعه ، وخماره العلمى ، دقة الجرس آخر الحصة، فينصرف الأستاذ، وقد طبع فى كل قلب صورة حسنة لما أراد تحسينه ، وصورة مُنَفِّرة ، لغير ذلك .

نعم ، كان هذا حال السامع لدرس الأستاذ الخالد « عبد الرحمن زغلول » ، رحمه الله . ولئن فاتك أيها القارىء سماع ذلك الصوت الجهورى ، المنبعث عن نفس تفيض إصلاحاً وتهذيبا ، الصادر عن رغبة من المتكلم فى التأثير ، وهو يكاد يحتضن السامع لشدة إقباله عليه ، ويكاد السامع يغشى عليه من شدة انصرافه إلى التأمل فيما يسمع ، ومما يغشاه من نور النصيحة الخالصة ، والأمحوضة التى لا تشوبها شائبة — أقول لئن فاتك سماع نبى الأخلاق فى زمنه ، ورسول الاصلاح فى ظلمة الضلال ، وسماع صوت التمسك بالفضيلة ، وسماع الوحى الذى جاء باستحسان الحسن ، وتقبيح ما ليس بحسن ، لئن فاتك ذلك ، فهذه صفحات ترى فيها تلك النقوش ، التى كان ينقشها الأستاذ على صفحات قلوب تلاميذه ، وتحس فيها تلك الصور ، التى انفرد هو بتصويرها ، بين من كتبوا فى الأخلاق .

ولست أكتم عنك سراً ، إذا قلت : إن كل تلاميذه ، عند ما يتناولون هذه الصحف ، يقرءون فيها ، لا بد أن يغشاهم روح المعلم وهو يخطب فيهم ، فلا تجدهم إلا قارئين وسامعين .

وربما أحسست أيها القارىء بشىء من حدة نفسه ، وضربه على أوتار القلوب ، حين يقف موقف المصلح ، وينصب نفسه منصب المذكر ، فى أواخر كثير من الأبواب والأخلاق ، يتلو فيها قانون التخلق ، ويصب فيها جام الرحمة ، تسيغها كل نفس خيّرة ، فتصغى إلى نصيحته وتستمع إلى قوله : إذا لفعلوا خيراً وغنموا أجرا .

من هو المترجم له ؟

كان من بين أبناء المرحوم الشيخ ابرهيم زغلول ، ثلاثة أولاد ، هم المرحومون سعد زغلول باشا ، واحمد فتحى زغلول باشا ، والشناوى زغلول افندى . وكان هذا الثالث ، اكبر الاخوة ، ناظر قسم بمديرية الغربية (استغنت عنه الحكومة قبل الأوان ، فصادف ذلك الوقت إنشاء المحاكم الأهلية ، فرفع أمامها قضيته يطالب الحكومة فيها بالتعويض ، وقد وكل فيها أخاه سعداً . ولحسن الحظ كسب الوكيل الدعوى ، فحكمت له المحكمة بتعويض مناسب ، وكان لهذا الحكم أثره فى شهرة وكيله سعد ، لأنها أول قضية من نوعها رفعت على الحكومة) .

ومترجمنا هو الأستاذ عبد الرحمن زغلول ، ابن المرحوم الشناوى زغلول افندى ، أخى سعد وفتحى . أما أمه فهى بنت المرحوم الشيخ عبده بركات جد المرحوم فتح الله بركات باشا ، وأخت المرحوم عبد الله بركات افندى ، الذى كان ناظر قسم دسوق فى ذلك الوقت ؛ وينتهى نسبه من جهة أمه إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ولد بقرية إبيانه من أعمال مركز فوه (غربية) ، وهى قرية غنية بكثير من النبغاء ، فى ١٥ من المحرم سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧/٥/١٩ م ، ثم أدخل كتّاب القرية ، وفى سنة ١٨٨٠ كان تلميذاً بمدرسة الجمالية الابتدائية ، ثم انتسب للأزهر

الشريف ، ومنه إلى دار العلوم ، إذ قُبل طالباً بها سنة ١٨٨٧ وقد تركها حينا اشتغل فيه بمشيخة البلد، ثم عاد إليها حيث أَتم دروسه وتخرج فيها سنة ١٨٩٤ .

وبعد أن أتم الدراسة سنة ١٨٩٤ عين مدرساً بمدرسة المنصورة الابتدائية ثم انتقل الى المدرسة التوفيقية (من سنة ١٨٩٤ الى آخر أكتوبر ١٨٩٧) .

وفى أول نوفمبر سنة ١٨٩٧ إختارته الوزارة مدرساً بمدرسة (اللغات الشرقية . ببرلين) ، وهناك تعلم اللغة الألمانية ، ومكث نحو أربع سنوات ، عاد فى أثنائها الى مصر، لمرض أصاب نصفه الأيسر، عملا بوصية الأطباء فى ضرورة سفره لبلد حار .

وفى يناير سنة ١٩٠٢ عين مساعد مفتش بالتعليم الأولى .

وفى سنة ١٩٠٥ عين مدرساً بمدرسة المعلمين الناصرية و بقى فيها حتى سبتمبر سنة ١٩١٠ (بعد إذ قضيت معه أول سنة من دراستى بها ، وكانت آخر سنة له بدار العلوم) وفى أثناء تدريسه فى المدة السابقة ، كتب لطلابه المذكرة التى تراها بعدُ ، فى التربية الخلقية ، نحا فيها نحواً خاصاً، لا تشعر به إلا عند قراءتها ، مرات ومرات . كما كتب مقالات أخرى ، ترجم كثيراً منها عن الألمانية .

وفى سنة ١٩١٠ — ١٩١١ نقل الى مدرسة القضاء الشرعى ، حيث بقى فيها نحو سنتين ، أحيل بعدهما إلى المعاش ، بناء على طلبه ، لانحراف صحته . وقد أقام بالقاهرة ، بعدئذ ، نحو سنتين كان فيهما كالنحلة العاملة المجدة ، لم يهدأ له تفكير ، ولم ينقطع له عمل ، على الرغم من نصح الأطباء ، فاشتغل إبان الحرب البلقانية (سنة ١٩١٢) بتحرير مقالات فى المؤيد ، ترى أربعاً منها فى آخر هذا الكتاب ، وشفعها باعانات منه وممن كان يتوسم الخير فيهم ، وكتب رواية ، بعد سعى ، كان لهما الفضل فى تكوين « إخوان التراحم » كما تراه مفصلاً فى صفحة ١٦ وكان فى

هـذا الوقت يكثر من التردد على إخوانه ، يزورهم ويودعهم ، كما كان يذكر ذلك لبعضهم تصريحاً أو تلويحاً .

ثم اقتضت حاله الصحية إقامته بمسقط رأسه (إبيانه) حيث توفى فيها ، رحمه الله ، فى ١٩١٨/١٢/١٨ م عن إحدى وخمسين سنة كلها مليئة بالجهاد ، والعمل فى العلم والتعليم ، باخلاص لم يعهد فى مثـله . ويكفى فى البرهنة على ذلك أن هذا الجسم المتين ، على قوّته ، عجز عن القيام بما تفرضه عليه تلك النفس المفكرة من الأعباء ، فاضطرته للتخلى عن مركزه ، وهو دون الخمسين بخمس سنوات .

وإذا كانت النفوس كبارا　　　تعبت فى مرادها الأجسام

صور شتى للاستاذ :

أتّهم نفسى كثيراً عند ما أكتب فى الأستاذ رحمه الله ؛ ولهـذا لجأت إلى بعض إخوانه وعارفيه ، وطلبت إليهم الإعراب عما يعرفونه عنه ، وما يذكرونه له ، فلم يزيدونى به علماً ، ولم يعرضوا لشىء من الخلق والكمال لم أكن أعهده عنده .

ولقد عجبت من إجماعهم على مدحه ومحبته ، والحيرة عند التعبير عما يكنون له من إجلال وتوقير ، ثم ذكره بكل خير وثناء .

ورأيت من الخير إثبات شىء مما ذكروا ، بقدر ما يسع المجال ، حتى يرى القارىء صوراً مختلفة تمثل نواحى العظمة فيه ، ومواضع التاريخ منه ، وستجد فى هذه الصور أن الأستاذ – رحمه الله – كان يعجب كل انسان ، ويجمع من خلال الخير ، وخير الخلال ، ما لا يفوت ملاحظة أى إنسان .



الصورة الأولى :

كان الأستاذ الشيخ عبد العزيز خليل (المدرس بدار العلوم — فى المعاش) من خواص صحاب الأستاذ ، المختلطين به فى أيام طلبه ، فرغبنا فى التحدث معه عما يذكره للأستاذ رحمه الله ، فأدلى إلينا بمعلومات كثيرة ، نقتطف منها الفقرات التالية ؛ قال حفظه الله :

مكث الأستاذ طالباً بدار العلوم سنتين ، ثم تركها واشتغل بمشيخة البلد ، ثم عاد للدراسة فى أوائل سنة ١٨٩٢ — ٩٣ ، فجاء إلى المدرسة وهو خبير بالحياة ، يمتاز عن غيره من الطلبة بأنه اجتماعى ؛ ولذلك كان لوجوده بين الطلبة أثر واضح ، صار به قائداً وزعيماً ، ومرشداً لهم ، يحضهم على التضامن والتعاون .

ومن ديمقراطيته أنه اتفق معى على أن يتولى كل واحد منا القيادة يوماً ، وعلى التابع أن يرضى بحكم صديقه ، فحكمت عليه مرة بالمذاكرة فى « قهوة البرابرة » مكان عيادة « الدكتور عبد العزيز اسماعيل بك » فقبل الحكم ، وفاء بالميثاق .

وكان يميل بطبعه إلى لهو الرجال البرىء ، يحب المرح ويركن إليه ، ولم يكن فى لهوه عابثاً مثل بعض الشبان .

وقد أوصانا قبل التفرق ، عند إتمام الدراسة ، أن يصف كل واحد منا غيره ، ذاكراً له عيوبه ليبتعد عنها ، وحسناته ليزداد منها ، وكان لذلك أثر فينا .

وكان حريصاً على البعد عن الشبهات ، يزهد ، بل يعرض ، عما ليس له فيه حق ، وإن ساعدته الرسميات على أنه من حقه . تقرر سفرنا مرة للاسكندرية (ونحن طلبة) لشهود المعرض فرأى أن يعرج على بلده (ايبانه . غربية) بعد قضاء مهمته ، فرفض السفر على نفقة الحكومة ، بحجة أنه كان المفروض أن يسافر إلى بلده ، ولذلك ابتاع تذكرته على نفقته ، واقترض من أحد إخوانه ما أكمل به ثمن التذكرة ، ثم رده إليه ، وإن ضيق عليه !

ويظهر أنه كان شديد المحبة لعمه سعد ، فقد سألته بعد عودته من ألمانيا وشفائه من المرض العصبى الذى انتابه هناك ، فقلت له مازحاً : قد رأيت الجنون ، فصفه لنا :

فقال : إنه بدأ يشعر بانقباض وحزن عميق ، وأول حوادثه ، أنه ألقى فى روعه أن مصلح الكون الأعظم هو أبوه «سعد» وهو الامبراطور ، وقد مات ، فقام — وهو مسافر فى قطار — وخطب فى الحاضرين بالألمانية خطبة مؤثرة ، لم يشعر بشىء بعدها إلا وهو فى دور النقه .

الصورة الثانية :

قصدنا إلى الأستاذ الشيخ محمد يوسف (المدرس بمدرسة القضاء الشرعى — فى المعاش) و يظهر أنه كان من ألصق إخوانه به ، وأطلعته على عزمى ، وطلبت إليه إبداء رأيه فى الأستاذ، فبدت على وجهه علائم، أفصح عنها ترقرق الدموع فى عينيه، وعبارات الترحم الحارة ، ولما أفاق من هذه الغشية ، واعتذر عن ضعف ذاكرته ، وتطاول السنين والأيام ، أخذ يستجم قوته و يستجمع ذاكرته ، وانساب معبراً ومؤبناً ، فاختصرت من عباراته جملاً قصيرة ، هى جوامع الكلم ، فى وصف الأستاذ ، بقدر ما جادت به ذاكرته ، قال ، لطف الله به :

أعلى عبارات المدح والثناء لا توفيه حقه .

كان عديم النظير ، كان نسيج وحده ، كان بحاثة ، وما رأيت له مثالاً مطلقاً . تجده فى كل شىء . كان فى العربية بحراً لا نظير له . عدم اتمام كتاب المطالعة ، خسارة كبيرة ضياعه .

ولما درس فى القضاء ، علّق على مذكرة إخوانه تعليقات لها قيمتها، حتى إن العلماء فى الأزهر كانوا يتمنون الاطلاع على تعليقاته فى الفقه .

كان إذا أمسك القلم يتم الموضوع بلا شطب أو تغيير ، وكنا نباريه فما كنا نجاريه . وما سبقناه مرة إلا يوماً واحداً ، وهو مناقشة فى بيت أبى فراس :

ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له بريقيـــه ولا بحر

هذه القصيدة شطرها وشرحها الشيخ الكنانى .

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر

كان من وفائه حضوره من الظاهر (بيت عمه سعد) إلينا لقضاء الوقت . دقته فى المعاملة والخلق ، فلا يجاريه أحد . تمزيقه كثيراً من مخلفاته لأنه لا يرى لها قيمة فى نظره .

الصورة الثالثة :

جرى ذكر الأستاذ الأديب الشاعر ، الشيخ أحمد الكنانى (بالمعاش) على لسان الأستاذ الشيخ محمد يوسف ، فقصدت اليه مستفسراً بعض ما جاء فى الصورة الثانية . ولم يكد يسمع اسم الأستاذ رحمه الله حتى أخذ يترحم عليه ، ثم قال :

كان المرحوم ذكياً جداً ، وكان جدلياً ، يحب المناقشة ، و يعول على فكره ، ولا يسلم إلا بما يقبله عقله ، يبحث دائماً عن الحقائق .

وكان قديراً فى الكتابة ، وكان ترتيبه بين الثانى والثالث .

وكانت نشأته خُلُقية بحتة .

وأذكر أن بعض الأساتذة عاقب طالباً بالحجز بعد الدرس ساعة ، فقام الشيخ عبد الرحمن بين إخوانه خطيباً ، ولم يكد يفرغ من كلامه ، حتى أخرج جميع الطلبة الكتب والأدوات من الأدراج ، وغادروا الفصل غاضبين لكرامتهم ، فهرع الأساتذة وراءهم واسترضوهم ، بعد أن أُلْغِى العقاب ، وعادوا مرفوعى الرءوس ، موفورى الكرامة .

ثم قال : واعتقد أن المرحوم كان آخر أيامه فى حالة أشبه بالولاية ، فكان لا يعبأ بفلان ولا بفلان .

ثم سألته عن المرة التى سُبق فيها المترجم ، فقال : إنه لم يقتنع بمعنى شطر من التشطير ، ولما شرحته له قال : ما كنت أفهم هذا قبل الآن . ثم عقب الأستاذ الكنانى على ذلك بقوله : إنه — على مقدرته وذكائه — لم يكن يستحيى من أن يعترف بأنه لم يفهم شيئاً .

الصورة الرابعة :

لحضرة الأستاذ الشيخ محمد حسن الفقى (المفتش بالمعارف — فى المعاش) شهرة بين إخوانه ، باللطف والرقة ، والأدب والذوق ، والسعى فى كل عمل خيرى . كانت له صلة بالأستاذ ، رحمه الله ، فلم يفتنى أن أحلى هذه الصفحات ، بشىء من نفثاته ، و بضع جمل من عباراته ، ونوادر كان للمترجم له فيها أثر واضح . قال ، حفظه الله :

(١) توفى فلان ، المدرس ، فى يوم عيد ، وترك ذرية ضعافاً ، لم يخلف لهم سوى رحمة الله وعطف إخوانه ذوى الهمم العالية . فقيض الله لهذه الأسرة المرحوم (عبد الرحمن زغلول) فقابل الأستاذ (الشيخ محمد حسن) واتفقا على كتابة رسائل لإخوان المرحوم ، فصادفت هذه الرسائل قلوباً طيبة مباركة ، جاد أصحابها بما يربو على ٤٠٠ جنيه فى مدة وجيزة ، وكان ذلك سبباً فى تكوين (جماعة إخوان التراحم) .

(٢) ومما يذكره له : أنه ذهب إلى مدرسة عبد العزيز للمعلمين ، لزيارة ناظرها (حضرة الأستاذ) فألفى الطلبة مصطفين ، فشرع ، رحمه الله ، ينثر عليهم درر النصائح الغالية بعباراته الرائعة ، وكان يرى أن الخير الذى يرجى للأمة لا يكون إلا على أيدى المعلمين ؛ فكان يعتقد أن النصيحة لهم تأتى بخير الثمرات . فأثرت عباراته فى الطلبة ، لأنها كانت من القلب فوصلت إلى القلوب ، وكان أثرها محموداً .

ومن غريب المصادفات أن دخل المدرسة مفتش انجليزى (مستر روب) ، فشارك التلاميذ فى استماع هذه النصائح ، التى استمر الأستاذ فى إلقائها ، وتأثر بها قلب المفتش ، بعد أن عرف مغزاها ، كما طبعت على قلوب الطلبة . وكان ناظر المدرسة مسروراً من تلك الفوائد التى استفادها التلاميذ ، رغم اضطرابه لمجىء المفتش ، وذلك الأجنبى عن المدارس يقوم بالإرشاد والنصح فيها ، ومع ذلك شكر المفتش للناظر والمرشد ، هذا الدرس المؤثر ، والعظات البالغة ، وأُعْجِب بالفكرة بعد أن فهم الغرض منها .

(٣) كان يتحلى بخلق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فكان إذا مر بالشارع ووقع بصره على ما يرضى الشيطان ويغضب الرحمن ، غيَّر ذلك بلسانه ، وأحياناً بيده ، فعُرِف بهذا فى الجهات التى ألف المرور فيها ، فكان كثير ممن اعتادوا اجتراح هذه السيئات ، يتركونها فى تلك البقاع خوفاً منه .

(٤) تجرد فى أواخر أيامه من شواغل الأمور الدنيوية ، وتفرغ لما يقربه من المولى جلت قدرته ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم . ولكن ذلك لم يكن

دافعاً له لأن يلبس المرقع ، و يأ كل القفار ، وينام على الثرى ، و إنما كان يعمل بقول الله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

الصورة الخامسة :

من بين طلبة الأستاذ ، الذين تأخذنى الغيرة لسبقهم إياى فى الاتصال به ، والفضل فى ذلك للزمن ، الأستاذ الشيخ عبد الرؤوف جمعه (المدرس بالمدرسة السعيدية) . وقد فكّر ، كما فكرت ، فى تخليد ذكر الأستاذ، فاستنسخ دروس الأخلاق ، بخط واضح فارسى جميل ، وطبعها بمطبعة الغرّاء سنة ١٣٢٨ هـ . ولم يقف عمله عند ذلك ، بل كتب فى العدد الثانى من السنة السابعة لمجلة « التربية الحديثة » (ديسمبر سنة ١٩٣٣) مقالاً كريماً ، عنوانه « ادكار عهد ، وذكرى أستاذ » متابعة لموضوع « خير معلم عرفت » ، كان نصفه الثانى وصف الأستاذ رحمه الله . ولم أجد صورة أجمع لصفاته ومناقبه ، ولا كلاماً أوفى وأصدق مما كتب أو يكتب عنه ، مثل هذا المقال ! ولهذا أبادر بنشره بين الصور ، بعد حمد الله تعالى ، والثناء على أخى الكاتب ، إذ وُفّق إلى ما قصرت عنه عبارتى ، وشملت ما ندّ عن بيانى !

ومن مزايا هذه الصورة ، أو عيوبها — إن شئت — أن كلمها قليل ، ومعانيها كثيرة ، يعوزها الإيضاح والتطويل ، وهى صورة يعهدها كل طالب درس على الأستاذ ، و يعجب لها من لم يكن يراه ، وكان بودى لو سمح الوقت والورق ، لتفصيل ما أجملت ، والتعليق على قضاياها الدقيقة ؛ وعلى كل حال فالشكر للكاتب ، وله الفضل ، قال ، بارك الله فيه :

كان طويل القامة ، عظيم الهامة ، ممتدَّ الأطراف ، أهْرَتَ الشِّدْقين ، أشمَّ العِرْنين ، مُشْرِق الجبين ، نافذ البصر ، ناطق العينين . إذا تبسم فالصبح السافر ، أو عبس فالأسد الخادر . جهورى الصوت ، بيِّن مخارج الحروف ، يتدفق فى كلامه ، و يشتدّ فى حِوَاره وخِصَامه ، أشبه فى درسه بالخطيب ، منه بالمعلم . ظاهر الرضا ، واضح الغضب ، تقرأ ما عنده على وجهه ، فمُحَيَّاه عنوان صادق عما فى نفسه . صريح لا يعرف المداجاة ، متضح يجهل المداراة . يتغافل عن الجهلاء فكأنه لا يبصرهم وهم بجواره ، و يُعْنَى بالفضلاء فكأنه يراهم

وقد نأوْا عن داره . يحتقر الدنيا وما فيها ، إلا حكمة يرسلها ، أو نصيحة يُسْدِيها ، تراه وحيداً وهو من نفسه فى جمع . عزةٌ فى غير كبر ، وجرأة فى غير تهور ، وصبرٌ فى غير ذلة . إذا أقبل عليك آنسك ، و إن ولّى عنك أوحشك . لا يتكلم إلا عن رَوِيَّة ، ولا يحدث إلا بفائدة . فى سكوته يقظان الفكر ، وفى بديهته سديد الرأى ، صائب الحَدْس ، صادق الفراسة

الألمعى الذى يظن بك الظـــنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا

راسخ العقيدة ، قوىُّ الايمان ، لا تزحزحه العواصف ، ولا تنال منه القواصف ؛ وقد كان فى ذلك يشبه عمَّه سَعْداً ، كما أشبهه طلعةً وقدًّا ، وذهب كما ذهب ، ولم يعقب ولداً . وفى ذلك خسار علينا ، أن لم يكن منه ، ومن عَمَّيْه ، سعدٍ وفتحى ، وابن عمته عاطف ، عقبٌ يحذو حَذْوَهم ، ويَمْشِى فى آثارهم ، ويكون للقطر فيه مَعْقِد أمل ، ومناط رجاء

بغاث الطير أكثرُها فراخاً وأم الصــقر مِقْلات نزور

وكان فى الدروس مهيباً ، تخفق لرؤيته الأفئدة ، وتطرف الأبصار ، يُطْرِقُ التلاميذ فى درسه صامتين ، كأنما على رءوسهم الطير

يُغْضِى حياءً ، ويُغْضَى من مهابته ، فلا يُكلَّم إلا حين يبتسم

فى كلامه بيِّن المُراد ، فلا يُسْتَوْضَح أو يُستعاد . أمين فى عمله ، لا يضيعُ بُرْهة فى غير فائدة . لم يَسْتَعِنْ فى تأديب تلاميذه بغير نفسه ، وفى عقابهم بغير ذاته ، رضاه يغني عن الثواب ، وغضبه أقسى عقاب

قسا ، فالأُسْدُ تجزعُ أن تراه ! ورَقَّ ، فنحن نجزع أن يذوبا !

لا هَوَادة عنده فى أن يكون التلاميذ آخذين بمكارم الأخلاق ، متمسكين بالفضيلة ، متحلين بصفات الرجولة ؛ فكانت عنايته بذلك بالغة الغاية ، وقد يغضى عن التقصير فى درس ، ولا يغضى عن رذيلة تكون من تلميذ ، أو نقيصة يُعْرَف بها طالب . أعَرَفْتَ البحرَ ودويَّه ؟ ! والرعد وقصفَه ؟ ! والريحَ وعصفَه ! ؟ هو يكون أشدَّ من هذا ، إذا كان من تلميذ شىء من ذاك .

ومن الناس من كان يصفه بالقسوة فى علاقته بالتلاميذ ، ولم يكن قاسياً ، و إنما كان لحرصه

أن يكونوا فضلاء ، ورغْبَتِه أن يكونوا رجالاً ، يشتَدُّ لينقلهم إلى ما يريده نقلاً ، ويَحْفِزُهم إلى معالى الأمور حفزاً ، ومع هذا يرعاهم رعاية الآباء ، و يعطف عليهم عطف الأوِدَّاء .

وكان له بحثُ الفلاسفة ، وآراء علماء الأخلاق والاجتماع ، وله أسلوب فى الكتابة عن هذا خاصٌّ به ، لا يكاد يُعْرَف لسواه . كان يُعْنَى بالمعانى و يقرِّمُ بها ، فإن واتته الألفاظ التى تناسبها ألبسها إياها ، و إن لم تواته استغنى بشرف المعنى عن زِبْرِج اللفظ .

ولقد كان قارىء كلامه ، والمستمع لحديثه ، يتوهم أن عصارة مخه تسيل على يراعته ، ومعانيه تكاد تستغنى عن عبارته .

ولقد اتخذ من نفسى مكانة لا يمحوها كر الأيام ، ولا مرور الأعوام ، ولا ينالها الدهر بنسيان (والدهر يُنْسِى) حتى ليخيل لى أن سألقاه غداً ، وأنه يحيا فينا سرمدا .

الصورة السادسة :

كان الأستاذ الفقيد فى أواخر سنى حياته مقيماً فى ابيانه — مسقط رأسه — بمركز فوه (غربيه) ، لأن حالته الصحية اقتضت ذلك ، ولكنه شعر فى بداية اقامته بشىء من الوحشة والانقباض ، لعدم وجود من يستريح له ، ويبادله الآراء والأفكار فى مقره الجديد .

فاتفقت آراء الأسرة وقتئذٍ ، على استحضار الأستاذ فتح الله احمد زيد ، ابن شقيقة الفقيد ، وكان فى ذلك الحين مدرساً بمجلس مديرية الغربية ، فانقطع لمعاشرة خاله وأستاذه ، ولازمه فى إقامته نحو أربع سنين دأباً ، عرف فى غضونها عنه الشىء الكثير .

ولما كان لنا سابق معرفة بالأستاذ فتح الله (بمصلحة الطبيعيات الآن) ، اتصلنا به ، وأظهرناه على رغبتنا ، فى تخليد أثر خاله ، ورجوناه فى أن يكتب لنا شيئاً ، عما لحظه فى خاله ، من المناقب البارزة ، والسجايا الممتازة ، التى استرعت نظره ، وأثارت اعجابه ، لسمو مقاييسها عن المقاييس المعتادة ، فلبى حضرته الطلب ، ودون بقلمه هذه المعلومات الآتيـة :

(١) شغفه بالكتب وغرامه بالمطالعة

كان مولعاً بالكتب ، مجبولاً على حب المطالعة ، لدرجة عجيبة : إذ كان فى مقدوره أن

يعكف عليها ساعات متوالية ، بدون أن يصيبه إعياء أو يعتريه ملل .

وكان من عادته ، أنه إذا تهيأ للقراءة ، يبدأ بتجريد نفسه من جميع الشواغل ، ثم أرهف إدراكه ، واستجمع قواه ، وأخذ يحملق فى الكتاب ، يكاد يلتهم معانيه التهاماً ، و يستوعبه باباً باباً ؛ حتى ليخيل إليك أنه فى حالة من حالات التجرد تغمر حواسه ، وتستغرق مشاعره ؛ وانه لَيُساء إليه كلّ الإساءة ، أن يوقظه أحد من استغراقه أو يقطع عليه لذة استرساله .

ومن الأدلة على طول أناته ، وقوة احتماله فى ذلك ، أنه قرأ كتاب الأغانى — على كبر حجمه وكثرة مجلداته — مرتين كاملتين ، ثم كاد ينهى قراءته فى المرة الثالثة ، لولا قضاء الله فيه . وكان لا يكتفى بمجرد المطالعة فى ذلك الكتاب ، بل لقد شغل كثيراً من هوامشه بما كان يعن له — وقت القراءة — من شرح المعميات ، وتفسير بعض الكلمات .

فإذا أشفقت عليه ، ونبهته إلى أن الاسراف فى المطالعة قد يؤثر بعض التأثير فى صحته الضعيفة ، أجاب بأنه يشعر فى نفسه بقوة خفية تدفعه إلى ذلك دفعاً ، فلا يملك أمامها اختياراً ، ولا يستطيع لها رداً ، ثم أردف ذلك بقوله : وهل الإنسان حين يحب الشىء أو يبغضه ، يستطيع أن يعلل تعليلاً معقولاً ، لماذا أحب ولماذا أبغض ؟ !

(٢) طريقته الخاصة للتعبير عما فى نفسه

وكان إذا تكلم فى أمر يروم إبراز الحق فيه واضحاً جلياً ، انطلق لسانه بفيض دافق من كرائم الكلمات ، ومختار العبارات ، وأخذت سحنته ومعالم وجهه ، بل وجميع حواسه تشترك ولسانه فى الشرح والتعبير ، حتى ليخيل إليك أن الطبيعة هى التى تتكلم ، وانها قد حشدت ظواهرها وأنطقت آياتها ، لتبرز حقائقها ، وتكشف عن أسرارها .

(٣) حرصه على زيادة التأنق فى كتابة خطاباته ورسائله

وكان يُعنى كلّ العناية بتحرير الخطابات والرسائل الخاصة، فيوجه اهتمامه إلى اصطفاء الألفاظ وتخير العبارات ، وايجاد التطابق والانسجام بين الكلمات والمعانى ، هذا إلى حرصه الشديد

على جعل الخطاب فى شكله العام نظيفاً أنيقاً ، فلا يطمس حرفاً ، ولا يشطب كلمة ، فإذا وقع شيء من ذلك فى أثناء تحرير الخطاب ، عاد إلى استئناف تحريره من بدايته .

ولقد كان من نتائج هذا الغلو فى التأنق الكتابى ، أن يرتفع بأسلوبه — فى بعض الحالات — فوق مستوى المرسل إليه ، فاذا قيل له هنا : لِمَ كلُّ هذا الجهد المبذول ، ما دامت ثقافة من تكتب إليه لا تيسر له تقدير كتابتك حق قدرها ؟ أجاب بأن كل خطاب يعتبر فى ذاته ، قبل كل شيء ، أثراً حياً للمرسل ، ينطق بفضله وخلقه ، و يدل على نوع تفكيره ، ومبلغ ذوقه ، حتى إنه عند ما يقع النظر عليه يتجه الذهن إلى كاتبه ، قبل أن يتجه إلى المكتوب إليه . من أجل ذلك ينبغى أن تكون قيمة الخطاب متكافئة ومقام الكاتب ، لائقة بقدره ، وعلمه وأدبه .

(٤) شدة حرصه على الاستمساك بالفضائل الخلقية ، وتشدده فى ذلك مهما تكن النتيجة

كان من رأيه ، أن التهاون فى الانحراف عن بعض الفضائل الخلقية لاصطياد منفعة ، أو اجتناب مضرة ، يؤدى بالمرء حتماً إلى ضعف ثقته بالفضائل ، فيظل يزداد جرأة على مخالفتها ، والتهوين من شأنها ، حتى ينهار فى نفسه صرحها ، و يصير من كبار الأشرار والمجرمين .

وكان يمقت الكذب إلى أقصى حدود المقت ، و يشدد النكير على من يقترفه من الأطفال أو الخدم ، حتى ولو كان الكذب فى أمور مباحة . وكانت نظريته فى ذلك : أن الكذب أس الرذائل ، وهو — فى نتائجه وآثاره — أخطر من الرذائل الأخرى ، وأبعد منها مدى فى التخريب والتدمير ، فيجب الغلو فى محاربته والتشدد فى مطاردته .

(٥) عفة لسانه ، وترفعه عن توجيه الشتائم لأى إنسان

كان عفيف اللسان ، نظيف القول ، يحب أن يكون دائماً سلطان العفة والنظافة ، مبسوط الظلال على كل ما ينفثه قلمه ، و ينطلق به لسانه .

وعنده أن الكلمة البذيئة ، هى فى جميع الحالات موسومة بالقبح والشناعة ، تنفر من

سماعها الأذن المهذبة ، و يتأذى من وقعها الطبع السليم ، مهما تكن الأسباب الدافعة إليها ، ومهما تكن منزلة المشتوم من الضعة والمهانة .

ومن الثابت المقرر ، أن الإنسان إذا أخذ لسانه بالعفة والتصون ، وسما به عن التلفظ بالبذاءات وفواحش الكلمات ، أضحى ذلك دأباً له ، يسود عباراته ، و يطرد فى جميع أقواله .

وكان فى كثير من المناسبات يردد القول المأثور عن سقراط الحكيم :

(إن التشاتم والتساب ميدان وضيع ، الغالب فيه شر من المغلوب) .

وكان لا يهمه أن الموجه إليه القول الجارح قد يستحق أشد العقوبات ، فضلاً عن الشتم والسب ، و يقول : إن لعقوبته وسائل أخرى ، قررتها القوانين والشرائع ، فليترك الأمر اليها .

وملخص نظريته فى ذلك : أن كلَّ امرئ مسئول عما يلفظ من قول ، بحكم أنه صادر منه ، ومنسوب إليه ؛ ولذلك صار من الواجب أن يكون هذا القول لائقاً بمكانه الأدبى ، الذى قدره لنفسه ، وارتضاه لشخصه . وتكاد تكون عبارته الحرفية فى هذا الشأن ما يأتى :

(الواجب أن يفعل الإنسان ما يليق به هو ، لا ما يليق بالناس)

(٦) كرمه حتى الإيثار

وكم له فى الكرم من نوادر ، تذكرنا بما قرأناه فى التاريخ ، عن كرم أعراب البادية . وكانت له فراسة صادقة ، واحساس دقيق نافذ ، يتحسس به مقدار حاجة المحتاجين ، فيسديهم المعروف ، و يمدهم بالمعونة ، بدون أن يُشعرهم بأنه يتصدق عليهم ، أو يحسن إليهم . وهذه كانت طريقته التى يحرص عليها كل الحرص ، فى إغداق الاحسان والصدقات .

فقد كان أولاً يطلق ملاحظته الشفافة النافذة ، لاستكشاف مواطن العوز ، حتى إذا وقع عليها ، بادر بإيصال بره إليها ، من غير أن يسأله السائلون ، و يتلمس منه المعوزون ، ومن غير أن يجعلهم يشعرون بأن ما يُعْطَوْنه إنما هو من قبيل الصدقات، ليمنع عنهم تكاليف الخجل ، و يحفظ عليهم ماء الوجوه . وكان فى الأغلب الأعم ، يخص بإحسانه من كانوا من ذوى النعمة واليسار ، الذين سطا عليهم الدهر ، فسلبهم نعمتهم ، وأفقدهم يسارهم . و يقول : إن هؤلاء أولى

الناس بالعطف عليهم ، والإحسان إليهم ، لأنهم فى ألم دائم ، وعذاب واصب ، كلما ثارت فى نفوسهم ذكرى عزهم الزائل ، ومجدهم الدائل . وأما الذين لازمتهم الفاقة من بداية حياتهم ، فانهم قد ألفوا عيشتهم ، حتى سكنت نفوسهم إليها ، بطول الإقامة عليها ، وانقطاع الأمل من غيرها .

وكانت خلة الكرم فيه فياضة جياشة ، تحمله على البذل حملاً ، وتدفعه إليه دفعاً ؛ فإذا خلت يده من نقود يسد بها رغبات هذه الخلة ، لجأ إلى غير النقود ، من مأكول أو ملبوس ، وما إلى ذلك مما يمكن التصدق به .

ومن الأمثلة التى تدل على أروع أنواع الإيثار عنده : أنه كان يمر بإحدى القرى ، فوجد رجلاً مريضاً ، تنطبع عليه كل مظاهر المرض ، جالساً خلف جدار ، يستدفئ بأشعة الشمس وهو ينتفض من البرد ، فدنا منه الأستاذ وسأله : أنت بردان يا شيخ ؟ فقال : (أيوه بردان يا سيدى ؛ و إن أخى طردنى وأخذ غطائى !) فجاشت نفسه ، وهاجت فيه عاطفة الشفقة ، وكان وقتئذ يلبس معطفاً فاخراً ، من الصوف الثمين ، فخلعه فى الحال ، وألبسه هذا الرجل المريض . ثم استقدم أخاه الذى اعتدى عليه ، فوبخه على فعلته ، وأقنعه بما توجبه الانسانية ، من إحسان معاملة المرضى والضعفاء .

(٧) مقته لاستعباد المرأة

وكان يرى وجوب احترام المرأة ، واكرام منزلتها ، واشعارها بأن وظيفتها فى الحياة لا تقل عن وظيفة الرجل احتراماً ؛ وأن احتقار شأنها ، و إذلال نفسها ، لا يمكنها من تأدية وظيفتها ، طبقا لما تقتضيه حاجات المجتمع .

سمع مرة إحدى نساء القرية تنادى زوجها — فى جمع حاشد — (بقولها سِيدى) جرياً على عادة أغلب سكان القرى ؛ فثارت ثائرته ، واندفع يلقى شبه محاضرة على الموجودين ، الذين من ضمنهم هذا (السِيد) ، فى أن شيوع استعمال كلمة (سِيدى) فى مخاطبة المرأة زوجها بدون أن يبادلها الرجل هذه الكلمة فى مخاطبتها ، يعتبر رمزاً أثرياً ، يدل على استعباد المرأة منذ زمن سحيق ؛ و إنه لمن العار على الجيل الحاضر : أن يسمح باستعمال مثل هذه الكلمة ، و يقبل تداولها ، فى التخاطب بين المرء وزوجه ، بعد إلغاء الرق ، ومحو طبقة العبيد من المجتمع .

(٨) رأيه فى أن كل الفرائض الدينية تتكون من هيكل مادى وروح معنوى

لما أقام المرحوم فى أواخر سنى حياته فى قرى الريف ، كان كثيراً ما يسمع و يشهد ، أن عدداً كبيراً من المواظبين على تأدية الفرائض يرتكبون المنكرات ، و يجترحون السيئات ، بدون أن تغنى عنهم شيئاً صلاتهم أو صومهم ، أو غيرهما من الفرائض الأخرى .

فكان يقول فى هؤلاء : انهم يؤدون الفرائض تأدية حرفية ، و يمارسون منها صورها وأشكالها فقط ، من غير أن تشرق روحها فى قلوبهم ، وتضىء حكمتها فى نفوسهم ، ولذلك لم تترك فيهم أثراً من التهذيب الخلقى ، الذى أشير اليه فى قوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

(٩) محبته للأطفال ، وتسميته الحياء خيراً

كان مولعاً بالأطفال ، يلاطفهم و يمازحهم ، و يصغى اليهم إذا نطقوا أو غمغموا ؛ وكان بين كل حين وآخر ، يمنحهم الهدايا ، و يغمرهم بالعطايا ، و يقول : هذه هى المخلوقات البريئة ، المخلوقات الطاهرة النقية ، التى لم تدخل بعد فى غمار المجتمع ، فتصيبها شروره ، وتعلق بها أوضاره .

وكان إذا وجد طفلاً حَيِيًّا يتعثر فى حيائه وخجله ، أكبر شأنه ، وقال : هذا الطفل فيه خير كثير ، لأن عنده الحياء الذى يدل على طبع حساس [1] .

الصورة السابعة :

أسعدنى الحظ بلقاء الأخ الكريم الأستاذ « سعد اللبان » ، فعلمت منه أن مترجمنا قضى مع فضيلة والده فى الاسكندرية ، سنة كاملة قبيل وفاته ، وأن حضرة أخيه الأستاذ شافعى ، كان يلازمه طيلة إقامته فى الاسكندرية . ولأهمية هذا الجزء من حياته ، جمعنا بحضرة القاضى الفاضل الذى تثبت له هذه الصورة الناصعة . ولست أخفى عن القارىء ، أنى فى أثناء متابعة الأستاذ

---

(١) رأى ديوجنس الكلبى شابا احمَرَّ وجهه من الخجل ، فابتسم له قائلا : مرحى ! مرحى ! يابنى ! فان هذا لون الفضيلة . روز اليوسف ١٩٣٥/١١/١٢

فى الكتابة ، كنت غارقاً فى بحر من العجب ، لذكره الوقائع التفصيلية ، و إثبات كثير من جمل المترجم بنصها ، مع أن الأستاذ كان فى سن حول الخامسة عشرة . ومع مضى هذا الزمن الطويل (١٩ سنة) فإن كل الوقائع التى سردها كانت واضحة عنده ، مما دل على أن طابع المترجم كان قوى الأثر ، فى نفس كل من اتصل به .

وكان المترجم — رحمه الله — قلما يضع ثقته فى علماء الأزهر ، لأنه كان يريدهم أن يكونوا ممن تشملهم الآية الكريمة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » حتى يكونوا ممن يمثلهم البيت :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

ومع هذا فكان مع فضيلة الأستاذ الجليل « الشيخ عبد المجيد اللبان » على ود وصداقة وكان معجباً بخلق الأستاذ خاصة ، وقد قال له فى حادثة كانت بينه و بين المغفور له السلطان « حسين كامل » فى ذلك الوقت ، معجباً بشجاعته الأدبية ، وحريته فى رأيه :

« هذا الموقف خير من موقف أحمد بن حنبل فى مسألة خلق القرآن » .

قال الأستاذ شافعى ما خلاصته :

فى الوقت الذى قضاه المترجم معنا فى الاسكندرية (١٩١٧) كان يظهر عنده ظاهرتان واضحتان :

الأولى : حرصه الشديد على التمسك بالدين وأداء الفرائض فى وقتها ، وهذا الحرص — كما أخبرنى رحمه الله — لم يجىء عفواً ، و إنما كان بعد بحث وتدقيق فيه ، وبعد حالة منه تكاد تشبه الإلحاد أو التردد ، أى أنه لم يتمسك بهذه العقيدة إلا بعد تفكير واجتهاد . ولم يكن يقصر هذا على نفسه ، بل كان يدعو غيره إلى التمسك بالأمور الدينية ، كما أنه كان يعتبرها أساساً لتربية النشء .

وكان من مظاهر هذه الظاهرة ، حرصه على صلاة الجماعة ، وبكاؤه طول خطبة الجمعة ، ذات مرة كان موضوع الخطبة فيها الرجوع إلى الله تعالى .

ومن علامات شدة تمسكه بالدين ، اعتقاده أن مرتكب الكبيرة كافر ، اعتماداً على نص الحديث الشريف « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الخ » وقد جرت بينه وبين فضيلة

الشيخ أبى الفضل (شيخ معهد الاسكندرية إذ ذاك) مباحثة فى هذا الحديث ، وكان الأستاذ يخالفه بتأويل لفظ مؤمن ، أى إيماناً كاملاً ، فلم يرقه هذا التأويل وقال مغضباً : « اللهم إنى أصدق محمد بن عبد الله ، ولا أصدق محمداً أبا الفضل » .

الثانية : صلابته فى الحق ، وتمسكه بأمهات مكارم الأخلاق ، فلا يتسامح فى الكذب ولا الرياء والنفاق ، ويكره من الشخص الضعف عند الحق .

وكان من مبادئه ، أن الصدق منجاة . وله فى ذلك حادثة غريبة فى ذلك الوقت ، حيث كان يتفحص بعض الألواح المنصوبة على ثكنات الجيش البريطانى بالاسكندرية ، فاشتبهوا فى أمره ، واقتادوه إلى القائد، بعد ما سألوه عن اللغة الأجنبية التى يعرفها ، فأجاب بأنها اللغة الألمانية ، وكان هذا الاعتراف وحده كفيلاً باتهامه بالتجسس . ولكنه لم يكد يقف أمام القائد، حتى شغل عنه بضابط كبير . ولما فرغ من حديثه التفت اليه وقال له : اخرج من هنا ! ماذا جاء بك ؟ فنجا من هذه المصيبة .

وكان يأمرنا بالجهر بالرأى ، ما دام الإنسان لا يؤذى أحداً بالقول ، ولا يتكلم فى شأن امرئ ، أو يقدح فى أحد .

الصورة الثامنة وهى خاتمة الصور :

كان للأستاذ الكبير ، محمد نجيب حتاته ، الفضل كل الفضل ، فى مساعدتى على إخراج هذه المذكرة ، و إمدادى بالمعلومات الكثيرة عن الأستاذ رحمه الله ، و بخاصة ما كان منها داخلياً أو شبهه . وما كنت لأصور للمترجم صورة عن الأستاذ السيد نجيب ، لولا أنى أحببت أن أستر شكرى له وراء هذه الصورة من الصور . ولقد قابلنى فى عائمته مراراً ، قدم لى فى الأولى الصورة الشمسية للفقيد ، وأمدنى بكثير من أنباء أسرته ، مما تراه فى غير هذا العنوان ، ولكنى — فوق ذلك — أثبت له بعض الشىء أجعله خاتمة حسنة للصور ؛ قال ، أعزه الله :

(١) كان الفقيد ، رحمه الله ، يعدل و يسوى بين الخدم وسائر أفراد الأسرة فى الطعام ، فكانوا إذا أرادوا أكل حمام مثلاً ، حسبوا لكل خادم من النصيب فى الذبائح ، مثل ما لكل فرد من أفراد الأسرة .

(٢) وكان رحمه الله باراً بأهله إلى أبعد حد ، حتى لقد تنازل عن أملاكه لهم، مكتفياً بنصيبه فى المعاش .

(٣) كان فى أواخر أيامه يميل إلى الزهد والتقشف ، والمعيشة الفطرية الساذجة ، وكان لا يعنى بملابسه ، فلا يرتدى حلته كاملة ، إلا عند التوجه لزيارة عمه سعد ، لشدة احترامه له .

(٤) ومن تشدده فى حمل الناس على رعاية الآداب ، أنه وجد رجلاً يبول فى الطريق مكشوف العورة ، فضربه وأهانه ، وأراه شناعة فعلته ، وأنها منافية للآداب ، والشرع والذوق .

(٥) ومن نوادره وهو بالتوفيقية : أنه وجد تلميذين أخوين ، يتقدم أصغرهما على أخيه الكبير ، فلما رأى فى ذلك إحراجاً للولد الكبير ، أخذ ينشطه و يشجعه ، و يجامله و يحابيه — على كره منه ، وتنافر طبيعته لمثل هـذه المجاملة — وكانت النتيجة أن تقدم هذا التلميذ الكبير بفضل تشجيعه ومجاملته . وكان يقصد إلى أن التلميذ الصغير لا يحقر الكبير ، وهو مغزى خلقى كان يرمى إليه ، وأن يحيى استعداداً كامناً عند الولد الكبير .

(٦) كانت حدأة كسيرة الجناح ، تأوى إلى شجرة بمنزله فى حى السيدة ، فواساها وداواها ، حتى شفيت واستأنست ، فكانت تنزل كل يوم فى صحن الدار ، ليقدم لها غذاؤها .

فصادفها العياش يوماً فأسرها . فلما عاد الأستاذ للمنزل ولم يجدها ، وعلم بما كان ، كتب تواً إلى مدير المخبز ، يشكو صنيعه ، و يعتبر تعديه على الحدأة وأسرها عملاً خارجاً عن حد الأمانة ، و إن مثل هذا الشخص لا يؤتمن فى عمله ، وطالب برد الحدأة . فأجابه صاحب المخبز إلى طلبه ، ووقع على العامل عقوبة زاجرة .

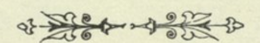


إلى هنا تم استعراض هذه الصور ؛ وهى ، على تشعب مراميها ومناحيها ، لم تستوعب إلا قليلاً من صفات الأستاذ . وليس على القارىء ، بعدئذ ، إلا أن يعود فينظر إلى صورته الشمسية ، و يتأمل هذه الشخصية الفذة ، التى جمعت بين الأناقة والكياسة ، بسطة فى الجسم والعلم ؛ ترى كتابه بيمينه دائماً .

وقد شهد له بعض أساتذة الأدب بمتانة العبارة ، و إن كان قد نسبها إلى حسن استعداد الأسرة فى الخطابة والكتابة . وكثيراً ما نسمع من خَلْق كثير ممن يعرفونه ، غير من ذكرنا ، أنه كان غاية فى الكمال ، يرى لزاماً بروز الإنسان بالكرامة ، لا يقبل الإهانة ، يمتاز بالأنفة والشخصية البارزة . وكان يحذر إخوانه من الوقوع فيما ينتقد ، و يمتدح كل من يظهر بشىء من الخلق الفاضل ، ولذلك كان لا ينال رضا ومدح كثير من أقار به .

و ينسب إلى الأستاذ — رحمه الله — أنه توجه صباح يوم لزيارة عمه سعد ، فوجد مائدة الإفطار مكللة بأنواع أطعمة الصباح ، وفى انتظار الآكلين ، فغضب لمرآى المائدة ، وعجب من وجود مثل هذه الموائد فى القصور ، على حين تخلو بطون كثير من أفراد الأمه من لقيمات تقيم الصلب ، ثم طلب الباب مغضباً . ولما نزل عمّه سعد وعلم بما كان ، استصوب رأيه ، وقال : إنه يقول حقاً .

هذا ، وليس من شك فى أن مترجمنا ، كان العالم المنسى ، والأديب المجهول ، والفيلسوف المستتر ، ولكن الزمان — على سوء ظن النـاس به — يحتفظ لكل عامل بالاعتراف بفضله ، ولو بعد حين .



رسالة الأخــــلاق :

وبعد ، فهذه رسالة الأخـــلاق ، التى تصديت لنشرها ؛ كتبها الأستاذ — رحمه الله — فى خمس سنوات (١٩٠٥ — ١٩١٠) قضاها بدار العلوم ، وكان يعدل فى كل عام عن بعض الموضوعات ، يستبدل بها غيرها . ولما كانت آخر سنيه بالمدرسة ، هى السنة التى درست معه فيها هذه المذكرة ، وكان قد أغفل بضع موضوعات فى نسختنا ، حاولت جمع شتاتها ، ولم أترك منها إلا ما ند عن حرصى أو شرد عن اقتناصى ، محافظة على تخليد هذا الأثر القيم . وعلى الرغم من الحصول على عدة نسخ مختلفة ، فإنى لم أجد أبواباً أشار إليها فى خلال كلامه ، كقوله فى صفحة ١٤٧ (ما نقلناه فى باب الحياء) ، وقوله فى صفحة ١٥٥ (بينا فيما سبق ثمرات الشفقة وأثرها فى العالم) وقوله فى صفحة ١٣٥ (وقد قلنا فى الشفقة) وقوله فى صفحة أخرى (كما فى باب السخاء) مع أنه ليس لدينا باب الحياء ، والسخاء ، والشفقة الخ ، ولعلها موضوعات كانت فى عالم الإعداد ، ولم تخرج إلى عالم النشر والتدريس .

ولقد يلحظ القارئ أن الثلاثين عاماً التى مضت على هذه المذكرة ، حققت كثيراً من آمال الأستاذ ، التى كان يشير إليها ، ومنها :

(١) وجوب العناية بتعليم البنت ، وإعطائها حقها من الاعتبار .

(٢) رأيه أن الأزهريين يجب عليهم تعلم اللغات الأجنبية حتى يتصلوا بالعالم .

(٣) دعوته الأمراء لمشاطرة الأمة مشروعاتها .

(٤) تأسيس الجامعة المصرية .

(٥) إشارته إلى الخلاف الذى قام حول الميضآت والحنفيات.

ومن هذا القبيل تنبؤه بسقوط مراكش وروسيا.

ولعلك، أيها القارئ، سائلى عن منزلة هذه المذكرة بين كتب الأخلاق العلمية البحتة؟ فأرى أن الأستاذ — رحمه الله — كان ينظر إلى المادة العلمية، والنصوص الأخلاقية، نظر الطبيب إلى المداواة بالسموم؛ فهى لا تكون إلا بمقدار، وعند الضرورة، وفى بعض الأحوال؛ اعتماداً منه على قوة روحه، وبلاغة لفظه، وشدة تأثيره، وعميق إخلاصه، وإسماع نداء الفضيلة فيما يكتب وما يقول. فهو لم يكتبها كتاباً يقرؤه الناس — ولو كان حياً لما سمح بنشرها — بل مذكرة لطلبته، يجليها لهم، ويشرح منها ما غمض من معنى، ويبين ما أشكل من فكرة.

وإياك، أيها القارئ، أن تدرك من هـذا، أن هذه المذكرة فيها مأخذ أو مطعن!! كلا! بل إنها تحفة أدبية، تسمع فيها جرس صوت الأستاذ، مع دقات قلبه، ويتجلى فيها أسلوبه الخاص الممتاز «بسهولة اللفظ وصـدق المعنى»، يتسرب إلى أذنك فتنساب معانيه إلى قلبك، لا يتخذ غيره مقراً، ولا يبتغى لجهة أخرى سـبيلا.

وكان الأستاذ فى درسه — فى الأخلاق — عملياً ومحاضراً، يعول كثيراً على النصح والإرشاد، معتمداً على عبارته المختارة، وقدرته على الخطابة، واستعداد سامعيه لتلقى ما يدلى به، وطريقته الخاصة فى التدليل على المحاسن والمثالب، ومشاركة قلبه للسانه فى الدرس، وتخير الطرق للوصول إلى قلب السامع. يختم ذلك كله بنصائح حارة ملتهبة، يحلى بها درسه، ويطرزها بوقائع مشاهدة، وحقائق واقعة، فلا يسع الإنسان إلا التسليم.

ولهذا أقرر — ويقرر معى كل طالب درس على الأستاذ — أنه كان إذا فرغ من الدرس شرحاً ، نبتت الفضيلة فى نفوسنا ، كما تنبت الفسيلة فى الأرض القراح ، يغرسها الزارع الصالح . وإذا كان موضوع الدرس تنفيراً من رذيلة ، صورها فى أبشع صورة ، فاقلع عنها من كان فيها ، وخرج منها كما يخرج الأسود السالخ من جـــلده .

ولقد يضطرنى إخلاصى للأستاذ — رحمه الله — أن أرجو القلم فى الإمساك عن الكتابة ، لأنى كلما حاولت بياناً أحسست بتقصيرى ، وأدركت أن مجال العبارة مُزْرٍ بمقامه . وليس علىّ بعدئذ إلا أن أدعو القارئ لتلاوة هذه المذكرة ، المرة بعد المرة ، فسيجد فى كل مرة جديداً ، ويجد فى كل إعادة لذة ، إذ أنها بعض المعنى بقولهم « المكرر أحلى » .

وقد حاولت أن أتعجل إلى القارئ بسرد بعض فقرات من مختلف الموضوعات ، اتخذها مُثُلا لإيضاح ما قصرت عنه عبارتى ، فإذا بى أمام تلك الجملة والكتلة كلها ناطقة بما أريد .

لهذا أترك المذكرة كلها للقارئ يتمتع بها ، روضـة من رياض الأقلام ، وبستانا جمع كل شذى وأريج ، طاب ريحـه ، من المعانى المختارة ، والبحوث الممتازة ، نقشت بالنقوش الفنية الطبيعية ، المتسقة المنسجمة ، فما ترى فيها لفظاً إلا فى موضعه ، ولا معنى ينبو عن سلسلة المعانى المؤتلفة منها هذه الموضوعات .

وكان من عادة الأستاذ — رحمه الله — أنه يفكر فى الموضوع تحسبه ضئيلاً صغيراً ، فإذا به يفكر فيه يوماً وليلة ، أو أكثر من ذلك ، يقيد فيه عشرين

عنصراً أو نحوها ، ثم هو بعد ذلك يعترف بالتقصير فى التفكير ، ويخشى أن يطلع أحداً على ثمرات فكره وقلمه ، إلا فى شىء من التردد غير قصير .

وكان ، من هذه الناحية ، مسرفاً أو مغالياً ، أو قل مبالغاً فى اتهامه نفسه ، حتى إنه طالما حبس من آثاره الأدبية ، ومكتوباته القيمة ، ما لو وصل إلينا لكان خير تراث ؛ إلا أنه لحسن الحظ ، قد أبقت كراسات تلاميذه ، على بعض مقالاته ، التى كان يترجمها عن الألمانية ، ولعل الزمن — بعد نشر هذه الرسالة — يسمح لعالم الآداب بالكشف عن كنوز آثاره !



بسم الله الرحمن الرحيم

التربيــة

التربية، على الإطلاق، توصيل النَّامى إلى كماله اللائق به . فتُصيب النباتَ، وهى، فيه : تعهده بالسقى والسَّماد، وتنظيفه من النباتات الغريبة التى تزاحمه فى غذائه ونحو ذلك . وتصيب الحيوان، وهى : إعداده إعداداً تامًّا لِما يُرادُ منه ؛ ففى الفرس مثلا تكون بجعله سريع العَدْو سهل القياد . وتصيب الإنسان، وهى فيه : قول وعمل، الغرض منهما توصيله الى كماله المستعد له .

وهذه الأخيرة على نوعين : تربيــة النفس، وتكون بِبَثِّ الفضيلة فيها كالصدق، واجتثاث الرذيلة منها كالكذب ؛ وتربية الجسم، وتحصل بنحو الأعمال المساعدة على نموه واستكمال قواه كالحركات الرياضية، فإن الحركات والأعمال الجثمانية المتنوعة سببٌ فى نمو الأعضاء واستكمال قواها، كما نشاهد نحو هذا فى أقدام السعاة وأيدى كل العمال الذين يكثر عملهم بأيديهم .

نعم إن التربية النفسية أفضل من التربية الجسمية، لأن الصناعات، كما قالوا، تتفاضل بتفاضل موضوعاتها، إلا أننا مع هذا، ندرك ثمرة كبيرة للتربية الجسمية، ولسنا بمخطئين إذا قلنا بضرورتها . فعليك بحَمْل الصغار الذين تلى أمرهم على الحركات المتنوعة، خصوصاً المنتظم منها، مع اقتناعك كما يأتى، أن الألعاب الرياضية الحاصلة فى المدارس من قسم الهزل الذى يراد به الجد .

العقل السليم — كما يقال — فى الجسم السليم . وسلامة الجسم لا تتم مع إهماله وعدم تعهده بما يوصله إلى نموه وقوته ، وحينئذ فلا بد لنا من التربية الجسمية. بحصول الجسم على قوّته يتأتى لنا القيام بالأعمال المتنوعة التى تكلفنا إياها هذه الحياة كما ينبغى . التاجر والزارع ، والصانع والكاتب ، وجميع العمال فى هذه الدار ، إن لم تكن أجسامهم نامية قوية ، لا يقتدرون على أداء أعمالهم كاملة ، بل لا بد أن يقع فيها نقص يسقط بقدره من الثمرات .

الجسم آلة أُولَى ، وهبها الله تعالى للنفس تنفذ بها ارادتها فى هذه المواد ، وتتصرف فيها . فينبغى أن يُعْنَى الانسان بتجويد هذه الآلة ، عنايته بسائر الآلات ، بل هى أحق . والذى يهمل جسمه يضعف تصرفه فى المواد ، وتقل ثمرته ، ويكون مثله كمثل نجّار يُبَاشِرُ قطع الخشب بمنشار كليل . انك تشاهد الناس القليلى الحركة — وكثير ما هم — لا يحصل لأجسامهم نمو نافع ولا قوة ، حتى إنهم لا يستطيعون ركوباً ولا سيراً ولا عملاً من الأعمال المختلفة التى تستدعيها هذه الحياة ، ويقل الانتفاع بهم ، وأحياناً يحملون غيرهم أثقالهم ؛ فهم وان شاركوك فى الحياة المطلقة أموات من وجه . فعليك بتربية جسم من تَلِى أمره كما تربى نفسه .

الخُـــلق

حال للنفس تصدر عنها الأفعال بلا روية ولا تكلف ، كالسخاء . فان كانت تلك الحال بحيث تصدر عنها الخيرات فالُخلُق فاضل ، كالصدق ، فانه ينشأ عنه نظام المعاملات ، والا فناقص ، كالكذب فانه ينشأ عنه فسادها .

واختلف فى قبول الأخلاق للتغيير على قولين : فذهب جماعة إلى أن الأخلاق منها غريزى ، وهو ما لا يقبل التغير ، ومنها غير غريزى وهو قابل له . وقال الجمهور

ان كل الأخلاق قابلة للتغير، ولا شيء منها بغريزي ، وإن هذا مشاهد ، وإن الرأى الأول يؤدى الى ابطال قوة التميز والعقل ، ورفض السياسات كلها ، وترك الصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه . وإنه ليس بغريب أن يتغير خلق الانسان وهو عاقل ، مع مشاهدة أن الفرس بعد كونه جموحاً يصبح ذلولا سهل القياد .

هذا وبعض الأخلاق قد يثبت تابعاً لخلق أو وصف آخر ، كالكذب ، فانه يثبت تابعاً للفخر أو كثرة الكلام مثلا كما ترى فى بابه ، والحسد يتبع البغضاء كما ترى فى بابه أيضاً ؛ فمثل هذه التوابع تزول بزوال متبوعاتها ، وذلك أمر مشاهد . وبعضها يثبت ويزول تابعاً لحالة العَصَب ، صحة ومرضاً ، أو قوة وضعفاً . فِحيناً نشاهد الشخص شجاعاً مثلاً ، وآخر جباناً ، كما تقتضيه الأحوال المختلفة لعَصَبه . ومن هنا حكمنا بأن هناك رابطة قوية بين العَصَب والأخلاق .

والأخلاق فى الجملة منها ما هو راسخ ، كالشجاعة والجبن ، وهذه تعمل فيها المؤثرات ببطء ، ومنها ما هو سهل التغير بالتأديب والعوارض المتنوعة ، كالكذب والنظافة والتبذير . فقد جُرِّب أن بعض الناس كان مبذراً ، ولما أدّبه الفقر زماناً صار مقتصداً . وإشراب الدين ، وفضائله ، وكذلك المخالطة الحسنة ، أقوى أساس تبنى عليه الأخلاق الفاضلة ؛ ولهـذا ننصح بهما لطلاب الفضيلة .



القوى الثلاث

إذا تعقلنا النفس الإنسانية قبل تعلقها بالجسم ، تعقلناها فيما يظهر ، خيراً محضاً . أما بعد التعلق فقد عرض لهذا المركب نفوس أو قوى ثلاث ، هى مصدر ما يقع منه من الخير والشر ، وهى :

(١) القوة الفكرية : وبها يكون الفكر والتميز والنظر فى حقائق الأمور .

(٢) والقوة الغضبية : وبها يكون الغضب والإقدام على الأهوال ، والشوق الى التسلط والترفع وضروب الكرامات .

(٣) والقوة البهيمية : وبها تكون الشهوة ، وطلب الغذاء ، والشوق الى الملاذّ التى فى المآكل والمشارب ، وضروب اللذة الحسية .

وهذه النفوس ضرورية جداً لحراسة الانسان وسعادته ، كما أنها لازمة لتعميره فى الأرض .

أما القوة الفكرية ففضلها لا يخفى ، وسيجىء شىء خاص بها . وأما القوتان الأخريان ، فلأنه ، على فرض عدم وجودهما ، كان ينتفى فى الانسان مثل الشجاعة والصبر ، واحتمال الكد والحميَّة ، وطلب المآكل والمشارب ، التى هى من ضروريات الجسم . ولو انتفت هذه الأوصاف ونحوها ، لما تم للإنسان بقاء ولا للكون نظام . ونحن نسرد لك هذه القوى على الوجه الذى فى كتب الأخلاق :

أولاً : القوة الفكرية ، أو النفس الناطقة : وهى مختصة بالانسان ، مميزة له عن سائر الحيوان ؛ ومتى اعتدلت هذه القوة بأن صارت فى الحد الوسط نشأت عنها فضيلة الحكمة ؛ وهى هنا — كما نبَّه اليه بعضهم — ملكة تصدر عنها أفعال

متوسطة بين أفعال الجربذة والغباوة . والحكمة تستتبع أوصافاً محمودة ، كالذكاء ، والعقل ، وأصالة الرأى .

ولهذه القوة طرفان : فالأعلى منهما يسمى جربذة وهو أصل لكثير من الرذائل ، كالخبث ، والمكر ، والدّهاء ؛ والأدنى يسمى بَلَها ، وتصدر عنه الرذائل أيضاً ، كالحمق والبلادة .

ثانياً : القوة الغضبية ، أو النفس السبعية : وهى مشتركة بين الانسان والحيوان . ومتى كانت هذه القوة خاضعة للنفس العاقلة ، نشأت عنها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة ، وهى الإقدام على الأمور الكبيرة ، إذا كان فعلها جميلا ، ويتبع الشجاعة أوصاف محمودة ، كالشهامة والثبات والصبر .

أما طرفاها فهما : الإفراط ويسمى تهوراً ، ويصدر عنه مثل العُجْب والتكبر ؛ والتفريط ويسمى جُبْناً ، ويصدر عنه الذلة والجزع ونحوهما .

ثالثاً : القوة الشهوانية أو النفس البهيمية . ومتى كانت هذه القوة معتدلة فى حالة التوسط صدرت عنها فضيلة العفة . وظهور هذه الفضيلة فى الانسان يكون بصرف شهواته بحسب الرأى ، ويصدر عنها السخاء والصبر والقناعة والأمانة .

أما الطرفان فهما : الإفراط وهو الشَّرَه ، ويصدر عنه مثل التبذير والوقاحة ؛ والتفريط ويسمى خموداً ، ويصدر عنه مثل البخل والتقتير والتذلل لذوى الغنى . ويحدث من هاتين القوتين متى اعتدلتا واستسلمتا للحكمة ، فضيلةٌ رابعة ، اسمها : العدالة ، وهى فضيلة ينتصف بها الانسان من نفسه ومن غيره .

وينشأ عن العدالة فضائل ، كالعبادة ، وصلة الرحم ، وحسن المعاملة . وأكثر علماء الأخلاق على أنه ليس للعدالة الا مقابل هو الجور .

ويفهم مما سبق أن أصول الفضائل أربعة: وهى الحكمة، والشجاعة، والعفة والعدالة.

الشيء يَكْمُل بمزيته، والانسان بنفسه الناطقة.

كل شيء له غرض يُطْلَب منه، هو الذى نسميه مَزِيَّتَهُ وكمالَه. ونقصُه راجع الى كمال تلك المزيّة فيه أو نقصِها. فمزية السيف مثلا القطع، فان كان حادًّا يَنْصُر الفارس عند الحرب فهو كامل، وان كان كَهَاماً يَخْذُلُه فهو ناقص. ومزية أفراس الحرب والسَّبْق سرعة العَدْو. ومزية أفراس النقل القدرةُ على الحمل وجرِّ الأثقال. فان كان العَدْو فى الأولى، والطاقة فى الثانية كما يُطْلَب، فهى كاملة، والا فناقصة. ومزية اللغات دلالتها على المقاصد المختلفة، سواء كانت اللغة ملفوظة أو مكتوبة. وكمالُ اللغة أمرٌ مِنْ حقّه أن يرجع الى وضوح الدلالة، كما أنَّ نقصَه يرجع الى خفائها. وإذن فمن الخطأ الواضح، أن تحكم بأن هذا الكتاب الصعب خير من هذا الكتاب السّهل. فاذا كتبت فلتكن عنايتك موجهة الى جعل القول سهلاً. من الخطأ أيضاً ما يصير اليه بعض الكاتبين من التعقيد فى الامضاءات، وتذاكر الزيارات «الكرتات»، والأحاديث والحكم والمواعظ، التى يكتبونها فى الألواح. نعم لنا أن نجعل للطلاوة وحسن التركيب موضعاً فى تلك الألواح، ولكن لا الى حد أن تُضْطَهَدَ فيها روحُ اللغة، حتى يبقى الحديثُ والحكمةُ صورةً فقط، تعلّق للزينة. العبارة الصّعبة تتعب السامع بلا جدوى، وتضعف روح القول، وتذهب بالزمن من غير فائدة، وربما أفهمتْ غير المقصود، وأدّت الى غير المراد. المقصد من اللغة الدلالة على الأغراض المختلفة فقط، فليس من الصالح تضييع أزمان فيها. ومزّية بعض البقر اللحم، ومزية بعضٍ آخر اللبن والسمن، ومزية قسم منه فَلْح الأرض. فان كان الأولُ كثيرَ اللحم، والثانى كثير الدسم طيّبَ اللّبن، والثالثُ مدرّباً على إدارة الآلات المختلفة للزراعة، كالمحراث

والنَّورج ، فـكامل ، والا فناقص . ومزية بعض الـكلاب الحراسةُ ، ومزّية بعضٍ آخرَ الصيدُ ، فان كان الأول قليلَ النوم دائمَ اليقظة ، والثانى سريعَ العدو بحيث يطارد الحيوانات المختلفة ويدركها ، فـكامل ، والا فناقص .

هذا ، أما كمال الانسان فليس بسرعة عَدْوِه لأن الفرس يسبقه ، ولا بكثرة لحمه فان البقر أكثر منه لحماً ، ولا بالمأكل والمشرب مما تقصر عنه همم كثيرين ، وإلاَّ كان حقيراً ؛ لأن كثيراً من الحيوانات أقدر عليهما منه وأحرص ، كالخنزير وسباع الوحوش . بل بنفسه الناطقة ، بمعرفته وخلقه الفاضل . بالنفس الناطقة أُعدّ الانسان للخلافة، عن الله تعالى ، على الأرض وما فوق ظهرها ، وما أودع فيها ؛ فهذه أرض الله ، وهذا ملك الله . بالنفس الناطقة تأهّل الانسان لسعادتى الدنيا والآخرة . انظر الى هذا الهيكل الذى تراه إذا انطفأ سراجُ عقله وصار مجنوناً ، كيف يبطل معناه ، ويهون شأنه ، ولا يبقى له قيمة ، بحيث يكون أىّ موجود من الأشياء خيراً منه . وقد اقتضت حاجة هذه الدار إلى العمل ، بتوزيع الأعمال المختلفة على الأفراد ، على كل فرد عمل مخصوص ، أعدّه له استعداده غالباً ، وصار هذا العمل منوطاً به ، كان مرتبة العمل بمقدار ما يحسنه ؛ ولهذا لا ترى أهون على الناس من عمل غير صالح . فالحارس مثلا يكمل بأمانته ويقظته . والطالب بصحة استعداده لإدراك ما يلقى عليه . كذلك فروع الحـكومات المختلفة ، فالقضاة يكملون بالعـدل ومعرفة الحق ، وعمال الداخلية بحفظ الأمن .



الدين وتأثيره فى الأخلاق

لا تجد زعيماً أجدرَ بالزعامة ، ولا إماماً أخلقَ بالأمامة ، وأولى بأن يبذل له الجماعةُ كل الطاعة ، ولا قاضياً أقضى بالفصل ، وأحكمَ بالعدل — من دين سماوى ؛ كما لا تجد معلماً أبرَّ فى مآربه ، وأخلصَ فى نواياه ، ولا عِلْماً أصدقَ فى تجاربه ، وأصح فى قضاياه ، ولا قولاً أحكمَ ، ولا حكمةً أتمَّ ، ولا سبباً الى السعادة أقوى ، وأقربَ للتقوى — من دين سماوى ، يَهبْط بصلة بين السماء والأرض ، من طيه أن يعيش الناس فى سلام ، وتُصبحَ الأرض مُخْضَرَّة باذن ربها .

ويغشى الناسَ ليلٌ دامسٌ مظلمٌ من الغفلة ، لا يشرق فيه كوكب ، ولا يسفر له فجر ، فيقطعون الحق ، ويصلون الباطل ، ينصرفون عن الله تعالى وهم حسنة من حسناته ، ويجحدونه وهم آية من آياته ، ويعكُفُون على أصنام لهم لا تملك لهم من دونه شيئاً . تفتك بهم الرذيلة التى لا تذر من قلب أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وتوحى اليهم شياطينُهم ، فيفسدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ، ويروحون الى الحروب وجَزِّ الرءوس ، كما يروح الزارع المُجِدُّ الى الحصاد ، لا يعطفون على قريب ولا يَرْثون لغريب ؛ ألم تر كيف كانت العرب تَئِدُ بناتها ؟ !

يجيء الدين وهم هكذا ، ويَصِيحُ بهم منهُ صَائح ، فينتبهون من غفلتهم ، ويَهُبُّون من رقدتهم ، ويَنْبَلِجُ لهم صبح من الرشاد ، حتى يرَوا اعوجاج مذاهبهم ، والْتِوَاءَ سبُلهم ، ويصلوا الحق الذى كانوا قطعوه ، ويقطعوا الباطل الذى كانوا وصلوه ؛ يؤمنوا بالله تعالى ، ويتوبوا اليه ، وتَطْهُرُ نفوسهم من الرذيلة ، ويعصوا شياطينهم ، ويصلحوا فى الأرض ، ويصبحوا بنعمة الله اخواناً ، متواصلين ،

مُتَحَابّين ، متراحمين ، وتنجلى الشقاوة من على سطح الأرض انجلاءً ، حتى لو توارى شىءٌ منها فى جحر ضبٍّ حَرِبٍ لسُلِّطت عليه عينٌ من الدين فأبصرته ، ويدٌ منه فاجْتَثَّتْهُ .

إنا إذا شققنا الرءوس شقاً ، ثم صببنا فيها العلم صَبًّا ، ولم تكن مع هذا عناية بتقويم النفوس ، واصلاح الأخلاق ، لا ندرى أشَرٌّ أريدَ بمن فى الأرض ، أم أرادَ بهم ربُّهم رَشَداً ؛ لا ندرى أخَيْراً سلكناه فى تلك الرءوس أم شَرًّا ، فكنا فى عملنا كمن يعطى الفقير دراهمَ فيَشْتَرى بها سلاحاً يقتُل به الأبْرياء . هذا بأن العلم إذا لم تقم عليه كَفالةٌ من الأخلاق الفاضلة تضمن للناس الانتفاعَ به ، ذهبت فائدته ، وأصابت منه الشرورُ معاولَ لنقض بناء السعادة ، كما يأتى نحو هذا فى نتائج الأخلاق . فلا بد لنا من الأخلاق الفاضلة ، والمُعِينُ على تحصيلها هو الدين .

إذا كان هناك مؤثر فى الأخلاق يُصَيِّر الشرَّ منها الى الخير ، كالتربية والمخالطة ، فتأثيره بالاضافة الى تأثير الدين كالمتلاشى الزائل . ذلك بأن الدين إذا حَلَّ بقلب أراك قبل أن تقوم من مقامك — من الجبانِ رجلا يهون عليه الموت ، ومن الكاذب الذى لا يكاد يصدُق صادقاً لا يكاد يكذِب ، ومن الشَّرِهِ الذى يكاد الشَّرَهُ يأتى على نفسه عفيفاً وَرِعاً ، ومن المتكبر الشامخ بأنفه متواضعاً أقرب الى الضَّعَة ، ومن البخيل الذى أضَرَّ به البخلُ سَخِيًّا يؤثر على نفسه . يُحِيلُ لك الدينُ الرجلَ الذى أنت أعرفُ الناس به إلى رجل قد تنكره ، ولا تهتدى اليه إلا بدليل . إنه بعد أن كان شيطاناً رجيماً ، أضحى ملَكاً كريماً .

ما أشبه الدينَ بالسحر ، لولا أن الدين قريب من الخير ، بعيد من الشر ، والسحر بعيد من الخير ، قريب من الشر ، وطلبَ هذا حرام ، وطلب ذاك واجب .

وكما يؤثر الدين فى الشخص ، يؤثر فى الأمة ، ولست تحتاج الى برهان على صحة هذا أكثرَ من لَفْتَةٍ إلى جزيرة العرب صدرَ الاسلام ، فقد حل مكانَ التفرقِ الذى كان فيها ، والرذائلِ وسوءِ الحال ، أضدادُها . وبعد أن كانت جزيرة العرب حُفرةً من النار ، تُرَوِّعُها الغارات ، ويحلق فى جوّها البُومُ ، أصبحت روضةً من رياض الجنة ، ترفرف فيها راية السلام . فعلَ الدينُ كلَّ هذا فى زمن قصير ، قد التقى طرفاه ، واجتمع قُطْرَاه ، والطبيعة خَزْيَا تنظُر .

إن كان الدينُ إنساناً له عينٌ فالأخلاق الفاضلة عَيْنُه ، أو حيواناً له قلبٌ فالأخلاق الفاضلة قَلْبُه ، أو شجراً له ثمرٌ فالأخلاق الفاضلة ثَمَرُه ، أو يَنْبوعاً فيه ماء فالأخلاقُ الفاضلةُ ماؤه . وليست الأخلاق الفاضلة أمراً خارجاً عن الدين ، فان الخير الذى أتى به الدين راجع فى الأكثر الى تقويم النفس ، وتخليصِها لأنْ تكون مَنْشَأً للخير ، وهو مرجع الأخلاق الفاضلة . فى صحيح البخارى ، فى أسئلة هرقل لأبى سفيان ، أنْ قال له : ماذا يأمرُكم (يعنى رسول الله) ؟ قُلْتُ (القائل أبو سفيان) : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرُنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصِّلَة ، أى صلة الرحم . هذا هو الدين الإسلامى فى نشأته ؛ ألسبت تراه أمَرَ بخمسة أشياء : التوحيدِ الذى يقوم عليه كل البناء وثلاثة أخلاق ، ثم الصلاة ، وهى راجعة إلى الشكر ، كما كانت آيات الكتاب العزيز فى الإنفاق والصدقات راجعة إلى خُلُق السخاء . قال ابن عباس رضى الله عنه : لكل بنيان أساسٌ وأساس الاسلام الخلقُ الحسن . يرشد النظرُ والاختبارُ ، إلى أنه يوم يأخذ الشخصُ على طريق الدين ، تَخْبُو فى قلبه نارُ الرذيلة ، وتنفجر فيه عينٌ من الفضيلة ، يصيب الناسَ منهـا بِسَجْلَيْنِ لسانِه ويدِه ، ويوم يُوَلِّى عنه ، تضطرم تلك النارُ ، وتنضُب العين ، ويغيض الماء .

إنه يوم استَتَبَّ الدينُ فى قلبه ، شاقَّ نفسَه ، وفزِع إلى الله تعالى ، وألقى بقلبه فى يده ، فمسح عنه من الرذائل ، وخطَّ فيه من خلال الخير ما شاء أن يَخُط ، فاستقام وكثرت حسناته ؛ ويوم تقلقلَ الدينُ فيه ، شاقَّ اللهَ ورسولَهُ ، وصافى نفسَه ، وصار اليها قلبُه ، بعد أن رمى به الله تعالى فى وجهه ، فمسخته ومسحت منه الفضائل ، وطبعت عليه الرذائل ، فاعْوَجَّ وكثرت سيئاته . معنى هذا أنه فى يوم رجوعه إلى الدين ، يطيعُ اللهَ فيفعل الخير الذى يأمُرُه به ، وفى يوم ازوِرَارِه ، يفعل الشَّرَّ الذى تأمر به النفس .

أما تعليم الدين على الوجه المتبع عندنا فناقص لا خير فيه ، لأنه لا يُحدث فى النفس أثراً ، بل مرجعه الى حشو فم المتكلم بألفاظ تَنْصَبُّ منه كلما فتحه للقول ، وإن أثَّرَ فى فؤاده فكما يؤثر الكاتب على صفحات الماء . ألاَ وإن كل علم لا يبقى منه للمتعلم أثرٌ نافع بَيِّن ، يكاد يراه بعينه ، ويلمسه بيده — عَنَاءٌ وباطل ؛ ألا وإنه لا أثر خليقاً بالذكر لِعِلْمِ الدين على الوجه المتبع . من ذا الذى ، بعد أن يقرأ كتاباً من الكتب التى عليها تعليم الدين اليومَ ، يجد فى نفسه من قراءته أثراً صالحاً ؟ ! — يقع بصرى كثيراً على متعلمين يَغْدُون إلى المدرسة ويَرُوحون ، وهم يتبارَوْن أحياناً فى سرد كونه قادراً وكونه مريداً الخ . هذا حظهم من دينهم ، وإنى أؤكد للقارىء ، قدر ما يستطيع واحد هنا أن يؤكدَ ، أن هذه الأقوال لم تجاوز أدمغتهم ، وأفئدتُهم هواء .

فان كنا لا نرى من تعليمنا الدينَ لأبنائنا صلاحاً فى أخلاقهم ، فذلك لأن الدين الذى يَسْتَتْبِع الخلقَ الفاضلَ ، إنما هو شعور خَيِّر يقِرُّ فى الصدور . أليس تعليمُه عندنا يرجع إلى إطلاق الألسنة بالجدل ، وسردِ براهينَ لا تزيد المتعلمَ يقيناً يوم اقتناعه ، ولا تدفع عنه رَيْباً يوم شكه ؟ ! إنما ينبغى أن نريدَ من تعليم أبنائنا الدينَ ، أن نسقىَ قلوبَهم بالفضيلة والتقوى ، وإنْ لم يحسنوا أن يقولوا ، وإلا دفعنا بهم إلى

مُحَامِين. الفضيلة التى يجب أن نَحرص عليها كلَّ الحرص لنا ولأبنائنا، محلها القلبُ الذى بين الضلوع، لا اللسانُ الذى بين الفكين.

أرى أن تعليم الدينِ على وجهٍ نافعٍ يرجع إلى أمرين: المادةِ والطريقِ التى توصل تلك المادة إلى القلب، وأرى أن تكون المادة على نحو ما يأتى:

حفظ شىء من القرآن الكريم والحديث فى: — إصلاح النفس — معرفة العبادات، على وجه مختصر سهل — نعمةِ الله تعالى على الناس — وجوب شكره تعالى، وأن منه العبادات — كمال الله تعالى — ايراد شىء من صفات الفضل، مثل المغفرة والرحمة — محبة الله تعالى، والاجتهاد التام فى مزجها بالنفس، وملاحظة أنها رُوح الدين — جزاؤه للانسان بما عمل، وما يرتبط بهذا من السمعيات.

(فى الرسل): سِيَرُهم، كمالهم البشرى، محبتهم للناس، وحرصهم على سعادتهم، وسعيهم فيهـــا، رغمَ ما لقوا من الأذى. وجوب محبتهم والاقتداء بهم. سيرة النبى، صلى الله عليه وسلم، تفصيلاً.

جملة صالحة من أمهات الأخلاق الفاضلة على أنها من الدين، وإتباعها بما جاء فيها من الآيات والأحاديث، وجملة كافية من الأخلاق الناقصة، وبيان أنها تناقض الدين.

هذا ما أراه إجمالاً فى أمر المادة، وهى معان إذا تأثرت بها النفس حُمِلَتْ على الخير. وان لم أدُلَّ فى قولى، هذا، المختصرِ على الطريق التى تُسْلَك لتوصيلها إلى القلب، فعسى أن يُوَفَّقَ امرؤ آخر للدلالة عليها. هذا، وإن المعلم الذى يجعل نصب عينيه أن يُعلّم من الدين جَدَلاً، ويَبْغِى من هذا إصلاحَ النفس، يكون كمتطلب فى الماء جَذْوَةَ نار. وأحَطُّ منه، معلم يرى أن الدين هو ذلك الجدَلُ وتلك الأقوال.

أما الذى يجعل نصب عينيه، مَدَّ الشعور وسقيَه بالمعانى والشواهد، فإنه يكون كالزارع البصير، يسقى الشجرةَ الطيبة بالماء العذب.

المخالطة وتأثيرها فى الخلق

لبعض الموجودات تأثير فى البعض الآخر تحدثه المخالطة ؛ فالهواء إن جاور الزهر طابَتْ ريحُه ، وإن جاور الجِيَفَ خَبُثَتْ ، والجسم الحارّ إن جاور جسماً بارداً أثر فيه الحرارة وتأثر منه بالبرودة ؛ والكلب الكسلان إذا قُرِنَ بآخر يقظ ، ينبح الطراق ، ويَثِبُ على من يتوجّس فيهِ رِيبَةً ، سرى فى الأول شيء من النشاط .

وقال بعض العارفين : إن الجَمَل الصعب قد يصير ذَلولا بمقارنة الذَّلول ، والذلول يصير صعباً بمقارنة الصعب . والانسان أكثرُ الموجودات تأثراً بالمخالطة ، وانه لمجموع صور ممـا عليه مُخَالِطوه ، جاءت إليه من حيث يُريد ، ومن حيث لا يريد ، من حيث يدرى ، ومن حيث لا يدرى . وليس الفردُ من كل أمة إلا رَسْماً عملته على صورتها .

يقع التأثر بالمخالطة فى كلّ شىء ، كالعادة ، والخُلق ، والدين ، والشعور .

ترى المرءَ فى أول أمره ، يقيس أكثر عوائده على عوائد الجمهور الذى يعيش معه ، لا يستطيع عدولا عن ذلك ، فلا بد أن يأكل كما يأكلون ، وينام كما ينامون ، وهكذا . ومن أراد أن يخالفهم فى غداء الظهر إلى الغداء ضُحًى وجد المطاعم مغلقة . ومن أراد أن يعمل بالليل وينام بالنهار ، خلافاً لما هم عليه ، فان كان تاجراً لم يجد من يشترى منه ، وان كان مُستخدَماً وجد ديوانه الذى يعمل فيه مغلقاً . واذا فارق الجمهور الذى يعيش معه الى جمهور آخر ، نبذ عوائده التى تخالف هذا ، إما اضطراراً كما مرَّ ، أو اختياراً متى طال الزمن ، حتى علقت بنفسه العوائد الجديدة . ومن الهين تَكَوُّنُ العوائد بالمزاولة واضمحلالها . وليست هناك عادةٌ ، وان واظب الشخص عليها حياته ، ترسخ حتى يتعذر تركها .

هذا فى العوائد، وكذلك الحال فى الأخلاق؛ فالذى نشأ بين قوم لا يُحِلُّون الصدق من الاعتبار محله، ولا يذوقون للحرية طعماً، لا بد أن يؤثر فيه منشؤه، ويكون نصيبه من الصدق والحرية تابعاً لما عليه القوم، ومقارباً لنصيبِ واحدٍ منهم. واذا لحق بقوم آخرين، يُحِلُّون الصدق والحرية محلا رفيعاً، حتى امتلأت عينُ ذلك الشخص وأذنُه شواهد من ذَيْنِك الخلقين، لا يلبث كثيراً حتى يكون له حظٌّ منهما.

ومثل الأخلاق الدين؛ فالذى نشأ فى أُسْرة مُسلمة يصير الى الاسلام بمقتضى المخالطة، والذى نشأ فى أسرة مسيحية يصير الى النصرانية بمقتضاها، وهذا أمر بيّن؛ لأن الطفل، مع كونه قليل النظر، يصير الى الاسلام أو النصرانية متبعاً ما يرى فيه أبويه. قال الغزالى رحمه الله: فإن الصبى بجوهره خُلِق قابلا للخير والشر جميعاً، وانما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفِطْرة، وانما أبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسَانه. ويحدث بعد هـــذا، أن ابن المسلم الذى يصير فى جو مسيحى يتأثر شعوره الدينى، ومثله ضرورة ابن المسيحى الذى يصير فى جو إسلامى.

وكذلك الشعور يتأثر بالمخالطة؛ فالشىء الذى تشعر بقبحه إذا خالطت جمهوراً يَلْهَجُ بحسنه، لا تلبث حتى يزولَ شعورُكَ بقبحه. إن لتوارد الشىء على النفس حتى تألفَه تأثيراً غريباً فى شعورها؛ فمن يستقذرُ شارعاً لِسُكْناه، فما هو إلا أن يسكن فيه أياماً، حتى ينطفئ فيه ذلك الشعور ويألفه. واذا رحلت من بلد تقيم فيه الى آخر أنظف منه، وأقمت فى الثانى زمناً، ثم عدت الى الأوّل، تغير شعورُكَ بحالِهِ، ولم يطب لك المقَامُ فيه كما كان من قبل.

فالتأثر فى جميع ما سبق لا محالة واقع. إدفع بولد صغير، ولو زنجياً، إلى فرنسا، واصطبر عليه حتى يختمر، فانه يصير فرنسياً، لولا تجعدُ شعره، وفُطْسُ أنفه،

وغِلَظُ شفتيه ، وسوادُ لونه ؛ أو ادفع به إلى انجلترا حتى يتم نضجه ، تجده انجليزياً ، لولا ما سبق . قال بعض الناس فى الذين يُرْسَلُون إلى أوربا صغاراً للتعلم ، وأصاب : إنك إذ ترسل ابنك الى فرنسا صغيراً ، إنما تقايض على فرنسى ، ونفقاتُك عليه هناك فرقُ المقايضة . الطالب الذى يدخل الأزهر ، تلقاه ، بعد حين من الدهر ، مجاوراً طبعت فيه أوصاف المجاورين ، كأنما للأزهر قالبٌ أفرغ فيه ، وما هو إلا مخالطة المجاورين . من يدخل الجيش من التلاميذ ليصير ضابطاً ، تراه ، بعد حين ، قد صُقِل بصقلة الضباط ، وتُدْرِك له ميزةٌ لا يشاركه فيها إلا ضابط آخر . أما ترى القروىَّ والمَدَنىَّ وأثر المخالطة فى كليهما ؟ ألستَ ترى فى الأول نوعاً من الخمول والغرارة ، بينما ترى الثانى نشيطاً خبيراً بأحوال الناس والأشياء . وكم قروىٌّ لما فارق القرية فى إبَّان نشأته ، وقطن بالمدينة ، تساقطت من عليه قشرةُ القرويينَ وأضحى مَدَنيًّا .

ومن يراقب الزوجة أىَّ زوجة كانت ، يَرَ أنه إذا طال عليها العهد فى أسرة الزوج أضحت تمثلها فى أخلاقها ، وأميالها ، وبالجملة فى سائر أحوالها ، أكثر مما تمثل أسرةَ أبيها . إن الجمهور ليس مخطئاً فى تلقيب الكثير من الزوجات بألقاب الأزواج ، خصوصاً إذا طال العهد عليهن عندهم . أما تنظر إلى الطلبة الذين يسافرون لإكمال دراستهم فى أوربا ، فانهم بعد أن يقيموا هناك أربع سنين أو أقل ، فى سن بين العشرين والثلاثين غالباً ، يعودون وقد تغير بعض أخلاقهم وعوائدهم ؟ ! ألست تراهم أشدَّ تمسكا بالصدق والحرية والذمة من غيرهم ؟ ! أحد الطلبة الذين سافروا كباراً ، كان خَجَلُه شديداً ، حتى قَبَضه حياؤه عن الناس ؛ وبعد ثلاث سنين قضاها فى أوربا ، عاد وليس فيه بقية تُحَسُّ من هذا الخُلُق ، وخالط الناس . وآخرون بعد أن جاوزوا الثلاثين ، غَيَّرَ فيهم السفرُ عوائدَ وشعوراً ،

وحل محلها عوائدُ وشعورٌ كانوا ينفرون منهـا . ولكن الصغير أتمُّ قابليةً للتأثر ، والجديدُ أكثر رسوخاً فى نفسه .

والحق أن الشخص ما دام فى تيـار المخالطات المتنوعة ، استمر كلَّ عمره كسبُّورة يتداولها التلاميذ ، فإن سطحها يريك كل حين شيئاً جديداً . هذا وان مقدار التأثر ضعيف فى بعض الناس ، إما لانقباضهم عنهم ، فلا يطّلعون على ما هم عليه اطّلاعاً كافياً ، أو لأن نفوسهم تتنافر مع الجديد ، كما تتنافر الكهربائيتان من نوع . وقد انتُدِب ، فى بعض الأزمان ، أحد إخواننا للسفر إلى أوربا للاستكمال هناك ، فقال بعضنا : مَنْ شيَّع هذا المسافر يوم سافر الى الأزهر ، يستقبله عند عودته من أوربا ، ولم يتغير منه شىء .

فقد بان لنـا أن تأثير المخالطة شديد ، وإن كان بطيئاً ، يتمشى فى النفس كما يتمشى البُرْء فى الجسم ، لا كالدين ، يغيّر الشخص فى برهة . فلا بد من اعتبارها فصلا من فصول التربية ، وتخصيصها بنظر دقيق . التربية المنزلية ، وتربية المدرسة ، لهما حَدٌّ ينتهيان اليه ، أما تأثير المخالطة فإنه لا ينتهى إلا بالموت . كل الوسائل التى تُتخَذ فى الأسرة والمدرسة لِغَرْس الخير فى النفس ، واستئصال الشر منها ، من وَعْد ووعيد ، وجزاء بملائم وغير ملائم ، ربما لا تنفُذُ الى النفس ، وقد يقع فيها الخطأ ، فتنتج نقيض المطلوب ، أما المخالطة فأثر لا يذهب شىء منها باطلاً ، ولا يقع خطأ . الصالح تنفعك مخالطته ، والطالح تضرُّك عشرته . فى الذريعة عنه صلى الله عليه وسلم : مَثَلُ الجليس الصالح ، كمثل الدَّارىّ إن لم يُحْذِك من عطْره ، يَعْلَقْك من ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل القَيْن ، إن لم يُحْرِقك بشرره ، يؤذك بدخانه . إذا صعب علينا إيصالُ الدين الى نفس التلميذ على الوجه الذى قدمناه ، فقد يسهل أن نَصِلَه بأسرة طيبة ، ورفقاء خيّرين . إذا أردت أن ترسل

ابنك الى بلد فيه مدرسة ، فلا تظن أن كل ما عليك هو تحصيل نفقاته ، بل تذكَّرْ أن هذا أهونُ الأمرين ، وأهمهما : أن تلتمس لمعاشرته أسرةً صالحة ، ترضى له أخلاقها وآدابَها ، وإلا فلا أقل من أن تلتمس له رقيباً مرشداً ، خيّرا خبيرا .

وجنّب ابنك مخالطة الخدمِ ونحوِهم ، لئلا يُفْسدوا أخلاقَه وآدابه وعباراتِه ، ويعلق بدماغه بعضُ ما هم عليه من الشر ، أو ربما كانت النفس فى بعض الأحيان على استعداد تام لأن يَعْلق بها ما يرد عليها وينمو ، فان ألقى فيها أمثالُ أولئكم شرارةً فربما انتهى أمرها بنار عظيمة ، ترمى بشرر كالقَصْر . ورُبَّ صالحٍ رأيناه بأعيننا ، أخرجته عن صلاحه مخالطةُ شرّ قصيرة .

لا تُبِحْ لابنك أن يجلس فى محل عام ، كقهوة يأوى اليها السِّفْلة ؛ وإذا سار الى محل تمثيل أو نحوه ، فليكن مع رفيقٍ خيّر . وبالجملة ، فإن من يقدرُ الأخلاق الفاضلة حق قدرها ، إذا راقب تأثير المخالطة فيها ، أعانها نظراً دقيقاً .

وحبذا لو اهتم نفرٌ من المعلمين ، الذين يسعَوْن وراء الخير ، لا وراء المال ، فأكتَرَوا بيوتاً كبيرة ، وقبلوا فيها التلاميذ ، تلاميذ المدارس ، يأكلون وينامون ويسترشدون ؛ إذاً لفعلوا خيراً وغنموا أجراً .



(٥)

السعادة

اختُلف فى السعادة على أقوال ، نسرد لك بعضها ، ثم نتبعه بما عنّ لنا .

قال أرستطاليس : السعادة لها خمسة أقسام ، ولا تحصل سعادة تامّة إلاّ باجتماعها ؛ أحدها : صحة البدن ، والثانى : الثروة والأعوان ، والثالث : حسن الذّكر ، والرابع : النجاح فى العمل ، والخامس : جودة الرأى ، وصحة الفكر ، وسلامة الاعتقاد .

وقال أفلاطون ومعه آخرون : السعادة فى كمال النفس وحدها ، وصحة الجسم من مرض يؤذيها .

وذهب جماعة من الطبيعيين إلى أن السعادة : صحة الجسم والنفس معاً ، بناء على مذهبهم من أن الانسان ، هو الجسم والنفس ، وزادوا حسنَ الحظ .

وذهب فريق من الفلاسفة ، إلى أن السعادة فى كمال النفس فقط . فمنهم من قال : إن الجسم يعوقها عنها فلا تحصل إلاّ بعد الموت . ومنهم من قال : ينبغى حصولها فى الحياة ، وإن الجسم ليس بعائق ، لأنه من القبيح أن تكمل نفس الانسان وتنصرف إلى صنوف الخيرات ، ويسمى مع ذلك شقيًّا .

وقد بنوا تعريفهم على إيراد الملزومات التى تحصل معها السعادة ، ولم يبينوا ما هى السعادة نفسها . والذى يلوح لنا ، أن السعادة نفسها سرور ليس منه ألم ، وراحة ليس منها تعب ؛ أو سرور لا يستلزم ألماً ، وراحة لا تستلزم تعباً ؛ كالسرور الذى يجده الزارع المجتهد عند الحصاد . فان كان هذا السرور لا يسلم للشخص ، بل من

ورائه مشاقّ، مثل اللذات غير المشروعة، فليس خليقاً باسم السعادة، لأنه قد يذهب بصحته بل بأجَله. والسعادة غرض الناس كلهم، الذى يصوبون اليه فى هذه الحياة، وإن سعوا إلى رميه من طرق مختلفـــة. فطلاّب الأموال، وطلاّب المناصب، لا يطلبون هذه الأشياء لذاتها، إنما يطلبونها ليصيبوا بها السعادة، أعنى للراحة والسرور. فأنا أطلب أن أمضى فى وظيفتى زمناً حتى يكون لى فى المعاش نحو عشرة جنيهات مثلاً، ثم أبتغى أن أعمل شيئاً أُوجر عليه بلا ألم، مع حرية تامة؛ إنما أطلب ذلك لسرورى وراحتى. وذلك يكدّ فى جمع الأطيان، حتى يكون له خمسون فداناً تكفى لعيش يجد معه السرور والراحة، حتى آخر أجله. وذلك يضرب فى الأرض بتجارته، ويشقى فى أسفاره وغربته، يجمع مالاً يكفيه مع اليسر، ويعيش به فى سرور وراحة، وهكذا. وهذه أمثلة للسعادات الجزئية. أما السعادة على الاطلاق، فسرور وراحة على الاطلاق. وهذا غير متأتّ فى هذه الدار، لأنه ما دامت النفوس مقسمة على الآمال والهموم والأحزان، والأجسام مقسمة على الصحة والمرض، والقوة والضّعف، والموت والحياة، ولا سبيل لحىّ أن يسلم من هذه العوارض، فلا سبيل إلى وصول السعادة المطلقة. وغاية الأمر أنها أقساط جعل القَسَّامُ بعضَها فوق بعض، بما جعل فى الشخص من الاستعداد، وما سلكه هذا من سُبل الرشاد، ونحو ذلك. والقسط الخليق منها بالطلب واسم السعادة، هو ما نجده فى الأخلاق الفاضلة، خصوصاً الرّضا. وفى الفصل التالى شىء من التوضيح لهذا.

نتائج الأخلاق

أهدى الينا الله تعالى ، تفضلا منه ، قسطاً وافراً من السعادة ، فى طى الأخلاق الفاضلة ، لا يصل الانسان اليه بدونها ؛ فانحرافنا عنها ، إعراض عن تلك المِنْحَة السنية .

عجباً للانسان يُهدَى اليه العَرَضُ الحقير فيتقبله مسروراً و تُهدَى اليه السعادة وهى مطلبه فيلوى عنها ! ! ليست نتائجُ الأخلاق الفاضلة التى يسعى فى تحصيلها الانسان سوى السعادة ، ولا نتائجُ الأخلاق الناقصة سوى الشقاوة ، التى يحاول أن يفرّ منها . الذى يظن أن السعادة أمرٌ خارج عن النفس ، ويرحلُ عن هذا البلد يبغى أن يصيبها فى ذلك ، مثله كمثل الذى فى يده شىء غاب عن خاطره أنه فيها ، فتحوّلَ عن مكانه يتلمّسه فى مكان آخر . كذلك شقاوة الانسان فى نفسه التى بين جنبيه ، يعنى فى أخلاقه الناقصة . والذى يفرّ من بلد يبغى أن يفر بذلك من الشقاء ، يحاول فى المعنى أن يفر من نفسه . اللهم ، إلا فى بعض أمور عَرَضِيَّة قوية تقتضيها حالة المكان . ويمكننا أن نتعرف هذا بنظرة صادقة فى الخُلق الفاضل وأثره ، والناقصِ وأثرِه . وذلك أنا نجد السَّخِيّ سائداً مقضىّ الحاجة ، شاعراً من هذين الوصفين بسرور ؛ على أنه قد يجد سروراً أتمّ ، فى انتشال الفقراء والمعوزين ، من وهدة الفقر الى الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، والراحة بعد التعب . وكذلك حالُ من جدّ فى عمل وثبَت فيه حتى أتمه ، وفاز بالثمرة التى عَمِل لها . وهذه الثمرات سعادات جزئية ، ولكل خلق فاضل ثمرة ، هى سعادة جزئية .

والأخلاق الفاضلة يعسر احصاؤها ، كذلك الحال فى الأخلاق الناقصة . انظرُ فى أحوال الحسود ، وتأمل فى الآلام التى يكابدها ، كلما وصل أحدُ إخوانه إلى

نعمة ، ونعم الله لا تحصى ! وانظر إلى الحريص ، وأكثرُ الناس حريصٌ ، كيف استعْبدهُ حرصُه، وطوّقَهُ بطوق ثقيل من الذل ،لا يُفك عنه حتى يموت ؛ وفكّر فى الآلام التى يكابدها حينما يفوته عَرَض حقيركان يتوقعه، والغضبِ الذى يستفزه حتى يذهب بسمعه وبصره وفؤاده . ولا نُطيل عليك القول ، بل نَكِلُكَ إلى نفسك ، والى ما يأتى بعدُ فى الأبواب المختلفة .

الخلقُ الفاضل يُقَرّب من الدين ، والناقص يُبْعِد عنه ؛ فان الدين ليس بأجنبى من الخلق الفاضل ، بل هو مُقرّب له . والشخص الذى يسعى فى تحصيل الكمال الحق ، أو الفضيلة ، أو الخلق الفاضل ، متى عرف الدين لا يجد بداً من قبوله ، لأن الدين يكون طَلِبَته على الوجه الأكمل، والخلق الناقص مُبْعِد من قبول الدين؛ فالحساد والمتكبرون ، عاقتهم نقائصهم عن قبُول الدين ، كما يأتى شىء من ذلك فى الكِبْر.

ولا ينبغى أن يكون حرصُنا على الأخلاق الفاضلة ، دونَ حرصنا على العلوم ، فرب خُلق فاضلٍ يفيدنا أكثرَ من كتاب مُلِئَ علماً وحكمة . وكأيّن من عالم موسر، يمر بذى الحاجة فيعرض عنه ، مع علمه بما قيل فى اغاثة الملهوف ، وجاهل سليم الفطرَة ، تحمله سلامة فطرته على قضاء حاجته .

الخلقُ الفاضلُ لا يصدرعنه إلا خيْر؛ والعلم ، بدونه ، كثيراً ما يكون آلةً للشر. فالكاتب إذا لم يكن أميناً، كانت معرفته الكتابة سبباً فى تزوير العقود والسندات، والمأذون إذا لم يجد من نفسه ذمةً، اختار الأقوال الضعيفة ، والمذاهب المهجورة ، والحِيَلَ للعمل وغيَّر شرع الله ، وسعى فى جلب الهَرْج وإفساد النظام . والحدّاد إذا لم يكن ذا ذمة أيضاً ، اشترك مع اللصوص ، وصنع لهم المفاتيح ، والعُدَد التى تعينهم على باطلهم .

كلُّ القوَى الموهوبة من الله تعالى ، كالمـال ، والجاه ، والعلم ، إذا لم يأخذ بزمامها قائد من الأخلاق الفاضلة ، كانت مصائب شديدة .

فالشخص الذى أُعْطِى الجاه ، إن كان فى ذاته خيرًا ، يبذله فى مساعدة الضعفاء مثلاً ، والسعى فى قضاء المصالح . أما إذا كانت نفسُه خبيثةً ، وقلبهُ ممتلئ بالعداوة والحقد على هذا وذاك ، فانه يجعل من جاهـه آلاتٍ للشرور ، ويستعين به على الإيذاء . والذى يُعْطَى المالَ ، إن كان خيرًا محسنًا ، سعى به فى صنوف الخيرات ، وإن كان فى طوع نفسه البهيمية ، مثلاً ، استعان به على تحصيل اللذات غير المشروعة ، واشترى بماله شرًّا .

ومثل هذين العالم ؛ فان كان شِرِّيرًا أعانه علمه على الشر . أُنظر إلى بعض المحامين الذين جلسو لفعل الشر كيف يصنعون ! يقع أن العالم إذا سقطت أخلاقُه استُغنى عنه ، ولا يُنْتَفَع بعلمه . فبعض الناس قد غلبته القوة البهيمية ، فجلس لشرب الخمور ، حتى صار لا يصلح لشىء ، مع كونه يتقن العلمَ ، أو اللغةَ النافعة ، ويحتاج إلى مِثْله . وبعضهم زايلوا مراكزهم ، وقد كان يمكن أن يُنْتَفَع بهم انتفاعًا تامًا ، لولا نقيصة فيهم ، وبعضهم باقون فى مراكزهم لسبب مَّا ، وفيهم نقص أبطل منفعتهم .

أن الشخص لَيَبْنِى له بيتًا من المجد بخُلُق واحد يكمل فيه : فهذا السموءل ابن عادِيَا ، ذهب صيتُه بخلق كَمُل فيه ، وهو الوفاء ! وحاتم طيِّئ ، لما كملت فيه فضيلة السّخاء علا ذكره ، حتى إن ابنته لما قَدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه ، وأجلسها عليـــه ! أترى كيف تجل العامةُ عنترةَ ، وأبا زيدٍ ، لشجاعتهما ، ويجلسون لاستماع أقاصيصهم كأن على رءوسهم الطير !! والذين اشتهروا بخلق ناقص ضرب بهم المثل ، وأصابهم ازدراء الجمهور بهم .

إذا نظرت إلى الأمة العربية ، رأيت أنها ما وصلت إلى الملك الكبير ، فى بدء الإسلام ، إلا بشجاعتها ، التى جاءتها من معيشتها البدوية ، وقيام كلٍّ فى البادية بحراسة نفسه ، ومن صفة أخرى جاءهم بها الإسلام ، وهى الاتحاد ؛ فانهم صاروا يداً واحدة على عدوهم ، وأدركوا فى ذلك العهد ما أدركوا ، وإن لم يكونوا أمةَ علم حينئذ . ودولة الرومان الواسعة الأطراف ، إنما اختل أمرُها ، وتفرقت كلمتُها ، لما أخلدت الى الراحة ، ومالت إلى الترف ، وانغمست فى الملاذّ . وكذلك شأن الأمم فى الغالب إذا اقتربت نهاياتها ، سلط الله عليها من أنفسها رذيلةً أو رذائل ، فذهبت بها .

إن خلقاً واحداً فى شخص واحد قد تسقط به الأمة سقوطا .

فالحاكم إذا كان مُبذِّراً ، وامتدت يده إلى بيت المال ، جرَّ على الأمة دَيناً لا تقوى معه على حاجاتها ، ولا تمد عَيْنَها إلى مصلحة تستدعى النفقة ، وتغل يدها عن العمل ، وتُضْرَب عليها السيادةُ لغيرها ، والمراقبةُ ، وتقع فى الحَجْر كالشخص السفيه ، وتخسر من استقلالها قسطاً أىَّ قسط ، وتحمل على كاهلها نِيرَ الاستعباد .

وكذلك إذا تعاقب على الأمة ملوك جائرون ، وحكموا فيها بالاستبداد ، أصبحت الأمة وقد فقدت شجاعتَها وإِباءها ، وصارت طُعمةً لغيرها من الأمم . فقد ذكرنا لك أمثلة شتى تدرك منها فعل الأخلاق بالأشخاص والأمم .



الصدق

الصدق يكون فى القول أولاً ، وفى جميع الدوالّ ثانياً ، كالإشارات المستعملة بالرأس واليد، للدلالة على معان. كذلك يكون فى الأحوال. فاذا خاض جماعة بالباطل فى حق غائب ، فسكتَّ سكوتَ الموافق ، فذلك منك خروج عن الصدق. والحاصل أنك إذا قصدت إفهام غير الواقع ، فدللت عليه بأى شىء ، فأنت كاذب.

ذهب بعض علماء الأخلاق ، الى أن الصدق حسن لذاته ، بقطع النظر عما يرتبط به من الآثار ، وقالوا إنه من الفضائل المطلوبة لشخص الإنسان ، وإن الكذب لا يليق بمرتبته.

إذا صدقت فقد أعنت غيرك بصدقك على البرّ ، وذلك واجب عليك. الصدق واجب ، لأن ضده وهو الكذب مفسد وضار. فمن أراد أن يشترى شيئاً مثلاً ، وهو ردىء ، واستعان بمعرفتك فسألك عنه ، وجب عليك أن تذكره له ، وإلا وقع فى ضرر أنت السبب فيه ، مع أنه لا يجوز لك أن تضر الناس. ومن سألك عن طريق ، وجب عليك أن تصفه كما هو ، وإلا ضلّ ولقى تعباً ، ولا يجوز لك أن تُضل الناس. إذا صدق الشخص ، كان له من صدقه براءةٌ من الغش والنفاق ، والمداهنة ، والغدر والخيانة ، والرياء ، وخلف الوعد ، لأن هذه الرذائل مختلطةٌ بالكذب ، والصدق حافظ من الوقوع فيها ، وكان امرأً ذا ذمة يفى بالوعد ، ولا ينقض العهد.

لولا الصدق لانتُزِعَتْ ثقةُ الناس بعضهم ببعض ، ولما وصل اليهم شىء من الأديان والعلوم والصنائع ، وبطلت جامعتهم ، وتعطلت لغاتهم ، وذهبت باطلاً ،

وتقطعت روابطهم ، وفَسَدَ نظام العالم أجمع ، حتى كان كل فرد يقطن وحده فى صحراء بعيداً عن الناس . فليس فى الأخلاق كما ترى ، خلقٌ أمسّ بالاصلاح والنظام من الصدق ، ولا أفسدُ بهما من الكذب . من أجل هذا كان الصدق أولَ الفضائل ، والكذب أولَ الرذائل .

فالصدق واجب عليك للناس ، ولا سيما الذين يتصلون بك منهم ، كما هو واجب عليك لذاتك .

إنه لا يمكن أن يصل الى شرف حقيقى إلا الصادق . أما الكاذب فانه محتقر ممقوت ، خصوصاً عند ذوى الفضيلة ، وان رفعه المقدارُ فى بعض الأحيان ، الى المناصب الرفيعة ، والرتب السامية .

شبَّه بعض العلماء الكذابَ بالمنتحر ، قال : هذا يقضى على حياة الجسم ، وذاك يقضى على حياة الفضيلة ، وشتان ما بين الحياتين .

التاجر إذا صدق فى تجارته ، اطمأن اليه الناس ، وعولوا على الشراء منه ، وحفظوا أوقاتهم من الضياع فى شراء عَرَض حقير ، ومعرفة جيّده وثمنه ، وأثْرَى . كذلك الصانع إذا صدق فى صناعته ، والزارع إذا صدق فى زراعته ، فان صدقهم يعود عليهم باليُسْر ، وعلى الناس بالراحة .

عليك بالصدق فى موضع ترى أن الكذب ينفعك فيه ، لأن الصدق حق الناس عليك ، فلا يجوز لك أن تُخِلّ به ، رغبة فى الحصول على خير موهوم أو محقق ؛ ولأنك ، مع كل ضرر يأتيك من جهة الصدق ، خير منك مع كل فائدة تأتيك من جهة الكذب . على أن الأمر قد يجىء على غير ظنك ، وترى من بعدُ أن الخير فى الصدق .

عليك بالصدق فى موضع ترى فيه أن كذبك مما لا يطلع عليه أحدٌ ، لأن الله مطلعٌ عليك ، ولأنك تكونُ قد اضْطَهدت الفضيلة الواجبة عليك لشخصك ، وانه قد

يكون فى الأمر ترتيبٌ لا تقف على سره ، ينتهى بظهور كذبك ، فتقع فى الفضيحة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة　　　وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

اتق الله فى أسرتك وأبنائك ، الذين جعل الله فى عنقك تربيتهم ، وتوصيلهم الى الفضيلة ، فلا تكذبْ أمامهم ، وإن كنت هازلاً ، فانهم يقلدونك فى أحوالهم.

ويل للأبناء الناشئين بين أبوين يكذبان فى الجد والهزل ، والسر والعلانية ، ويخلطان أكاذيبهما بِثَلْم أعراض الناس ، والحطِّ من شأنهم ! أنهم ليزرعون شوكا فى قلوب أبنائهم ، يجدون متى كبروا لذعهُ فى أحشائهم ، ولا يثمر بين الناس إلا عناءً وهرجاً .

عليك بالصدق ، خصوصاً إذا كنت معلماً ، لأن صورتك تنتقل فى نفوس كثيرة ، وأنت أعمل من غيرك فى مساعدة أمتك على الفضيلة أو الرذيلة .

ويل للأمم من الحكومات الظالمة ، لأنها تقتل فيها الفضائل ، التى فى مقدمتها الصدق ، كما فعلت بنا تلك الحكومات السالفة والقوانين . إن بلادك هذه أصيب جمهورها بالكذب ، فيما أصيبوا به من الأخلاق الفاسدة ، فليكن حظها منك المعونةَ على معالجة هـذا الداء ، لا أن تكون من العاملين على استفحاله . وقد ذيلتُ باب الكذب بالعلاج الذى ذكروه لاستئصاله .

والحاصل، أن اللسان نعمةٌ لله تعالى فيك ، وهبها لك لتُحَصّل بها الخير لنفسك، ولأبناء جنسك؛ فاذا تصرفت به فى المصلحة، كان لك فضيلة كبرى ، وأمنت مقت الله تعالى ؛ وإذا انحرفت به عنها ، وسوَّلَتْ لك نفسُك الكذب ، فاستعملتَه آلةً للشّر فى هذا العالم ، وكنت به معواناً على افساد نظامه ، وابطال حركته ، حَاق بك سخط من الله وهوَانٌ من الناس ؛ فاتقِ الله تعالى وَراعِ جانب الفضيلة .

الوفاء بالوعد

إذا اتفقت مع آخر ، على مقابلته صباح غد فى الساعة الثامنة عند محطة الكهربائية بالعباسية ، أو قرضه عشرة جنيهات ، فهذا وعد يجب عليك الوفاء به . دلَّتْ عبارتك على قضية خبرية ، هى أقابلك غداً ، أو أحضر لك عشرة جنيهات ، فاذا مضى الغدُ ولم تسع لمقابلته ، أو لم تُحضر له عشرة الجنيهات ، كان الواقع غير مطابق لقولك ، يعنى أنك كاذب ، والكذب غير جائز . أوجبَتْ عليك قضيتُك التزاماً تتعلق به مصالحُ لغيرك ، فلا بُدَّ من الوفاء به . نعم لم يكن سعيك الى العباسية واجباً عليك من قبل ، ولكنه وجب بالتزامك ، كالنذر توجِبُه على نفسك . من أجل هذا قيل : العِدَة نافلة والإنجاز فريضة . إنك إذا وعدت إنساناً بشىء مَّا ، فقد يترتب على موعدك مصالحُ جاءت من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى ، ولهذا ينبغى الوفاء . قد تحدث حاجةٌ لا تعلمها لمن اتفقت معه على المقابلة ، ويعلقها على حضورك ، فلا يحل لك أن تُخلف الوعد . إذا لم يكن غير أن تذهب الثِّقة بك حين تعتاد الخلف ، وأن تُدْعى كَذّاباً ، وتُذِيق منتظريك مرارة الانتظار ، فهذا كافٍ لجعل الوفاء محتماً عليك . إن كنتُ لا أخالفك فى أن الوعود مختلفة ، بعضها مهم وبعضها دونه ، فأنت لا تخالفنى فى أن هذه النتائجَ مرتبةٌ على أقل الوعود جدوى .

الوفاء ، فى الجملة ، لازم لسعادة المجتمع البشرى ، وثقةِ الناس بعضهم ببعض ، وسير الأعمال فيما بينهم سيراً حثيثاً ، وحصول التعاون . هب أن الناس كلَّهم أخلفوا مواعيدهم : هذا التاجر الكبير ، مع صغار التجار الذين يأخذون منه ، وهم معه ، وهـذه المصانع مع عُمّالها فى دفع أجورهم ، وهؤلاء المدينون مع دائنيهم ،

وهذه المخابز مع البيوت التى وعدتها بتفريق الخبز عليها يومياً ، وهكذا ؛ أليس معنى هذا الحيرة ، ووقوف الكثير من الأعمال ؟! وإذا دام الحال كذلك ، أفلا تكون النتيجة عدمَ ركون الناس بعضهم الى بعض ، وضياعَ ثقتهم ، وبطلانَ جميع المعاملات المترتبة اليوم على المواعيد ؟!

مَنْ مِنَ الناس من لا يشترى ويَنْقُد الموعِدَ ثمناً إلى أجل ؟ إن النتيجة السيئة ، التى تحصل على تقدير عدم الوفاء ، تربو على أن يصبح العددُ الكثيرُ من العالم وقد تزيَّفَتْ نقودُه ، وتَوَلّت كفاءته للمعاملات . سل كثيرين من تجار اليوم ، ذوى الدوائر الواسعة ، كيف ابتدءوا فى التجارة ، ينبئوك أنهم ابتدءوا فى عروض قليلة ، ثم جلبوا إلى محالِّهم تجارات واسعة لا يملكون من أثمانهـــا غير ما عُرِفوا به من الوفاء ، حتى صاروا إلى هذه الدوائر الواسعة . كان يتردد علينا وأنا شاب ، شيخٌ من تجار القطن ، وكان يحدث بحكايات أ كثرُها عن بيعه وشرائه ، تخللها هذه الجملة التى طالما أُعْجِبْتُ بها (سَرْمِيَّةُ التاجر على قدر صداقته) ، وغير خفى أن السَّرْمِيَّة هى رأس المــال . نعم فان الثقة بالشخص ثروة ثانية له ، فلا ينبغى أن تستهين بالخيرات المقترنة بوفاء الوعد ، كما لا ينبغى أن تستصغر الشرور التى يصير إليها الخلف . بجوارنا بمديرية الغربية بلدان ، يوجد فى أحدهما بعض الصناع ، ويقام فيه سوق ، والآخر بجانبه يَقْضى أشغاله منه . ذهب رجل من أهله إلى البلد الثانى ، واستصنع فيه حذاء عند إسكاف ، فضرب له هذا أجلاً لإتمام الحذاء ، ولم يف بموعده . غضب المستصنِع ، لأنه رأى أن العيد سيوافيه بحذائه البالى ، فمد يده الى حذاء آخر ، وأراد أن يأخذه ، فغضب لذلك الإسكاف ، وابتدأ الشر بينهما . انتهى هــذا ، بعد مناوشات ، بتذمر أحد البلدين ، وفى القرى شىءٌ من عصبية الجاهلية ، وهجومٍ على البلد الثانى فى يوم سوقه ، وإهانة بعض أهله ،

وإطلاقِ البنادق التى أصيب البعض بنارها . اقتضى الأمر تدخل الحكومة، طبعاً، وحكم على نحو أربعين من البلد الهاجم بالسجن أزماناً مختلفة، أقلها ستة أشهر. سيق المجرمون إلى السجن، أظلهم فيه أبّانَ الزراعة، وكلهم زُرَّاعٌ، فساء الحال طبعاً. هذا إلى ما أصابهم وأصاب أُسرَهم من الكدر، وقد مضى على هذه الحادثة أربعُ سنين، وصدور البلدين تفيض عداوة وحَنَقاً.

هذا ما يلوح لنا من ترتب العمران على الوفاء. وقد قال الله تعالى، وهو أصدق القائلينَ: « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون! » قال أبو السعود، فى كلامه على تفسير الآية: معناها: لأى شىء تقولون نفعل ما لا تفعلون، من الخير والمعروف. على أن مدار التعيير والتوبيخ فى الحقيقة، عدم فعلهم، وانما وجَّهه إلى قولهم، تنبيهاً على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد به أيضاً. ولو قيل لم لا تفعلون ما تقولون، لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود. وفى الكشاف ما يفيد أن لفظ كَبُرَ دال على التعجب، ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين. قال والمقْتُ أشد البغض وأبلغُه، وقوله عند الله أبلغ من ذلك، لأنه إذا ثبت مقته عند الله، فقد تم كبره وشدته، وانزاحت عنه الشكوك. وفى الطريقة المحمدية فى الكلام على خلف الوعد، من رواية مسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان. وفى الطريقة أيضاً: من رواية البخارى ومسلم، عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خَصلة منها، كان فيـه خَصلة من النفاق حتى يدَعَها: إذا اؤتمن

خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غَدَرَ ، وإذا خاصم فجر. ونَقل أيضاً أن الامام أحمد ومن تبعه ، يرون الوفاء بالوعد واجباً ، والخلفَ حراما ، سواء كان فى أمر الدين أو الدنيا ، نَوى الخلف أو لم ينو . ثم نقل أن كثيرين يذهبون الى أن الوعد بنية الخلف كذب حرام ، وأما بنية الوفاء فجائز ، لكن لا يجب الوفاء ، عند الأكثر ، بل يستحب ، ويكون الخُلْفُ مكروهاً تنزيهاً ، ودليلهم فى ذلك ما رواه أبو داود والترمذى ، من قوله صلى الله عليه وسلم : إذا وعد الرجل ونوى أن يفىَ فلم يف به ، فلا جناح عليه . وفى رواية فلا أثم عليه (اه. ببعض تصرف) .

فقد بان لك ، من طريق العقل والشرع ، أن الوفاء بالوعد واجب ، إلا إذا اضطررت فلم تف ، وإلاَّ فياليت شعرى : كيف تجب نيةُ الوفاء ، وهى وسيلة اليه ، حتى إذا جئنا للمقصد ، قلنا إنه غير واجب ؟ كيف نصنع بالآية والحديثين ؟ لِمَ لَمْ يكن معنى لم يف لم يستطع الوفاء .

إذا عَنَّ لك عدمُ انجاز الوعد ، فذلك موكُولٌ الى صاحبك ، فإن شاء أقالك .

وإذا عرض لك مانع قوى ، كمرض شديد يعوقك عن الوفاء ، وجب أن تبادر باخبار صاحبك ، فى أىّ وعد ، أيًّا كان ، فانه ربما يكون قد علّقَ على الوعد أمرا ، فاذا علم بمرضك احتاط لنفسه . وإن كنت قد وعدته بموعد مركب من أمرين ، وعجزت عن أحدهما ، بقى الثانى واجباً . مثلاً ، إذا كنت وعدته بأن تقابله غداً ، ومعك كتاب كذا ، فاذا مرضت بقى عليك إرسال الكتاب .

أراك ستصرف الآية الشريفة الى شىء خاص ، أو الى جماعة كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأحاديث التى جاء فيها ذكر المنافقين ، إلى عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، ومن هم على شاكلته ، من رجال زمنه . دعنا من مثل هذا ، واعلم بأن الآية مقال الله تعالى ، الذى لا تنفع عنده الأسماء ولا الصور ،

فى أى عهد كان ، ومن أى صنف كان ، إلا من أتى الله بقلب سليم . ويل لهذه الرءوس التى تخيلت ، والألسنة التى كذبت من عذاب يوم الدين ! ! لم يكفنا جهلنا فى كل شىء ، حتى جعلنا له ناصراً علينا ، من فساد أخلاقنا ، وهذياننا فى كل شىء . قادَتْنا الخيالاتُ الى صرف أخلاق الدين وآدابه وحكمه ، الى من قبلنا ، ورضينا من كتاب الله بالعناء . فَشَا فينا الكذبُ وخلف الوعد ، حتى إن الانسان ليُعجب ممن يحافظ منا بدقة على موعده . تواعدت منذ أسبوعين ، أنا وصاحب لى فتأخرت لسبب نحو ثلاث دقائق ، ولما وصلت الى المكان ألفيته يلومنى على تخلفى ثلاث الدقائق ، فأخذنى شىء من الدهشة وما أدرى أ كانت دهشتى من حضوره فى الدقيقة أ كثر ، أم من عتابه ولومه ، وأرجو أن يكون عن نفس .

مَنْ أخاطب الآن ، بتعويد أحداثنا هذه الفضيلة من أول أمرهم ؟ ألأُمُّ التى عليها المعوَّل فى تربية النابتين ، وقد قعد بها العجز ، وجنى عليها عدم التربية ؟ ! أم الأب ، وأنا أعلم من أ كثر الآباء الخلف ؟ فيالله من يجيب ندائى ؟ ! أخاطب المعلمين ، لأنهم على كل حال أقرب الى الخير ، واسمعُ لندائى .

فيأيها المعلمون : هذه أمتكم ، قد حطّها فسادُ أخلاقها ، أ كثر من كل شىء . بيدكم أمة المستقبل ، أخلاق رجالها ، فى الناشئين الذين بيدكم زمامُهم . عودوهم الفضيلة ما استطعتم ، بُثُّوا فيهم من الأخلاق الكريمة بقدر ما تجدون فيهم من الاستعداد ، الذى فروا به من أُسَرِهم . رَبُّوا للبلاد والخير والسعادة ، رجالاً خيراً منا . وليكن الصدق والوفاء بالوعد أَول ما تعنون به . إن تفعلوا تنالوا ثواب الله ، والله عنده حسن الثواب .



الشجاعة

متى اعتدلت القوة الغضبية نشأت عنها فضيلة الشجاعة ، التى هى وسط بين الجبن والتهور . فالجبن: عدم الاقدام على المكاره ، ولو مع الحاجة ، والتهور : الاقدام عليها ، بلا حاجة ، والشجاعة : الاقدام عليها عند الحاجة . وهذا الاقدام شجاعة، وإن كان فيه حمل النفس على ما تكره . يقول فارس زبيد عَمْرو بن معديكرب :

ولما رأيت الخيلَ زُوراً كأنها جداولُ زرعٍ أُرْسلَت فاسْبَطَرَّتِ

فجاشت إلىّ النفسُ أول مرة فرُدَّت على مكروهها فاستقرَّتِ

وقال قَطَرىٌّ بن الفُجاَءة ، بطل من الخوارج ، سُلّم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة :

أقول لها وقد طارت شَعَاعا من الأبطال ويحكِ لن تُرَاعى

فأنكِ لو سألتِ بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تُطَاعى

فصبراً فى مجال الموت صَبراً فما نَيــلُ الخلود بمُسْتَطَاعِ

ومن البين ، أن الشجاعة خلق فطرى ، يُفْطَرُ عليه الانسان ، ويوجد به من حين نشأته ، وان كان للتربية تأثيرٌ فيه . ومن الخطأ أن يظن أن التربية هى السبب وحدها فى الشجاعة والجبن ، فان الشقيقين وإن كانت تربيتهما واحدة ، قد ترى بينهما غاية البعد : هذا شجاع باسل ، وهذا جبان يراع . فى البادية ، حيث يَلْقَى خلقُ الشجاعة فى كل فرد تمام التعهد ، بمقتضى الحالة البدوية ، ويجد من كل بقعة مَنبِتاً طيباً ، تلقى الشجاع البطل ، والجبان الذى قعد به الضعف . وإذا صرفنا النظر عن الإنسان ، ووجهناه تلقاء الحيوان ، لقينا هذا الفرق . فالأخوان من

القطاط الناشئة فى بيت واحد ، تجد بينهما تبايناً فى إقدامهما ؛ هذا يُرَاع لنبأة وينكصُ على عقبيه ، وذاك لا يَنكَفُّ بالزجر ، ولا يَرْعوى بالتهديد . غير أن شجاعة الإنسان إقدام معه روية ، أما شجاعة الحيوان فإقدام فقط .

وحاجته اليها شديدة ، إذْ كيف يتسنى للحيوان الذى يقطن فى القفر ، وليس له وَزَرٌ يلجأ اليه ، ولا حِصْنٌ يؤويه ، أن يلِيَ حراسةَ نفسِه وأولاده من اعتداء حيوان آخر ، إلا إذا وجد من نفسه إقداماً يدفعه إلى الدفاع . إن الحيوان الضعيف ، إذا لم يكن فى حَيْطة الانسان تكلؤه رعايته ، ويتكنفه سياج من عنايته ، صار فريسة لحيوان أقوى منه . ويا ليت شعرى : ما مقدار الهَلَع الذى يأ خُذه ، والألم الذى يخامره ، اذا خط المقدارُ على جبينه كلمة الحياةِ فطال أجَله ؟ ؟

وحاجة الانسان اليها أشد ، خصوصاً إذا كان من أهل البداوة ، بعيداً عن المدن والقرى . البدوى فى باديته ، قبل احتياجه إلى صارم يهزه فى حراسة مهجته والاحتفاظ بها من عدو هاجم ، أو حيوان صائل ، يحتاج إلى شجاعة فى قلبه ، يحرك بها هذا السيف . الشجاعة هى مسا كنُ البَدْو ، ومعاقلهم ، وأسوارُهم ، وخنادقهم ، وجندهم ، وحُرَّاسُهم ، وكل شىء يفتقرون اليه فى حماية ذمارهم . الشجاعة للبَدْو ، بمنزلة أيديهم التى يبطشون بها ، وأرجلهم التى يمشون بها وآذانهم التى يسمعون بها ، وأعينهم التى يبصرون بها ، وألسنتِهم التى يتكلمون بها ، وقلوبهم التى يفقهون بها . الشجاعة لازمة للبَدَوِىّ ، لزوم القلم للكاتب ، والصحيفة للقارىء ، والقَدُوم للنجَّار ، والنار للحدَّاد .

وقد كان للعرب منها فى باديتهم الحظُّ الأوفر ، لما اقتضته معيشتهم فيها . ذلك بأن ناشِئَتَهُم ، أولُ ما يطرق سمعَه وهو فى مهده رَكْضُ الخيل ، وعَلْكُ اللُّجُم ،

وقعقعةُ السلاح ، وصياحُ الأبطال ووقعُ السيوف فى الهام . وأولُ ما يقع عليه بصرُه فى كل موضع من الخِبْاء سيوفٌ معشره يقطرُ منها نفوس القتلى ، أو صائكة بها أثر غب جلائها (مثل مَدَبّ النمل يعلو فى الربا) . وآونةً يرى معشره قد استأسدوا ، ولبسوا الحديد ، وخرجوا سرعاناً إلى الوغى ، فاذا عادوا شم ريح الموت من تلقائهم ، ورأى عليهم منه ثياباً حُمْراً . فاذا ترعرع ذلك النابت ، ووعى ما يقال سمع حديث قومه دائراً بين السيوف والرماح ، والدروع والجياد ، والكرّ والفرّ ، والغارات والحروب ، والظفر والهزيمة ، واطراء البطل ، وهجاء الجبان ، وعاين مع هذا الطعنَ والضربَ ، والجرحَ والقتلَ . فاذا طُرّ شاربه ، أخذ يتدرب على الحروب ويُعِدّ نفسه لها ، ومشى اليها ولازمها ، لا يَفْتُرُ عنها لحظة ، حتى يكاد طعامه يكون من لحوم الفوارس ، وشرابه من دماء الأبطال . فاذا آنَس من نفسه الاستقلال دلّ بشجاعته ، وجال فى الفيافى ، وأوغل فى القفار يلتمس الأوتار القديمة والحديثة ويرتزق من ظل سيفه ، لاجئاً إليه فى الملمات ، وعند الشدائد . هذا إلى كونه بمعزل عن عصا التأديب ، بعيداً عن قهر الملك له ، وسلطانه عليه .

لهذا كانت التربية البدوية أساساً متيناً للشجاعة . كان للأبطال ذكرٌ يَبْطُل دونه كلُّ ذكر ، وفخرٌ يتضاءل دونه كلُّ فخر . كانت القبيلةُ ، قويُّها وضعيفُها ، تصبح عزيزة الجانب ، موقرة مرهوبة ، من أجل بطل واحد نَبَغَ فيها . وقد بقيت أسماء أولئكم الأبطال خالدة . ألم تر كيف تُجِلُّ العامةُ ، وفى العامة شيء من التعويل على قُوَّتهم — عنترةَ مثلاً ، ويجلسون لاستماع أقاصيصه منصتين ؟ !

لم يقف العرب لاستعمال ما وُهِب لهم من القوة عند الوسط ، بل جاوَزُوه لبعدهم عن الشرائع والقوانين ، واعتمادهم على القوة فى كل شيء . قال زهير فى معلقته :

وَمَنْ لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه ... يُهَدَّم ومن لا يَظْلِم الناس يُظْـلَم

وفى البيت تحريض على مجاوزة الوسط ، باستعمال القوة . ومن هذا القبيل قول سعد بن ناشب يمدح بالاستبداد :

ولم يَسْتَشِرْ فى رأيه غيرَ نفسِه ولم يَرْضَ إلا قائمَ السيف صاحبا

بقى العربُ صدْرَ الإسلام على شجاعتهم ، بل تضاعفت . وَفَدَ عليهم الإسلام بالحرية ، والعدل والمساواة ، والجهاد ، ولا شىء فيه يخضِدُ شوكتهم ، أو يُقَلِّم أظفارهم ، مما يصاحب الملك من الغلبة والقهر ، ويتبعُه من الذلة ؛ فأيَّد الشجاعة على وجهٍ حقٍّ بعيد عن التطرف . قال الله تعالى فى تأييد هذه الفضيلة وإنذار الجبان بعقوبة فظيعة على جبنه « ومن يُوَلِّهِم يومئذ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو متحيزًا إلى فئةٍ فقد باء بغضب من الله ، ومأواهُ جهنَّمُ وبئس المصيرُ » . اشرِبَ العربُ ، نساؤهم ورجالهم ، شجاعةً حقة ، بما وَقَر فى صدورهم من اعتقادهم ودينهم؛ حتى لقد كان نساؤهم يقفن خلف صفوف القتال ، لتحريض رجالهن على الحرْب ، وسوق المنهزمين إلى الموت . بسالة العرب ، هى ذلك الخلق ، الذى باقترانه مع اتحادهم ، توالت فتوحاتهم فى صدر الإسلام . امتلأت صدورُهم شجاعةً ، وفاض منها شىء أفرغوه فى قوالبَ من النثر والنظم ، وأبرزوه فى صُوَرٍ رائعةٍ ، تفعل بالنفوس فِعْلَ سيوفهم بالأجسام . قال أبو بكر رضى الله عنه ، لخالد بن الوليد : احْرِصْ على الموتِ ، توهَبْ لك الحياة . وخطب عبدُ الله بن الزبير ، لما بلغهُ قتلَ مُصْعَبٍ أخيه ، فقال : إن يُقتَلُ فقد قتل أبوه وأخوه وعمه . إنا والله لا نموت حَتْفاً ، ولكن قَطْعاً بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ، وإن يُقتل المُصْعَبُ ، فإن فى آل الزبير خلفاً منه . وقال حُصَيْنُ بن الحمام المرّىّ :

تأخرت أستبقى الحياةَ فلم أجد لنفسى حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومُنا ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما

وقال عنترة :

بكرت تخوّفنى الْحُتُوفَ كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها : إنّ المنيةَ منهلٌ ، لا بد أن أُسقَى بكأس المنهل

فاقنى حياءكِ ، لا أبالكِ ، واعلمى أنى امرؤٌ سأموت ان لم اقتل

وقال الحريش بن هلال القُرَيْعى :

نُعرِّضُ للسيوف إذا التقينا وجوهاً لا تُعرَّض للّطام

وانا لنورد لك شيئاً مما نحن فيه ، عن بعض الأمم السالفة : ففى حكومة آتينا ، من بلاد اليونان ، كان يقضى على الممتنع من قبول عملٍ لجبنهِ ، بملازمة السوق ثلاثة أيامٍ فى ثياب امرأة . وفى اسبرته ، كان يُقْضَى على الجبان بألا يتزوج اسبرتية ، وكل من لقيه يملك ضربه ، ولا يرخَّصُ للجبان فى دفع ما يصيبه من الأذى ، وكان يُحمل مع هذا على لبس ثياب قذرة ، أو وضع خِرقٍ ملونة فى لباسه ، تشهيراً له ، ويؤذن له فى قص نصف شاربه فقط . وكان الجرمانيون يدفنون الجبان حَيًّا .

طُوِى ذلك البساط بما فوقه ، من الجياد المدربة ، والأبطال والأسلحة والحروب ، ونشر بساط آخر ، والناس فوقه نيام ، فى حراسة الشرائع والقوانين ، ورجال الشرطة والجند ، وفى قصورهم عصى الذهب والفضة ، من تلك الرماح والسيوف ، التى كانت حشوَ فساطيطهم ، ودَرَسَتْ آثارها ، ولم يبق منها بقية تذكر . فى الجند نفسه الذى يلى حراسة البلاد ، أوشك السيفُ أن يتوارى ، وخَلَفَهُ أشياء أخر ، فى مقدمتها العلم والنظام . غير أننا مع هذا ، لم نزلْ بعدُ فى حاجةٍ الى الإقدام ، ولا نجد بُدًّا من معونته لنا فى جميع أمورنا .

العالم اذا لم يجد فى نفسه اقداماً ، فات الناسَ فى اكثر المواضع أن ينتفعوا بعامه ، وذو الرأى يفوتهم أن ينتفعوا برأيه ؛ واذا رأيت أمثال هؤلاء ، حسبت عالمهم

جاهلاً ، وبليغهم أعجم ، ومعلمهم الماهرَ فى حاجة الى الكُتَّاب . إن الذين تعوزهم الشجاعة ، أولى الناس بنقص أعمارهم ، ولا يمضى عليهم وقتٌ بدون أن يذوقوا من جبنهم عذاباً أليماً ، لا يُقضى عليهم فيموتوا ، ولا يُخفَّف عنهم من العذاب .

كل الحقوق التى لا يفصل فيها القانون — وهى مما لا يتناهى — وبعض التى يفصل فيها ، للأقوياء ، أما المستضعَفون فلا حقوق لهم . العالم مثلاً اذا لم يجد من نفسه اقداماً يدفعه الى تطلب مرتبته ، أحدق بها الجهال ، فصارت الى أجرئهم .

إذا ظفر القوىُّ بضعف منك ، فغلبك على حقك فى المرة الأولى ، طالبك به فى المرة الثانية ، يقول : حقى ! . الشجاعة أساس الحرية والاستقلال ، وكثيرٍ غيرهما من الفضائل . أكثر هذا العالم مُغْرًى بناقص الأقدام ، وذنبه عند الناس ضعفُهُ وعجزهُ عن دفع الشر بالشر .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

إن فى الناس كثيرين يعرفون الحق ، ولكن الذى يَصْدَع به نفرٌ قليل ، فكن أنت من النفر الذى يصدع بالحق . كن كالإمام ، الشيخ محمد عبده ، لما نادى جهرة بفساد الكثير مما عليه الأزهر والأزهريون ، ووجه قواه نحو اصلاحهم ، رغمَ ما لقى من ضوضائهم ، وتألبهم هم ومن فى طبقتهم . كن كقاسم بك أمين ، لما دعا جهرة إلى تربية البنات ، فلقى جلبة من الذين يُحَكِّمون خيالهم فى صغير القضايا وكبيرها ، ولا يَرْثون لما فيه أمتهم ، وهم أكثر الناس ، فلم يَثْنِهِ ذلك الصياح عن مثابرته على الجهر بما يعتقد ، بل وقف موقف البطل ، وعزّز كتابه الأول بثانٍ أيّد به حجته ، كأنما كان ذلك الصخب اغراءً له .

ردِّد الطرف تر لهما أضراباً من الذين يقولون ما يعتقدون ، ولا يهابون أحداً فى قول الحق ، ومثل هؤلاء للحق نعم النصير .

الأمة فى حاجة شديدة إلى الشجاعة، حتى تبقى مرهوبةً عزيزةَ الجانب، وإلا ضاعت حقوقها، ومُحِيَ اسمُها من سجل الأمم. مثل الأمم فى عدم ابقائها على الضعيف منها، واعتداء بعضها على بعض، مثل الأشخاص؛ فان لم تكن فى مَنَعة بطلت وَحْدَتها ومُسِخَت صورتها، وصارت إلى الذل. إن الأمم التى قعد بها العجز، لقصورها عن الشجاعة والعلم، لا يكون لها حقوق بين الأمم، وتصبح عرضة لِمسّ شئونها وصيرورتها طعمةً لها. أما الأمم القوية، فهى التى تحفظ حقوقها، وتنال من غيرها بقدر ما شاءت وشاء لها أعداؤها. هذه أمة اليابان، لمَّا ظهر لها من قوة الشجاعة والعلم بعد حروبها الأخيرة ما ظهرَ، هبّت من رقودها، ونشطت من خُمُولها، بعد أن كانت أمامَ الناس كغيرها من الأمم الخامدة، وأخذت الدول القوية يهيئن لها مقعداً بين مقاعدهم. أن الظَّفَر الذى أصابه اليابانيون سيكون بلا شك سبباً فى بُعْدِ همتهم، وتطلعهم إلى أرقى مما كانوا يتطلعون إليه.

لا خير فى حياة يخالطها الذل. لا خير فى وجه يقطُرُ منه الرق، وأن ملئت الكَرِشُ مع تلك العبودية لحماً. أجل قصير مع الشرف خير من الذل مع تراخى الأجل. الخلود يستوقفك، وإنك ميت وإنهم ميتون. سقها إلى الموت إذا دعت الحاجة، فلا خير لك فيها إذا جبنت. ما أعزها وأشرفها إذا عملت بقول ابن هلال:

نعرِّض للسيوف إذا التقينا ... وُجوهاً لا تُعَرَّض لِلطام

أيها المعلمون! انكم فى تلاميذكم رُعَاة، وكل راع مسئولٌ عن رعيته. لا يذهبَنّ بحلمكم أبهــةُ الولاية، والاستهانة بشأن التلميذ، إلى أن تحقروه عند كل شىء لا يَرُوقكم منه، فتأخذوه بالانتهارِ والعقوباتِ الصارمة؛ لأن هذا يفل من شوكته ويُميت من شجاعته، ويقتل فيه الفضيلة. إن كنتم ملوكا عليه أو قياصرة، فاعلموا أن الملوك والقياصرة يَغُضون عن شىء من سيادتهم فى صالح رعاياهم. إنى لا أعلم

أحداً يقتل خُلُقاً فى شخص ، أحقّ بسخطِ الله وعذابه ، ممن يعامل نابتاً معاملة يقتلُ بها إقدامَه ؛ لأنه بقتله يلقى بالشخص فى بحبوحة الشقاء ، ويسلبه رُوحاً ، وإن أبقاه جسماً يتحرك . واستغفر الله ! إن القاتل ليقتل الشخص فيذيقه طعم الموت مرة واحدة ، وهذا بسلْبه اقدامَ الشخص ، يذيقه طعم الموت مراراً . ألم تر أنه يجد مرارة الموت كلما أُهين وقعد به الجبُن عن دفع تلك الإهانة ؟ !

حدثوا صبيانكم بسِيَر الشجعان ، وعودوهم الجهر بالحق ، وأقرئوهم تراجم الرجال الذين يَصْدَعون بالحق ، وإن لَقُوا من الجهر ما لقوا ، فانى أقطع بأن السِّيَر من أقوى العوامل فى نفوسهم .

إن كنتم مسئولين عما فى برنامج الدروس ، فأنتم مسئولون أمام الله تعالى عن أولئكم النابتين ، وعليكم رقيبٌ من ضمائركم . إن برنامج الدروس لا يبغى غير إرشادكم إلى طرق الخير ، وحسبكم أن تلتمسوا الخيرَ أوّلاً من بَثّ الفضيلة فى نفوس التلاميذ .

وأنتم أيها الآباء القساة ، الذين يحاولون تكميل أبنائهم بالسياط والضغط ! هوّنوا على أنفسكم ، وأعلموا أنكم تفسدون فيهم أكثر مما تصلحون !

وأنتم أيها الشيوخ ، والكهول ، والشبان ! عليكم بعلاج أنفسكم ، من تلكم البقايا التى غادرها ظلم الحكومات السالفة فى صدوركم . عليكم بحملها على الاقدام ، وتدريبها عليه ، بقدر ما تجدون فيكم من العزائم ، فكل تدريب يَبْقَى فى النفس منه أثرٌ خالد . ليس هذا ببدع مع قول سبنْسَر ، كل شىء يحصل فى المادة يترك فيها أثراً لا يزول .



الحـــــرية

الحرية لها معنيان : الأول للحرية المتداولة بين الجمهور ، والثانى لها عند الباحثين فى النفس . فالحرية بالمعنى الأول : كون الشخص مطلق التصرف فيما ينبغى ، أو كون الأمة تحت سلطة القانون ، لا تحت سلطة شخص . ومن الخطل أن يظن أنها إطلاق إرادة الشخص فى كل شىء .

الحرية بهذا المعنى الأول ، سبب فى حراسة دماء الأمة وأموالها ، وكفيل لها بعدم وقوعها تحت تسلط السعاية والطمع ، والغاية السافلة ، والأغراض الشخصية وأساسُ تقدمها فى كل شىء . أسائلك فقل لى ، بربك : إذا كان الحاكم شحيحاً حريصاً على جمع المال ، لا يرقب فى اقتنائه إلاًّ ولا ذمة ، فإلى أى حال يكون مصير الأمة ؟ ! إنه لم يبق على وجه الأرض من يرضى بالحكومات الشخصية ، إلا الأذِلّاء ، الذين قتِلَتْ فيهم الحميةُ والاباء ، فصاروا إلى الاستسلام فى كل شىء . ألا ترى الانسان فى جميع بقاع الأرض مُغرًى بطلبها ، لأنها شىء ثمين لديه تبعاً لما له فى ذاته ؟ ومن ألقى عن كاهله نِيرَ الاستعباد والقهر ، فقد حط عن نفسه حملاً ثقيلاً على الُحْرّ ! إنك تجد الطوائف كلها يسعون فى طلب الحرية ، سواء كانوا فى مراتب عالية أو مهن حقيرة . الخادم مثلاً يحاول أن يخرج من القيود التى جعله فيها كونه خادماً . لاحظت فى القرى أن نهاية أكثر الخدم أن يذروا الخدمة مع ما يكتنفها من خفض العيش ، ويصيروا إلى غيرها من الأعمال التى تحفها المتاعب وخشونة العيش . ذلك لأن الحرية شىء نفيس ، يضحى فى طريقه كل شىء ، ويحتمل معه كل شىء .

الحصان الناشط ، بل الحمار نفسه ، متى توالى عليه سوطك زاد فى العدو وقمص ، كأنه يحاول أن يلقيك من فوق ظهره ، ويلجأ إلى ساحة الحرية الفسيحة .

الحرية تكون فى الفكر ، والقول ، والعمل ؛ فلك أن تقول وتفعل كل شىء ، مع مراعاة الشرع والأدب ، ومع المشورة ، والا طلبت الحرية فوقعت فى الاستبداد . أما حرية الفكر ، فيأتيك الكلام عليها فى الكلام على الاستقلال ، فان البابين فى الكثير شىء واحد .

ومما هو جدير بالتبصر ، أن يأخذَ الناسُ بالحزم فى أعمالهم التى يرونها لهم بمقتضى حريتهم ، وإلاَّ خلطوا ، وعاد عليهم عدم التبصر بالضرر .

فالمحامى الذى له حق الدفاع بحرية تامة ، إذا هَذَى فى كلامه ، وصار إلى البذاءة والسفاهة ، لا يلبث حتى يُسلبَ حقَّ القول ، ويُمْنَع حتى من الدفاع العادل ، و يُطْرَد من الجلسة . والطالب الذى له حق الخروج من صحن المدرسة فى أوقات الرياضة والفراغ من الدرس ، إذا ساقه هذا إلى صرف شىء من زمن الدرس خارج المدرسة ، لا يلبث حتى يُحْظَر عليه الخروج من صحنها إلا باذن ، وربما جر هذا الى حظر الخروج على الطلبة كلهم . فمجاوزة الحدود وفض القيود ، سَعىٌ فى التضييق .

مخالفة الآداب ليست من الحرية فى شىء ، مخالفة الشرائع ليست من الحرية فى شىء ، عدم توقير الكبار ليس من الحرية فى شىء ، كل هذا مما لا ينبغى . لك أن تحافظ على حقك فى كل شىء ، ولكن مع احترام سنة الأدب .

يظهر أنه لا ينبغى رفع القيود ، مرة واحدة ، عن الأمم التى طال عليها أمد الاستبداد ، ولم يكن لها حظ من التربية ؛ لأنه ليس لها وازع من أخلاقها وآدابها وتربيتها ، بل من صالحها أن يُفَكَّ الحجر ، وتوضَع القوانين لها بمقدار تدرجها فى التربية ، حتى تصير فى حرية كاملة . وإذا رفعت عنها القيود مرة

واحدة ، عشيت كما يعشى الذى طال مكثه فى الظلمة ، ثم دُفِع به فجأة فى ضوء شديد ، ولا تلبث حتى يلحقها منها ضرر ؛ كطفل تعطيه سكيناً يلهو به ، فإنك لا تلبث حتى تسمع عَوْلته ، وما هو إلا أن تبصره ، حتى ترى السكين أصاب عضواً من أعضائه .

فلنجتهد فى إقناع أنفسنا هذه ، التى كاد الظلم يقضى عليها ، فى أن نكون أحرارًا ، فى أفكارنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ، ولكن مع الأدب . لنجتهد ألا تكون نفوسنا التى بين جنوبنا ، وقد أماتها الظلم ، أكبرَ عائق لنا عن الحرية . ما دمنا محافظين على الشرع والأدب ، فلا سلطان علينا لأحد ، وإن كلله التاج ، وإلا فنحن عبيد لكل أحد . لا ينبغى لنا أن نقف بين يدى أحد موقف الخشوع والرهبة ، إلا بين يدى الله تعالى .

والحرية بالمعنى الثانى ، خلوصُ النفس فى تصرفاتها ، من هواها والانفعالات الوقتية ، وخضوعُها فى كل فعل للعقل ، والغاية الصحيحة . وقد كتب بَوُلْزن الألمانى عن هذه الحرية ، قولاً نافعاً ، فى كتابه نظام الأخلاق ، رأيت أَن أعرب عنه ما يأتى ؛ قال :

من هذا يتضح أن الحرية ليست أمراً غريزياً ، بل هى شىء كسبى ، وصلت إليه الأجيال المتعاقبة تدريجاً ، وكذلك يصل إليه الأشخاص . لا يولد الطفل بحرية تامة ، بل يولد كالحيوان ، خاضعاً للبواعث الحيوانية ، والأميال الوقتية ، ثم يرتقى بالتدريج ، معتمداً فى ارتقائه على التربية ، إلى الحرية الكاملة . والناس مختلفون فى الإرادة التى يصلون إليها ، فمنهم من يبقى فى رتبة منحطة قريباً من الحيوان ، بحيث يقضى حياته تحت سلطان الشهوة والميل ، ومنهم من يصل إلى درجة تشرئب إليها الأعناق ، بحيث لا يعمل شيئاً صغيراً كان أو كبيراً

ولا يتركه الا عن تَرَوٍّ وإرادةٍ حقة . كما أن خضوع الشخص لشهواته وأمياله أمر معيب شائن ، فتذليله للطبيعة وتسلطه عليها ، فيه من المشاقّ ما فيه . ومن ذا الذى ترْضى سجاياه كلها ؟ إذ من البين أن الانسان بين الحيوان والعقل الصِّرف . إذن فهل يمكن الانسانَ أن يصوغ أخلاقه كما يشاء ، ويصور نفسه كما يهوى ؟ نعم لأنه بلا شك مُعَدٌّ لأن يربيها . يمكنه أن يصوغها ظاهراً وباطناً كما يشاء ، حتى يؤهلها لادراك الكمال الذى ينظر اليه . يمكنه أن يُنَظِّم أميالَها الطبيعية . يمكنه أن يقهرها ويغلب عليها ، حتى يدَعَها بلا حركة . غير أن هذا مما لا يدرك بالتمني ، بل بالجد المتواصل ، والوسائل النافعة ، كالوسائل التى تتخذ عند تدريب الجسم على قبول العادة . فاذا اضطجع الانسان ، وطال عليه الوقت وأرِق ، لا يستطيع أن يجلب النوم بمجرد إرادته ، بل إنما يستطيع جلبه فى أوقاته ، بواسطة تعديل مأكله ومشربه وعمله . يروى أن ديمُسْتِين ، كانت موهبته من النطق ناقصة ، لقصور فيه وخفاء . وقد أراد مع هذا أن يكون خطيباً ، فلم يستطع بمجرد هذه الارادة تقويم مخارج الحروف بالغلبة ، بل عمد الى التمرين من طرق شتى ، حتى استخدم الطبيعة فى مطلبه . بمثل هذا يمكنك تذليل الطبيعة . فاذا آنس امرؤ من نفسه حدّة شديدة ، وقصد علاجها منها ، لا يستطيع بمجرد المعرفة والقصد ، أن يدفع الغضب عند عروضه عليه بعد ذلك ، بل يكونان سبباً فى حصوله على الوسائل الموافقة ، التى تزيل تلك الحدّة تدريجاً . يبتعد الانسان عن الأسباب التى تهيج غضبه ، فانه اذا سكت عنه الغضب زمناً ، اضمحل تهيؤه له . يملأ خاطره أمثلة لما ينشأ عن الغضب من الآثار السيئة ، ويديم النظر فى غاية قهر الشخص لنفسه ، وغلبته عليها ، فحسب . وقد اعتاد بعضُ الناس تلاوةَ حكمة أو شيء من الدين متى ثار غضبه . واذن فلا نشك أن الشخص يستطيع أن يحدث

فى نفسه تغييراً بواسطة ارادته . يستطيع أن يقتل فيها الدواعى القوية بالإباء عن عمل ما تقتضيه ، كما يستطيع أن يحيي الدواعى الميتة بروح من العمل ، فان العادة — كما قيل — طبيعة ثانية .

هذا ، ومن جهة ثانية ، يقال : إن من الواجب أولاً ، أن يكون فى الشخص هذا الأساس الذى يبنى عليه تغيير أخلاقه ، وليس من الممكن أن يُحَصّله لنفسه بارادته ، فانه نفس ارادته . فقط يتأتى له بما عنده من الارادة ، تحصيل الأخلاق الكسبية مع توالى الأيام . وبهذا الاعتبار يكون ما ذهب اليه « شُبِنْهور » من أن الأخلاق لا تتغير ، صحيحاً . فالذى لا يشعر بضرر الغضب ، ولا بعار الجبن والكذب ، وليس لديه الارادةُ التى تدفعه الى عكس ذلك ، لا يستطيع بحكم الضرورة ، أن يعوّد نفسه الحلم ، والشجاعة ، والصدق . أما إذا أراد أن تغيير طبيعة الانسان وخطته غير ممكن ، فهو مخطىء ، وليس مذهبه خطأ فقط ، بل خَطِر ، لأنه يوقع فى اليأس . وبالجملة ينبغى أن يقال : من أراد أن يصير امرأ آخر أمكنه ذلك ، وما عليه إلا أن يعتصم بالأسباب القوية ، والوسائل النافعة ، لا بالآمال الكاذبة والأمانى .



الاســــتقلال

هو تعويل الشخص على نفسه فيما يَمَسُّه بقدر الطاقة . فاذا كنت طالباً ، كلما أُلقى عليه درس اشتغل بحفظه كما يحفظ تاميذ الـكُتَّاب ، ولا عمل لك فيه غير أن تحكيه من بعد ذلك ، كما يفعل الببغاء ، فلستَ بمستقل . وإذا وهب الله تعالى لك ذكاء نافذاً ، تفهم به ما يقال فى أصول الدين ، ومع هذا تصير إلى الأخذ بكل ما يصل اليك من الآراء فيه والتفسير ، فلست بمستقل . كذلك شأنك فى المسائل العامة : فاذا خاض الجمهور فى موضوع عندك فيه رأى ، فوكلت الأمر إليهم ، ولم تبد رأيك ، فلست بمستقل . إذا كانت أمتك مركبةً من أفراد كلهم مثلك متوا كلون لم يكن هناك معنى لكونها أمة .

بالاستقلال يرقى الشخص ، ويُنتفع به فى كل عمل يوكل اليه ، بقدر ما وُهب له من الاستعداد ؛ فإن كان يشتغل فى العلم مثلاً فَتَوَقَّعْ منه مُصلِحاً بقدر استعداده . مثلُ المستقل على ضعف استعداده ، كالجَوَاد يملك قليلاً من المال ، فيفيد منه ويستفيد . بخلاف الوَكِل المقلد ، فانه على تمام استعداده ، كالبخيل يملك كنزاً فيرصد عليه الأبواب ، ويغلقها دون المعوزين ونفسه ، فلا يفيد ولا يستفيد .

فذاك الذى إن عاش لا يُعْتَنَى به وإن مات لم تَحْزَنْ عليه أقاربه

بالاستقلال ترقى الأمة أيضاً ، فإن الأمة متى كثر فيها الأفراد المستقلون حقيقة ، فتلكم أمة العلم والعلماء ، تلكم أمة الصناعة والصناع ، تلكم أمة الحياة ؛ كل فرد من أفرادها ، تتدفق منه حياة وعناية بجميع شئونها . يريك من نفسه فرداً واحداً ، كأنما أفرغت فيه أمة بأسرها . فالأمة المستقلة كأنها مجموع أمم ، وإن

قل عددها . كم آلات يديرها البخار اخترعتها هاته الأمم المستقلة ، آلات للطحن وأخرى لرفع المياه ، ومثلها للسير فى البر والبحر بما ينفع الناس ، وجملة منها للأشغال المختلفة ، بل كم من آلات تديرها الكهرباء ! كل هذا وصلت اليه الأمم المستقلة حتى كأنها هى المخاطَبة بقوله تعالى « خَلَق لكم ما فى الأرض جميعاً » . ذُقْنا الراحة من تعبها ، والنومَ من سهَرِها ، فلها منا الشكر .

بالتقليد يذهب استعداد الأشخاص باطلا ، ويُسْتَعْمَلون فى العـالم استعمال آلات بطيئة ضعيفة ، وهم مع هـذا يعملون بجميع قواهم لمعارضة كل جديد ، وإبطال كل إصلاح ، وهم الأعداء الألداء للمصلحين .

إنه ليجدر بالشاعر أن يقول : ليست أجسام المتواكلين المقلدين التى نراها ، هيا كل تشرق بنفوس انسانية ، إنما هى مقابرُ مظلمة ، توارت فيها تلك النفوس بعد أن أماتتها التربية . كذلك الأمم المتواكلة لا يرجى لها تقـدم فى أمورها ، ما دامت متواكلة ، ولا فى صنائعها ، ولا يكون لها مخترعات ، ولا آثار تستقيم بها حياتها ، ويطيب بها ذكرها بين الأمم . تعيش بينها فلا تسمع لها رِكْزًا ، مع صيحة الأمم ، كأنها جنازة والأمم حولها وقوف للصلاة عليها . لو لم يكن على الأرض إلا أمثال هذه الأمم المتواكلة المقلدة ، لاستمر الإنسان فى ضلاله القديم ؛ يصيب بعض النباتات ، ويسطو على بعض الحيوانات ، يطعم منها بلا معالجة ويتخذ له لباساً من جلودها ، يتقى به الحر والبرد ، ويأوى إلى الكهوف والغابات ، ويصنع له سلاحاً من حجر يقاتل به ، تائهاً هائماً فى الموامى والقفار ؛ ولو نزل عليه مع ذلك دين سماوى لعبث به واتخذه للبرَكة ، كما نصنع نحن المصريين بديننا .

وُيُفْطَر النابت على التقليد فى جميع أموره ، ضرورة قصوره وعجزه فى كل شىء . فإذا شَبَّ ووجد قدرةً فى نفسه وجسمه ، شبّ حُرًّا خالصاً ، أو عبداً

قنًّا ، تبعاً لما يصادف من التربية والمخالطة . ويظهر أن الاستعداد للاستقلال أرجح ، لأنه المناسب للفطرة السليمة والإرادة الحرَّة . وكثيراً ما شاهدنا رجوع الشخص إلى نوع من الاستقلال ، بعد أن صادف تعليماً كرَع فيه من التقليد ، وطبع عليه بطابَع من العبودية . اللهم إلا إذا طال العهد على ذلك التقليد ، حتى مُسِخَتْ فى الشخص فطرتُه السليمة ، فإنه قلما يفيد فيه العلاج ، ويكون مثله كمثل المريض بالسل ، إذا تمكن منه المرض ، فإنه قاتِلهُ ولا دواء له .

أمورنا كلها مظاهر لعدم استقلالنا : فتش عن صنائعنا ومصنوعاتنا ، تجدها قد توالت عليها القرون ، ولم يدر فى خلدنا التماس أدوات أنفعَ منها . فهذا محراث الزارع ، وساقيته ، ونَوْرجه ، قد طال عليها العهد ، وغيرها من الأدوات كذلك ، إلا ما نشتريه بالثمن الغالى . ورثنا هـذه الصناعات التى بأيدينا ، عن قدماء المصريين ، كما ورثنا عنهم الوقوف عند حال لا نطلب أرقى منها . يقول فيبر المؤرخ الألمانى ، عند حديثه عما كان للمصريين من العلوم والصنائع : وَلكنَّ لعْنَةَ الظلم ، وتأثير القسيسين ، أثقلت كواهلهم ، واقتضت أن لبث المصريون أحقاباً ، لا يجاوزون درجتهم التى رَقَوْا فيهـا حتى كمل لهم غيرهم من الأمم ما ابتدءوا فيه .

فتش عن مؤلفاتنا وأحوالها ، تر أن الذى يقدم لك اليوم مؤلَّفاً فى أى علم ، إنما يقدم لك نسخة مما وضع المؤلف الأول . دار الفَلَكُ دورات عديدة ، وذلك المؤلَّف بوضعه ومسائله لم يَدُرْ معه . نحن الى روح جديد ، وإصلاحٍ من كل مؤلف ، أحوجُ منا الى إبقاء ما كان على ما كان .

فتش عن أمثلة الكتب نفسها ، ترَ ، والعهدُ طويل ، لكتب النحو أمثلة لا تتغير ، ولكتب الفقه أمثلة ، ولكتب البلاغة أمثلة ، وهكذا ، وبقية هذا

الكتاب لا تخالف بقية ذلك ، الا بتطويل أو اختصار . هل معنى هذا ، الا أن نفراً من الأُوَلِ وضعوا للعلوم مؤلفات بأمثلتها ، ثم تركوها فى المهد ، فشابت وهى أطفال ؟ !

أخبرنى زميل لى كان يدرس علم البلاغة ، أنه اهتم بجمع كتبها ، فجمع كل المعروف منها ، ثم قرأها فى بعض المواضع ، فرآها ترجع إلى كتابين أو ثلاثة ، فاستغنى بالنظر فيها عن جميع الكتب .

فتش فى الجمعيات عندنا ، ترَ أن كل جمعية كبيرة لا يزيد عدد العاملين فيها عن نسبة لا تذكر ، والباقون عملهم أن يقولوا « نعم ، وهكذا كنت أرى ، وهذا ختمى » . من نحو عشرين سنة ، كنت أتردد على المحاكم ، وأحضر جلساتِها ، فكنت أرى بين قضاتها شيخاً أو اثنين ، يظهر من حالِهما ، والنزاعُ بين الأخصام شديدٌ ، أنهما بمعزل عن كل ما يقال . أبصرت أحدهما فى أثناء الدفاع يُهَوّم ، منظر لا أنساه من رجل عهد إليه الفصل بين الناس ، والقضاء عليهم ، بالموت أو الحياة .

بل فتش على رأينا فى أن يفهم الانسان ما يقال ويعمل به ، تر أن الرأى العام لا يبيح هذا . ألم يكن الاجتهاد فى المسائل غير جائز ؟ ! أليس معنى هذا أن كل ما تجود به الأفكار من طرق الإرشاد إلى الصواب والخير لا يُقبَل ، بل هو مردود على صاحبه ؟ !

فى سنة ١٨٨٧ قُبِلْتُ طالباً فى مدرسة دار العلوم ، فوجدت بين معلميها أستاذاً فاضلاً ، لا يجهله كثير من الناس ، اسمه « الشيخ حسين المرصفى » ، لم أر من قبل هذا الشيخ رجلاً يضاهيه فى فضله واستقلاله ، إلا واحداً أو اثنين . مِنْ كتبه التى ألفها « الوسيلة الأدبية » كتاب أتى فيه على بعض العلوم العربية ، فى أسلوب

لا يألفه عامة العلماء . عدل فى تعريف الماهيات كلها أو بعضها ، عن المتداولة لأمر عرض له ، فكانت هذه التعاريف ، وهى مظهر من مظاهر استقلاله ، سبباً للسخر منه . لم يقابَلْ عملُه بردّ فُنِّدَ فيه ما ذهب إليه ، كما هو الواجب ، بل بالضوضاء والتنكيت والضحك ، كما يُفعل عندنا إزاء كل حقيقة لا يألفها الناس .

كنت وأنا شاب مبتدئ فى الدرس ، أعجَبُ من أن يُمتَدَح طالب بتلقيه من فلان أو فلان . ذلك انى كنت لا أرى من هـذا أو ذاك غير النسخة التى يمسكها بيده ؛ حتى حضرت درس الإمام الشيخ محمد عبده ، الذى كان يلقيه سنة ٨٨ فى التفسير ، بجامع عابدين . هنالك أيقنت وفهمت ، أن للشيخ وجوداً غير وجود النسخة التى بيده ، وأن لنسبة التلميذ إلى شيخ ، معنى . نعم فان العلم يصير إلى الحياة إذا صدر من نفوس حية مستقلة .

المعلم الذى يعوّد تلاميذه تنزيه أى شىء كان عن الخطأ ، غير القرآن والحديث الثابت ، الخاص بالدين ، ولا يوجه فكرهم إلى تمييز الحق من الباطل ، وأقوالُ الناس كلهم فيها الحقُّ والباطلُ ، يكون قد ذبحهم بغير سكين ، وجنى عليهم وعلى أممهم جناية .

لا ينبغى لكم أيها الطلاب أن يقعد بكم العجز ، فترضوا بحفظ عبارات المعلم ، التى يلقيها عليكم ، ويكون مثلكم كصبيان المكتب ، فى حفظ ما يكتبون من القرآن فى ألواحهم . إذا زعمتم أن هذا ينفعكم فى نحو النحو والصرف ، لأنها أمور ترجع إلى اللفظ ، فلا شبهة لكم أن تزعموا هذا الزعم فى درس الأخلاق ، لأنه يرجع إلى نفوسكم .

يهمنى أولاً ، أن يصل صوتى إلى أفئدتكم ، ويحدثَ فيها أثراً ، حتى تعملوا جهدكم على تجنب الرذيلة ، وكسب الفضيلة . فان هذا كما قلت لكم من قبل مبدأ

سعادتكم وسعادة أمتكم . ثم أريد مع هذا حضور المعانى فى أنفسكم ، والتعبير عنها بعبارات بيّنـة . على أنى أطلب منكم أن تكون أمثلتكم من ثمرات فهمكم وتأملكم ، لا مما أمليه أو ألقيه عليكم فى الدرس . ومن أصاب منكم أمثلة أكثر وأصح ، كان هذا دليلاً على صدق فهمه ، وصحة تأمله .

أيها الطلاب ! أن كل من سبقوكم ، غير الرسل فى رسالاتهم ، فى قولهم الصواب والخطأ . أيها الطلاب ! ربما يكون الله تعالى قد وهب لبعضكم تأملاً أصح ، وفكراً أنفذ فى الأمور ممن سبقه ، فلا يذهبن بكم التقليد إلى تعطيل أفكاركم . إن لم تكونوا خيراً منهم على الاطلاق ، فقد يخطئون عند قول المسألة ، وتصيبون عند فهمها ، وقد يقع الخطأ فى النقل . ان الله تعالى لم يهب لكم هذه القوى الفكرية ، إلا لتعملوها جهدكم ، حتى تنتفعوا بها وينتفع الناس ، فانقدوا كل ما ترونه بقدر ما تصلون إليه ؛ وإن لم تفعلوا فقد قصرتم فى التماس الكمال ، الذى سهله الله لكم ، وهيأ كم لتحصيله ، وظلمتم .

تلقى المسلمون أوَّلا دينَهم بقوة ، واتخذوه قانوناً يعملون به ، فسعدوا ، وجعلناه للبركة وللتمائم فشقينا .

إخلعوا عنكم أيها الشباب هذه الثياب البالية ، فانها لا تصلح لدنيا كم .

إخلعوا عنكم هذه الثياب البالية ، فانها لا تصلح لآخرتكم .

إخلعوا هذه الثياب البالية ، أن تقتلكم بسريان سمومها إلى أجسامكم ، كما قتلت من قبلكم خلقاً كثيرين .

إخلعوا عنكم ثوب الكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة ، والغش ، والنفاق ، والرياء ، والتواكل ، والكسل ، والحسد ، والحقد ، والظلم .

عليكم بالأخلاق التى يدعوكم إليها دينكم ، عليكم بالأخلاق التى سَعِدت بها الأمة صدر الاسلام ، كما سَعِدت بها أمم كثيرة .

دونكم ثوب الاسلام ، فالبسوه قشيباً ، كما لَبِسَه المسلمون الأُوَلُ .

عليكم بالصدق ، عليكم بالصدق ، عليكم بالصدق ، والوفاء بالوعد ، والأمانة ، والاستقامة ، ومطابقة السر للعلانية ، والاستقلال ، والجد ، وتطهير القلوب من الحسد والحقد ، وعليكم بالعدل والشكر .

وهذه ، أيها الطلاب ، يدى ، أعاهدكم الله على تجنب الرذيلة ، والأخذ بالفضيلة ما استطعت . فعاهدوا الله ثم عاهدونى ، ندرك نحن وهذه الأمة خيراً جزيلاً فى الدنيا والآخرة .



علو الهمـــــة

في الجامع الصغير، من رواية الطبراني، إن الله يحب معالى الأمور وأشرافَها، ويكره سفاسِفَها. وعلو الهمة هو تعلق النفس بالمطالب الرفيعة، على وجه التحصيل. وهو، كالصبر، أساسُ الأعمال الكبيرة، غير أن علو الهمة بمنزلة السيد الآمر، والصبر بمنزلة الخادم المأمور. أو علو الهمة بمثابة الملِك، والصبر كوَزِيرٍ له. المرء متى تعلقت نفسه بالمطلب الرفيع تعلقاً صحيحاً، اقترن هذا التعلق بالعمل، وليس بعد العمل إلا النجاح. على أنه إذا لم ينل الكبير الهمة طَلِبَته فلا أقل من الاقتراب منها؛ كما أن الذى يجمع قوّته لوثب جدول، إن لم تتصل به وثبته الى الشط الآخر، وقعت رجله قريباً منه. فالطالب الذى تتعلق همته تعلقاً حقاً بأن يصير فى الاختبار أول الطلبة يصير أولهم، وإن اعتاقه بعض الأمور، كان الثانى أو الثالث.

وليس علو الهمة مما تعود ثمرته على الشخص فقط، بل تعود على الناس أيضاً. فدارس الطبيعة، إن رفعت به همة عالية إلى أن يصبح فى صف المخترعين، اجتنى هو والناس ثمرة اختراعه. والطبيب الذى لا يرضى من مزاولة الطب بأن يأكل ويجمع المال، بل يحاول أن يأتى فى صناعته بعمل كبير، وأثر باق، كما ينال درجة عالية ينتفع به الناس أيضاً. وهكذا.

وإجمال ما أردت بسطه: مَنْ وصل إلى درجة تطيب بها نفس مثله عادة فلم تطب نفسه بالركون إليها، بل دفعت به نفس أبيّة فجاوزها إلى أرقى منها، كان عالى الهمة، وعاد علو همته عليه وعلى الناس بالخير.

نعم ، الذى يجمع نفسه للأمر الكبير يصل إليه أو يكاد . ذلك أن النفس تتهيأ للمطلب الذى تحاوله ، وتثور فيها عزيمة تحكيه .

كما أن الذى ينوى تشييد دار يستعد لها ، فيجمع لها جصًّا وآجُرًّا وخشباً ، كما صوَّرها فى نفسه ، صغيرةً أو كبيرةً .

ألم ترأنك إذا نويت السفر يومين ، وجدت فيك نشاطاً لا يخمد ، وعزيمة لا تفتر ، إلاَّ فى اليوم الثانى قبيل أن تُشَارِفَ مقصدك ؟ أما إذا نويت السفر ساعتين فقط ، نفد نشاطك ، وأدركك الملل فى الساعة الثانية . من كان طريقه الى طنطا ، أخذ نشاطه فى النفاد بعد مجاوزة بنها . أما من عقد النية على الاسكندرية ، فانه يجتاز طنطا وهو ناشط .

إذا هيأت نفسك لمقابلة الوزير ، كان من الصعب عليك أن تقابل السلطان . أما إذا أعددتها لمقابلة السلطان ، فما أهون الأمر عليك إذ تدعى لمقابلة الوزير .

نفسك معدة للانطباق على مطالب مختلفة ، وغايات متباينة تقع على كل منها ، كما قد يقع الحافر على الحافر .

النفس الانسانية « كالأستك » تنقبض وتتمدد ، فتنطبق على أشياء كثيرة تختلف مقاديرها .

عليك إذا كنت فى عمل أن تطلب منه الأرقى ، ولا تَطِبْ نفساً بما يرضى به الأوساط ، فان الأوساط مقصورون قانعون بما لا تطيب به النفوس الأبيَّة .

الأوساط من بعض الأوجه عالة على الأكابر ، فارفع نفسك عن الأوساط . اعمل لأن تكون أسداً يفترس ، ثم يدع من فريسته بقية تأكلها الثعالب ، ولا تكن ثعلباً ، يتامس ما يُبْقى الأسد .

إذا كنت معلماً ، مثلاً ، فحاول أن تكون معلماً عالى النفس ، نابهاً ، ولا تكن معلماً خاملاً مقصراً .

عليك ، إذا مضت السنون ، بجمع ما أثمرت مزاولاتك فى كتاب ، يلجأ اليه الضعفاء القاصرون ؛ ولا تكن فى جميع أوقاتك عيّلاً على غيرك .

إن نفسك هذه التى بين جنبيك مشحونة بالنفائس ، تثيرها فيك همة عالية ، كما يُسْتثار التبر بالنبش .

واعلم بأن التِّبْر فى عِرْق الثّرى ‏ ‏ ‏ ‏ خافٍ إلى أن يُسْتثَار بنَبْشِهِ

اعتزل الراحة ، وانبذْ ما يهواه جسمك ظهرياً ، إن اعترض لك ما يهوى الجسم ، فى طريق مطلبك العالىَ . ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر . بل إذا كنت فى طبقة ، وآنست من نفسك استعداداً لأن تصير عضواً نافعاً فى طبقة أخرى ، فلا يقعدن بك العجز عن السعى فى تحقيق أمانيك . وعليك ، بعد التبصر والحزم ، ألاّ تسمع لقول أكثر الناس ، فانهم يعجزونك ، وينصحون لك بألاّ تفعل .

إن فيك استعداداً ، إذا لم تجد فيه عدّة لكل عمل يباشره الناس ، وجدت فيه عدة لأكثر الأعمال . من كلام ابن الوردى :

لا تقــــل قد ذهبت أربابه ‏ ‏ ‏ ‏ كل من سَارَ على الدَّرْب وَصَل

وقال ريلندز المصور الانجليزى : يمكن كل امرىء أن يصير مصوراً أو نقاشاً . وقال بكاريا السياسى الطليانى : إن كل الناس يمكنهم أن يكونوا خطباء أو شعراء . وقال بعض العلماء : إن كل الناس قابلون لأن يسموا بالقرائح سواء ؛ وان ما يفعله البعض بواسطة عقولهم ، يقدر أن يفعله غيرهم ، إذا استخدموا نفس الوسائط التى استخدمها أولئك .

ما لنا لا نرى منا أشخاصاً كباراً ، ما بين مخترعين ، ومكتشفين ، وأعلام فى جميع العلوم ؟ ! هل هذا لأنه ليس فينا صلاح لذلك ، والنفوس التى بين جنوبنا ليست خليقة بمحاولة المعالى ؟ ! فما هناك سبب لتسجيل هذا الوصف الذميم علينا !

أمّا فى ماضينا، فقد كنا فى سجن من الظلم لا نستطيع أن نخليه. كان الظلم يلحقنا ، من فوقنا ، ومن تحت أرجلنا ، ويأتينا من بين أيدينا ، ومن خلفنا ، وعن أيماننا ، وعن شمائلنا ، وأوزاره ملقاة على رؤوسنا وكواهلنا وظهورنا ، وأغلاله فى أعناقنا وأيدينا وأرجلنا ، لا نستطيع أن نفلت منه ، ولا نقدر على نهوض ، ولا نقوى على حركة .

ونحن الآن كالذى أخذ يهب من سبات غب سهر دائم ، أو يفيق من بَنج ثقيل . فمتى كنا بحيث تدب فينـــا نفوس عالية ، وعلو النفس لا يكون إلاّ مع الحرية والاستقلال ؟ ! نحن كمتنبىء أُتى به الى بعض الخلفاء ، فسأله عن معجزاته ، فقال : لو أمهلتمونى آتى بمعجزة ، ارسِلْتُ بالغداة ، وحَبَسْتُمُونى بالعشى !

انه ليهمنا كثيراً — ونحن نرجو سريان الهمة العالية فينا ، ونبوغ رجال كبار من بيننا — أن يتنسم إخواننا الأزهريون روح الاستقلال ، ويرحّبوا للعلوم ، بل واللغات ، صدراً ، حتى يجدوا منهـــا عضداً على نشر الدين ، وتجد منهم الأمة أعلاماً مصلحين !

بلاد مصر بلاد دين ، والأزهر يكاد يكون مضغة فى جسدها ، إذا صلحت صلح الجسم كله . ما للأزهريين لا تجاوز أصواتهم جدران الأزهر ؟ ! ما لهم لا يحفلون بالأمور العامة ، التى فيها صلاح الناس ، دينهم ودنياهم ؟ ! ألم يأن للأزهريين أن يجدُّوا فى إقام الدين والنصح لهذه الأمة ! ؟ أليسوا ورثة الأنبياء ؟ هل كان الأنبياء يكلون الوثنيين إلى أنفسهم ويذرونهم فى باطلهم ؟ !

يهمنا أيضاً ، لنفس هذا الغرض ، أن يكف ذواتنا عن قتل أوقاتهم فى العكوف على ابنة الكروم ، والسيارات تغدو بهم وتروح ، يحسبون منها شجرة الخلد وملكاً لا يبلى . ماذا عليهم لو تعلقت نفوسهم بالأمور الكبيرة ، التى فيها الصلاح لأنفسهم وبلادهم ، وصرفوا من أوقاتهم فى الرحل العلمية ، واحياء دارس العلوم ، لا فى رحلة الصيف إلى الملاهى . إذا شكا جماعة منا ، قال بعضهم :

أرى نفسى تَتُوق الى أمور ويَقْصُر دون مبلغهن مالى

وقال آخرون : ويقصر دون مبلغهن وقتى . فما عذر ذواتنا ، على ما هم فيه من سعة المال والوقت ، اذا لم يلبوا داعى الهمة ؟ !

كذلك يجب علينا أن نعمل لرقى العلم والتعليم عندنا ، فان العلم كالماء العذب ، إذا ارتوت منه النفوس اهتزت وربت ، وأنبتت ، وما نباتها الا النفوس الكبيرة ، والفضائل . وقد استهل العلم ونشط فى المهد ، بما لقى من عناية الحكومة والأمة . غير أن تعويل الأهالى على أنفسهم لم يبلغ بعد نصابه ، وكأنهم لا يزالون يرتقبون أن تعمل لهم الحكومة كل شىء ، وإلاّ فلا أقل من أن تضع لهم أساس العمل ، أو تلجئهم اليه .

أين الجامعة وأين مشروعها ؟ انه إذا أنشئت الجامعة فى هذه الديار ، هبط عليها روح قوىّ من السماء ، فسرى فى الأمة ، وأثمر من الحياة ما شاء الله .

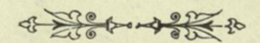
وانكم ، أيها الطلاب ، عما قليل تصبحون من رجال الأمة ، ويناط بكم بعض شؤونها . فخذوا أعمالكم بقوة ، وجدّوا ، واطلبوا الغايات البعيدة .

إن كنتم تحسبون أن الواحد منكم إنمـــا يصلح معلماً فى مدرسة النحاسين أو المحمدية ، فأنتم مخطئون ؛ لأنكم تصلحون للتربية فى المدارس التجهيزية والعالية أيضاً ، متى اجتهدتم . وهؤلاء إخوانكم السابقون يربون فيهما .

أنتم تصلحون ، متى عملتم ، لأن تكونوا محامين محسنين ، وهؤلاء بعض إخوانكم يعملون فى المحاماة .

أنتم تصلحون ، متى عملتم ، لأن تكونوا قضاة ومستشارين فى المحاكم ، وهؤلاء بعض اخوانكم ، منهم رئيس المحكمة ، ومنهم المستشار ، ومنهم القاضى ، وقد كانوا طلاباً فى هذه المدرسة ، يجلسون لاستماع الدرس كما تجلسون الآن .

بل أنتم أكفاء لأن تتربعوا فى دست الوزارة ، متى تحركت بين ضلوعكم نفوس عالية أبية ، فأمّلتم ، وعملتم ، واجتهدتم . وهذا سعادة ناظر المعارف العمومية ، نشأ مجاوراً كما نشأتم . فارفعوا أعناقكم ، ومدوا أبصاركم ، واسعوا الى المطالب الرفيعة التى تعلى شأنكم ، وجدّوا تحمدوا غب السرى .



عزة النفس

هى إكرام المرء نفسه ، ووضعها فى مرتبتها . رفعة المنزلة من السعادة التى يجدها الشخص فى هذا العالم . على أنها قوة كسائر القوى ، تساعد المرء على نيل أمانيه ، والتصرف فى أموره ، وأن لها فعلاً بالألباب ، وسلطاناً على النفوس ، لا تضاهيها فيها قوة أخرى ، كالمال والجاه . وسبب رفعة المنزلة إنما هى الأعمال المختلفة التى يقوم بها المرء ، والصِّبَغ الكثيرة التى يتبدى فيها لأعين الرائين ، تابعاً لما توحيه اليه نفس عزيزة ، ترى الموتَ أن تُلِمّ بالدَّنايا .

ومن الخطل ، أن تحسب العامل فى اقدار الناس إنما هى الأموال التى جمعوها ، أو العلوم التى حصلوها ، أو المناصب التى نالوها ، وان كانت هذه الأمور من وسائل الاحترام ، فى الجملة .

إنك لتجد بين العالمين تبايناً : هذا يجله القلب ، وترمقه العين ، ويلقى اليه السمع ؛ وذاك لا يؤبه له ، ولا يقام له وزن ، ولا ينال من الناس إلاّ الازدراء به ، والحطّ منه . ومثل هذا التباين تلقى بين أولى الثروة والمناصب العالية ، بل قد يكون من المال يكسبه الفتى ازدراء به ، إذا نكب عن المروءة جانباً ، وأجاب داعى البخل . كما قد يكون من العلم موجب لعدم توقيرِ من حصله ولَوْمِه ، إذا لم يكن نصيبه منه غيرَ قيامه حجةً عليه ، كالبصير يسير على طريق بغير هدى ، حتى يطوح به عدم احتراسه فى بئر ، فانه ملوم . أما الأعمى فانه إذا تردّى فى تلك البئر ، كان من الناس فى موضع الشفقة لعجزه . كذلك يكون من المناصب الرفيعة مقت لذويها ، إذا كانوا لا يرعونها حق رعايتها . وكثير من ذوى المناصب العالية ، الذين قعد بهم

أمر عن أداء حقوقها للناس . لو كانوا فى مناصب دونها ، فذلك أدعى لتوقيرهم ، وأجلب لسعادتهم . إنه لا يولى الفتى تبجيلاً لماله ، ولا ذا السلطان إعظاماً لمنصبه ، إلاّ واحدٌ من اثنين : إما رجل خيّم الجهل على قلبه ، وإما رجل ساقته الحاجة .

من الواجب أن تُعْنَى بكل صغير تفعله ، فأنت مؤاخذ بكل صغير ، وله أثر فى قدرك بين الناس ، كما كانت الحصاة لها عمل فى قيام القصر المشيد .

الكلمة تقولها نابيةً عن الأدب ، أو مائلةً عن الوقار ، لها عمل فى قدرك ، فلا تتساهل فى كلمة .

المشية تهرول فيها ، تزيد عن الحاجة ، لها أثر فى قدرك ، فاقصد فى مشيك .

الصوت تجهر به ، تجاوز ما اعتـــاد الناس ، له أثر فى مكانتك ، فاغضض من صوتك .

اللقمة تلوكها فى فمك على الطريق ، بمرأى من السابلة ، لها أثر فى مكانتك .

القهوة الحقيرة يأوى اليها السّفلة ، بجلوسك فيها أثر فى منزلتك .

الرجل الساقط المنزلة ، لجلوسك اليه وحديثك معـــه فوق الحاجة ، أثر فى منزلتك .

قصدك الى الدار تجلس فيها للخدم والحاشية ، لا مع السيد ، مؤثر فى رتبتك .

سعيك الى الكاتب فى أمر ، تقف منه بمزجر الكلب خاسئاً ، تَكَلَّمْ ، فلا تكاد تسمع صوتك ، مؤثر فى رتبتك .

كل هذه أمور لها تأثير فى قدر الشخص بين الناس ، وعليها وعلى أشباهها تعتمد رتبته . فانظر فى جميع أقوالك وأفعالك وأحوالك ، ولا تول شيئاً منها غضباً ، فان الناس يعدونها عليك حيث لا تحتسب .

إذا لم يكن فيك نفس ترفعك عن الأمور الحقيرة ، وتدفع بك الى طلب منزلتك التى لك ، فلست على شيء من عزة النفس ، ولا تجد إذن من الناس من يكرمك ، بل تكون أهون عليهم ، منك على نفسك .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هواناً بها كانت على الناس أهوَنا

إن الوضع — أيها الطلاب — الذى وضعكم الله فيه من خير الأوضاع ، والطريق التى أنتم آخذون عليها من خيّر الطرق ؛ فأنتم طلاب مدرسة تعدّكم لأن تكونوا فى الغد معلمين لأمتكم . أنتم الوسيلة الحقة لأن تُعَلَّم الأمةُ ، وحياة الأمة منوطة بالعلم . أنتم طائفة من طوائف العلم ، وأفضل الطوائف هم طوائف العلم ؛ نعم يفضل بعضهم بعضاً .

هذا ، أما إذا ألقيتم على كواهلكم تربية النابتة تربية صحيحة ، واحياءهم بروح قوى من الدين ينفخونه فى صدورهم ، وأخذتم على أنفسكم أن تكونوا لهم قدى صالحة ، فقد نهجتم أعدل منهج ، وكنتم خير أمة أخرجت للناس . أنتم حينئذ العلماء الذين يخشون الله من عباده ، وأنتم حينئذ ورثة الأنبياء ؛ فوجهوا منكم همّة عالية فى التماس هذه الدرجة الرفيعة ، وعسى أن تصيبوها ، وأوصوا بها من بعدكم ، فربّ مبلَّغ أوعى من سامع .

هذه ، أيها الطلاب ، هى منازلكم التى هيأكم الله لها ، فلا تطعموا أنفسكم الهوان ، وتجرعوها الذل ، ولا يزحزحنكم عن أقداركم ما تحسبوننا فيه من الفقر المزرى ، إلى ما ترون فيه الملأ من قصورهم المشيدة ، وخيلهم المطهمة ، وأموالهم الوافرة ؛ فان لنا فى القناعة مجداً بناؤه أطول مما يجده أولئكم فى بنائهم ، وعزًّا أقوى مما يجدونه فى ظهور خيلهم ، وغِنى فوق ما يجدونه فى أموالهم . وهيهات أن يصاب غِنًى من مال !

وكما أن وضع المرء لنفسه دون رتبتها حطّ من قدره ، كذلك وضعه لها فوق رتبتها يثير عليه أحقاداً ، تغلى فى الصدور غلى الماء فى المراجل ، ويجلب له المقت ، ويجعله عرضة للرد إلى مرتبته الحقة ؛ كالذى اكترى مقعداً فى ملهى ، ليس له أن يجلس فى مقعد خير منه ، وإلا استهدف شخصه للهوان ، والسوقِ طَوْعاً أو كَرْهاً إلى موضعه . والذى اكترى محلا للسفر فى عربات الدرجة الثانية ، ليس له أن يتكىء على أرائك الدرجة الأولى ، وإلاّ عرّض نفسه للخسارة أو الطرد . كذلك نحن فى هذا العالم ، ليس لنا أن نَقِرَّ إلاّ حيث تَنْصُب لنا أقدارُنا مقاعدَ .

ومن أسباب عزة النفس ، شعور الإنسان من نفسه بالفضيلة ، وإقدامُه ؛ فانه كلما شعر الشخص من نفسه بالفضائل ، ولم يخذله إقدامه ، عزَّت عليه نفسه ، وأقام لها شعائر الاحترام . وإن النفوس البشرية لتهون على ناقصى الإقدام ، والذين يطوحون فى النقائص . تهون على المرء نفسه متى استولى عليه الشعور بالنقيصة ، حتى إنه ليحسب راحته فى الهرب منها . ألم تر كيف ينتحر بعض الناس إثر اقتراف النقيصة ؟ فلا شىء أذهب براحة النفس وأحط لها ، وأعمل فى صَغَارها من النقائص ! أفّ من النقائص ! ما أشق الأحرار بها ، والجواد قد يكبو — وما أقدرها على التطويح بهم فى نار حامية !

إن بعض الناس ، لسقوطهم فى نقيصة، تغيرت عوائدهم ، وآدابهم ، وأخلاقهم ، حتى صاروا خَلْقاً جديداً ، لو مُثّل لهم من قبل لرأوه غير خليق بنظرة منهم . إعوجّ طريقهم ، وقد كان من قبل سوياً ! ودنت غاياتهم ، وقد كانت من قبل بعيدة ! ماتت آمالهم ، وكانت من قبل حيّة ! وسفلت أخلاقهم ، وقد كانت عالية ! وانحطت آدابهم ، وقد كانت راقية ! ورضوا بأن يساموا الخسف من جميع الناس ، بعد أن كانوا من أباة الضيم ! وبدا للناظرين خطلهم فى كل شىء ، بعد أن كانوا

متّسمين بالكياسة ، وأصالة الرأى ؛ كأنهم إلى هذا اسودت وجوههم ، وتغيرت خِلقَهُم الظاهرة ؛ فلو رأيتهم ، على خُلة كانت لك بهم ، لأنكرتهم ، ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولمُلِئتَ منهم رعباً ! هذا ، أيها الطلاب ، لأنهم سقطوا فى النقيصة على مشهد من الناس، فهانت عليهم أنفسهم ، ونابهم انكسار أضعف إقدامهم ، الذى كان يأخذ بأيديهم ويتقدم بهم ، حيث مستقر النفوس العزيزة !

تقطعت صلاتهم بخلق ، واتضعوا عند خلق آخر ! وأقفرت منهم تلك الغرف التى كانوا يشرفون منها على العامة ، حتى كأنما كانت تلك الفضيلة التى خدشوا وجهها ، حجراً خرَّ من بناء فتداعى من أجله ذلك البناء !

ماذا تتوقع فى غالب الأحيان من مدير عزل من منصبه لرشوة أساءت سمعته ، غير تنكبه عن بعض الطبقات التى كان يغشاها ، خصوصاً أصدقاء الفضيلة منهم ، وصيرورته إلى مخالطة آخرين ، لا يقطبون للنقائص وجوهاً ، وتبذلِه فى أموره ، ووقوفهِ عند حال ، دون الذى كان فيه من القول والفعل وعزة النفس ؟ !

فلنحذر الرذائل ، لأنها تذهب بعزة أنفسنا ، وتبيد سعادتنا ، وتحرفنا عن الطريق السوى ، طريق الدين والحكمة .

علينا بتجنب الكذب ، والخيانة ، والبخل ، والرياء ، والغش ، والطمع ، والميل مع الهوى ، فانهـا تنتهك عزة أنفسنا ، وتجهد سعادتنا ، وتجلب علينا الشقاء من كل مكان .

ولنحرص على الأخلاق الفاضلة ، فانها الأساس المتين لسعادتنا ، وعزة أنفسنا .

لنحرص على الإقدام، قدر ما تحتمل أنفسنا ، والعفة والقناعة ، والأمانة، والصبر، والصدق ، والحرية ، فان فيها مدداً لعزة أنفسنا ، وقسطاً من السعادة أيّما قسط .

الصبر

الصبر من ألزم الأخلاق للمرء، حتى يدرك أربه فى الدنيا والآخرة.

من أجل هذا ذكر فى التنزيل العزيز، فى نيف وسبعين موضعاً، كما فى الأحياء.

قال الله تعالى:

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

وهو أنواع:

الأول: الاستسلام عند المصائب، فان الجزع لا يهوّن أمر المصيبة، بل يعظم شأنها. ومن الحكم: المصيبة للصابر واحدة، وللجازع اثنان. إن كان التصبّر لا يذهب بالنكبات، فان فيه تقليماً لأظفارها.

ومن قول أكثم بن صيفى: حيلة من لا حيلة له الصبر.

ما أشقى المرء الذى يسلم نفسه للجزع، خصوصاً إذا كان التخيّل يجسم الدقائق، لأنه يصلى فى كل كريهة بنارين، نار من جزعه، وأخرى من تخيله، ولا يكاد يفكّر إلاَّ فى نازلة.

إن الاستسلام عند الشدائد، والإنابة إلى الله، من الاذعان بالعجز، والشكر له، من آيات الفوز.

قال الله تعالى:

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »

لا تذهبن نفسُك على فائتٍ حسراتٍ ، واذكر أن كل شيء الى فوات ، وإن تَرَاخَى الأجَلُ ، وأن موقف الجزع ، ينقص الوقار ، ويذهب الحشمة .

إلْزَمِ الصبر ، فعما قليل يصير الرزء الذى ينوء بك إلى سيرة ، كالشّهاب ، يَحُور رَماداً بعد إذْ هُوَ ساطع .

تذهب الشدائد وتنقضى الأحزان ، ولا يبقى من الجزع إلا سخط الله وازدراء الناس ، ولا من الصبر الا رضوانه وثناؤهم .

ومن خير ما جاء فى الباب قول ابرهيم بن كُنَيف .

تعزّ فان الصبر بالحر أجملُ وليس على ريب الزمان معوّل

فلو كان يُغنى أن يُرى المرء جازعاً لحادثة أو كان يُغنى التذلّل

لكان التعزى عند كل مصيبة ونائبةٍ بالْحُرّ أولى وأجمل

فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامه وما لامرىء عما قضى الله مزحل !

ويغلب الصبر فى الشيوخ الذين طالما امتحنهم الدهر ، لأنهم يكونون بحيث قد عُوِّدوه فى جميع أحواله ، واطمأنوا إلى أن من غالب الدهر غلب ، ومن صارع الأيام صرعته ، ووطّنوا نفوسهم على قول ابن دريد :

فالدهر يكبو بالفتى ، وتارة ، ينهضه من عثرة إذا كبا

لا تعجبن من هالك كيف هوى ، بل فاعجبن من سالم كيف نجا !

أما الشبان فأولئك هم الأغرار ، لم يُسْمعهم الدهرُ بعدُ عظاته ، ولا أخلصهم بنوائبه ؛ جهلوا ، وان حفظوا علوماً شتّى ! بعيدون عن التعلم ، وان طال اختلافهم الى المعلم ، فان المعلم الحق هو الدهر !

يريد الشباب أحياناً أن يُفْلِت من يد الدهر، وآونة يبغى أن يصرعه، وهو فى الحالين تائه عن الحق. إذا أقبل الدهر على الشباب عابساً تهلّل نواجذه، حاول أن يتخلص منه، فأوقع نفسه فى شدة، وابتلاها بمحنة شر من محنة الدهر. واذا علم أن لا مفر من الدهر، انتحر كما ينتحر بعض التلاميذ عند خيبتهم فى الامتحان.

يَبْتلى اللهُ الانسانَ ليربّيه ويصلحَ من شأنه. رب مريض مسجى، وأهله وأصحابه مطيفون به يبكون، ولله تعالى فيه منة، ما يرضى المريض منها بحمر النعم. إن المصائب إيقاظ الله للعبد من غفلته؛ فمن ألقى السمع، وتسمت الصوت، نجا من المفاوز التى يتيه فيها.

إن فى كل نكبة شمساً تضىء النهج، ولكن الأجهر يتأذى لضوء الشمس. لا يأخذنك عجب، فأنت نفسك، إذا مرض ابنك، أذقته صنوفاً شتى من الألم تبغى شفاءه من مرضه، بل تحاول أن تشفى نفسه من الرذائل باذاقته ألواناً من الألم.

إن كنا لا نفهم أحياناً وجه ارتباط المصلحة بالمصيبة، فلعجزنا وقصورنا، كما أن ابنك فى بعض الأحيان، ترتب الفائدة على ما يناله منك من المكاره. سل عن كثيرين من المرضى، تعلم أن المرض كان لنفوسهم علاجاً شافياً. تعالى الله علواً كبيراً، أن يكون كالطفل، يربط العصفور من رجله لا تأخذه به رأفة!

احمد الله تعالى على الشدة قبل الرخاء، والضرّاء قبل السراء.

قال يواقيم هنرى، فى مكاتبة روبنسون، التى وضعها باللغة الألمانية، وجعلها كتاباً لمطالعة النابتة، ما تعريبه:

« قال الأب: إن القدر يجرى بنا كما كان منى اليوم مع حشرة.

فقالت الأم: وكيف كان ذلك؟

قال الأب: اليوم كنت أكسر خشباً، وبينما أنا أريد ضربه بالقدوم، أبصرت

حشرة فى مسكنها سيصيبها القدوم . فقلت فى نفسى: ماجناية هذا الحيوان فأقتله ؟ ثم نفخت الحشرة نفخة أطارتها من مسكنها ، وألقتها على بُعد ثلاث خطوات منه ، كأن عاصفة شديدة احتملتها. ثم قلت : ترى ماذا فكَّرَتْ هذه الحشرة الحمقاء فى نازلتها — إن كانت الحشرات مما يفكّر ؟ — إنها تكون قد قالت : ما أقسى هذا الظالم الذى يمشى على رجلين ؟ ما أقساه إذْ أثار عاصفة استأصلتنى من مسكنى مرغمة ، وطارت بى فى الجوّ حتى سقطت هنا غريبة ، نازحة الدار والوطن ؟ ويا ترى ماذا يجد له فيما صنع ؟ إنه ما فعل بى ما فعل ، إلا ليرانى سابحة فى الجو أقلب فيه ! ومن البعيد أن تكون رأت ، ولو فى منامها ، أننى إنما فعلت بها ما فعلت ، عطفاً عليها ، وإبقاءً على حياتها . فاذا نزلت بنا نازلة ، فعلينا ذكر هذه الحشرة ، ولا علينا حكماً مؤسساً على الكفران بالنعم . ولئن فاتنا إدراك سر القدر ، لقد فات تلك الحشرة إدراك مقاصدنا . »

الثانى : توطين النفس على احتمال المكاره ، التى فى الأفعال المحمودة .

قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »

وفى الإحياء ، قال صلى الله عليه وسلم : « فى الصبر على ما تكره خير كثير » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لا تدركون ما تحبون ، إلاَّ بصبركم على ما تكرهون » .

من البيّن أن المرء إنّما يُنْتَفَعَ به ويُقَدَّر باعمالِه ، والأعمالُ ، خصوصا ما كان منها جليلا شاقاً ، لا تتم إلا بالصبر . إن الذين لا يعتصمون بالصبر والثبات ، ينفقون كثيراً من أوقاتهم وقواتهم هدراً ، ولا يتأهلون لمباشرة الأعمال الكبيرة . عمل الأذكياء ليس بشىء فى غالب الأحيان ، جانب عمل المتوسطين الذين يعتصمون بالصبر . لا يقعدن بك احتقارك لموهبتك من الذكاء عن طلب الغايات

البعيدة ، إذا كنت امرأ مغرى بهمة عالية ؛ فان لك فى الصبر ما يساعدك على بلوغ أمانيك ، أكثر مما يساعد الذكاء المخلوط بالضجر ذويه . انظر إلى اخوانك الذين يجمعهم بك فصل واحد ، ترَ فيهم مَنْ قسطُه من الذكاء واف ، ومَنْ حظُّه دون ذلك ! وقد يعطيكم مدرس الحساب مثلا مسألة يطلب منكم حلّها ، فيتفق أن الذكى ينظر فيها برهة ، ثم يدركه الضجر فيدعها ، وأن الذى دونه يجد لها بعد زمن حلاًّ ؛ ذلك بما صبر . كذلك شأنكم بعد تمام الدراسة ، خارج المدرسة ؛ الفوزُ للصابرين ، واللهُ معهم . سلوا عمّن هو أكثر تأليفاً ، من اخوانكم الذين سبقوكم ، ينبئوكم بأنهم أصبرهم لا أذكاهم . نعم إن الغلبة فى المدرسة غالباً للأذكياء ، ولكن خارجها بالعكس ، الغلبةُ غالباً للصابرين . ذلك بأن أمور المدرسة مركبة من دقائق تنقضى الواحدة منها فى لحظة ، أما هذا الجو الذى سبقناكم اليه بالأمس ، وستلحقوننا به ، ففيه آمال كبيرة وشاقة ، لكنها جليلة ، لا يستطيع الضَّجِر مباشرتَها ، ولا يذوق ثمرتَها ، وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم . فليطب نفساً من يشعر من نفسه بقصور فى الذكاء ، فانه يستطيع أن يتبدّل به الصبر . ألم تر أنّ الله تعالى قرن قوة الصابر بعشر قوى ! ؟ قال تعالى :

« إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »

ليس معنى هذا أن الصبر بمنزلة التميمة ، متى علّقها الشخص ظفّره الله تعالى ، بل معناه أن فى الصبر مضاعفةً للقوة ، فانه يحمل على الالحاح والمداومة ، ومن كان مستمراً ملحًّا ، فجدير بالفوز والغلبة .

أَخْلِقْ بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومُدْمِنِ القرع للأبواب أن يلجا

إن الهمة العالية لا يحصل عليها إلا الصابرون . أما الضَّجِر فانه لا يحصل منها غير الأمانى ، فان الهمة العالية تحت الجد فى طلب الغايات البعيدة ، وذلك يقتضى النصب والتصبر

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

إن الهمة العالية ، أينما سارت ، سار فى ركابها ثلاثة خدام ، من الإرادة والصبر والثبات ؛ والصبر والثبات متلازمان فى الجملة . وفى كتاب سر النجاح لصموئيل الانجليزى كثيرون من الذين ثبتوا وصبروا . كتاب طيّب إلى الغاية عرّبه أصحاب المقتطف . كتاب يحرّك من القارئ نفساً خامدة ، ويحيي أملاً ميتاً ، ما قرأت فيه إلا لقيت منه فى نفسى أثراً حمدته ، فعليك بطلبه حيث تجده ، وقراءته مرة ، لا بل مرات .

أرسل الله تعالى الرسل بالهدى ودين الحق ، ليُطَهّروا الناس مما هم فيه ، من سفك الدماء ، واثارة الشر ، والعادات السيئة ، فجاءوا أقوامهم بالهدى ، فلقوا منهم الاستهزاء والتكذيب والضرب ، فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا ، حتى جاء نصر الله. ومنهم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بالحق من ربه ، فاصابته إهانات شتى ، ومع هذا أمر بالصبر إذ يقول الله تعالى : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ اولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وكان من نتيجة دعوته وصبره ، أن غمرَ الناس بخير جزيل ، وهداهم للايمان ، وفى الإيمان الحق كل خير وسعادة .

اقتضى إحسان الله أيضاً أن يوجد فى الناس أصنافاً من العلماء المصلحين ، والمخترعين الماهرين ، والمكتشفين الذين ضربوا فى الأرض ، والصناع الحاذقين ، وكل هؤلاء لم ينجحوا فى أعمالهم ضرورة ، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه ، إلاّ بالصبر ؛ ففى الصبر إحسان من الله إلى الناس ، ومن الناس إلى الناس .

ولقد رأيت من تمام الفائدة . أن أعرّب لك ما كتبه بَولْزِن الألمانى فى الصبر، قال : الصبر هو الاستعداد لاحتمال الآلام ، بدون أن تذهب بنفس الشخص . ويمكننا أن نلحظ منه نوعين : نوعاً يرجع إلى الاحتمال ، والثانى إلى الفاعلية . الأول : احتمال الآلام من غير تذمر ولا معارضة ، والثانى : قوة فى الخاطر ، بحيث يجد الشخص من نفسه قدرة على النهوض ، والاقدام على العمل ثانياً ، غب انكسار أو خسارة أو نحوهما . الصبر شجاعة المرأة ، وهو بنوعيه ، خصوصاً الأول ، أكثر فى النساء منه فى الرجال ، وإنك لترى أن قوة الاحتمال للأوجاع تكمل فيهن ، كما لا يقضى منه العجب . وهذا الفرق منشؤه الاختلاف بين الطبيعتين ، طبيعة المرأة ، وطبيعة الرجل ؟ فالمرأة بطبيعتها أمهر من الرجل فى احتمال الآلام ، أما طبيعة الرجل ، فمبناها على الهجوم والدفاع ، ويصعب عليه الوجود فى ألم لا يستطيع فيه دفاعاً ، ولا يمكنه أن يفلت منه . وكذلك النوع الثانى يكثر فى النساء أيضاً ؛ فان المرونة فى قوة المعارضة عند المرأة ، من أنفس أوصافها وأجملها . الرجال متى كبروا ينهضون من عثراتهم بصعوبة ، أما المرأة فانها فى الجملة تهتدى ثانياً بسرعة إلى طريق المعيشة والواجب ، فانها لا تلبث بعد كبوتها حتى يدركها الخوف والرجاء ، فتهم وتعمل ؛ ذلك بأن طبيعتها مرنة ، بخلاف الرجل ، فان طبيعته أجف ، وأقرب من الكسر ، والمرأة تتقبل باحتمال عظيم ما يثقلها من الأتعاب والمكاره . إن الرجل ضَجِر ، وهى مستريحة هادئة البال ، ولهذا طبعت على كونها حافظة للأطفال ، متعهدة للمرضى ، مسلية للشيوخ .

دل الاحصاء على أن قوة احتمال الآلام والأقدار ، أتم فى المرأة منها فى الرجل ، بواسطة حوادث الانتحار . يقابل انتحار كل امرأة بأربعة من الرجال . فاذا دل الانتحار على أنه لم يبق فى الانسان قوة يطيق بها الحياة ، صح بمقتضى هذا أن

يقال : إن قوة الاحتمال فى المرأة ، تساوى قوة الاحتمال فى الرجل أربع مرات .

إن الصبر على الآلام يدل دائماً على خلق شريف . أما الشجاعة والثبات فقد يأتيان بالتبعية لنية سيئة ، أو محبة الشخص لنفسه ، بخلاف الاستسلام للشدائد ، فانه علامة على أن قوة المزاحمة الشديدة الطبيعية فى الحياة ، التى بواسطتها يحصل طلب الإفلات من الشدائد ، هدأت وتلاشى عملها ، بواسطة إرادة عالية فى الشخص . مِنْ ثَمَّ لم يكن هناك تنافر شديد ، بين النفس والنازلة .

الثالث : احتمال المكاره ، التى فى صرف النفس عن هواها ، وهو أيضاً عفة ، قال الله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » . النابت تحت ولاية أبيه أو جده مثلاً ، لئلاَّ يتصرف ضد مصلحته ، ومتى كبر خرج من هذه الولاية ، ولكن يجب عليه أن يضع نفسه تحت ولاية الشريعة ، وإلا كان أقدر على إيذائها منه فى صغره .

ومن الخطأ الذى لا يغتفر ، أن يجعل زمامه بيد نفسه وهواها ؛ فكم ألقت بالمرء تلبية الهوى فى الهوان :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

من الحكمة ألا ينال المرء إلا من لذة مباحة ، فإن إباحتها علامة على خلوصها من الأذى . أما النفس فتتهافت على اللذة المهلكة ، تهافت الفراش على النّار .

إن أنصح صديق لك الشرائع السّماويّة ، وأغش عدوّ لك نَفْسُك التى بين جنبيك ، فاحذرها . إنك تسمع من الشريعة صوت الحكمة ، وتسمع من نفسك ضوضاء من البهائم ، وجَلَبة من الشياطين .

ان القوة البهيمية استولت علينا ، فأفسدت فينا أكثر مما أفسدته القوة الغضبية ، وأكثرُ نقائصنا من جهة الشره فى الانهماك فى الملاذ .

فى ظنى أن معظم الجنايات التى تقع فى بلادنا ، من نحو القتل ، ترجع إلى إفراط القوة البهيمية ، لا إلى افراط القوة الغضبية . لتزاحم على لذةٍ حيوانية ، يقتل الرجل أخاه ، أو يقتله ودونه حجاب مستور ، حرصاً على عَرَض يصيبه .

إن أشقياءنا مسوقون إلى الشقاوة بالشره ، أكثر مما هم مسوقون إليها بشىء آخر .

حالة أكثر الطبقات عندنا تستدعى الأسف ؛ فالطبقة العالية، وهم أبناء ذواتنِا السابقين ، وذواتُنا اليوم ، دفعها التبذير إلى طاعة الشهوة البهيمية على أقبح وجه . قلدوا الأوربيين أسوأ تقليد . قلدوهم فى الصورة الظاهرة ، من اللغة والملابس وشرب الخمور ، وأعرضوا عن الفضائل . الأمير أو المعتدل من الأوربيين ، يشرب قليلاً من الخمر فى الغالب ، من عادة أو توهم جلب منفعة ، وأمراؤنا يشربونها ليسكروا . ذاك يفعل الشىء طلباً لما يوافقه ، وهذا يفعله تكلّفاً وتقليداً . فسد أمراؤنا داخل بيوتهم وخارجها . أفسدتهم الخمر فأفسدوا حاشيتهم ، وسرت عدواهم إلى بعض المستقيمين . أصبح ذلك الطربوش الأحمر الطويل ، حَشْوُه رأس امتلأ سَرَفًا وتبذيراً . ليس هذا واجبَ أمة على أمرائها ، إن واجبنا على أمرائنا أن يتمسكوا بالفضيلة ، ويتجنبوا الرذيلة ، حتى يكونوا فينا قُدًى صالحة . واجبنا عليهم أن يعينونا على إغاثة فقرائنا وتربيتهم ، وأن يتعرفوا إلينا فى شدائدنا ، وأن يكون كل قصر من قصورهم مشرقاً لشمس الفضيلة والعرفان ، بحيث تصبح فى عداد مدارس الأمة ، ومن خيرها . ولهم بذلك منا ارتباط قلوبنا بهم ، وإخلاصنا لهم فى السر والعلانية ، واحترام السوقة للأمراء .

أما الطبقة الدنيا من العمال والصناع ، فقد غلبهم الحشيش والخمر على عقولهم حتى أصبح ورم العينين ، وهو فى الغالب علامة عدم الاستقامة ، سمةً لأكثرهم .

سألنى قريب لى عند عودتى من أوربا ، عن شىء أكون قد استغربته عند وصولى إلى مصر ، فلم أذكر له ما يصلح . فقال : ولكنى أول ما عدت ، أخذنى العجب من مرأى العيون ، فاننى رأيت أغلب الأجفان وارماً . ألم تفكر مرة فى هؤلاء العملة الفقراء ، الذين يترددون على الحانات ، وفى أسرهم ! ؟ يمضى الواحد منهم يومه فى أى محل اقامته فيه الحاجة ، يترقب الليل ، وخياله يبحث عما يضحك السُّمَّار ، حتى إذا شاب النهار خرج إلى الحانة ، وله زوجة مسكينة ، وذرية ضعفاء ، لا يمر بهم . وإن ألمّ بهم ، ترك لهم قليلا من النقود لا تكفى لحاجتهم من الخبز وحده ، واشترى بما بقى معه خمراً ، وما هى بالخمر ، إنما هى سموم تقتل بالتدريج ، وربما قتلت من فورها . تشتد حاجة المرأة والأولاد ، فيأخذ كل منهم على طريق معوج ، والطرق المعوجة شتى . أليس من هؤلاء بعض من ترى من الصبيان ، يطوفون فى الطرق بلا مِهن أو فى مِهن حقيرة ؟ ! يتسلط النزاع فى الأُسرة ، ويسير كثير من النساء والرجال فى طرق غير شرعية ، ويكثر الطلاق والزواج ، ويأتى الاسرَ الفسادُ من كل مكان .

إلام تصير الأمة ، والأمة جسم مؤلف من هؤلاء ، ومن الذوات المبذرين ، والأوساطِ ، وبعضُ الأوساط ساقطٌ فى الرذيلة ؟ !

إن الضرر الذى يلحق امةً مثل أُمتنا ، من تبذير الذوات مضاعفٌ ، لأنهم إذ يسرفون فى أموالهم ، يشترون بها أشياء من غير بلادهم . أما الأمم الحية ، التى فيها حاجاتها من المصنوعات وغيرها ، فتبذير الفرد منها ليس معناه إلا خروجَ المال من يده فقط .

من الواجب أن يكون منك رقيب عليك فى جميع أدوار حياتك ، فان السقوط فى الرذيلة ممكن فى كل دور . إن أشخاصاً فرطوا فى جانب الاستقامة ، ونالوا من

الرذائل بعد أن جاوزوا غالب العمر . يسقط الرجل فى هذه السن فى لجة الرذيلة، ولا يجد وسيلة إلى النجاة حتى تكبه فى النار .

جاء فى سر النجاح ما يأتى ، بتصرّف : —

« إن الشاب الشارع فى خوض بحر هذه الحياة ، محوط بكثير من التجارب ، ليس له أن يقف عندها ، بل ينبغى أن يمر بها كريماً . واذا تصدت له التجربة الأولى فأعرض عنها ، تخلص من طائلتها حياته بأسرها ، ولا تلبث مقاومته للتجارب حتى تصير عادة له ، والمرء بما يعتاده . أما من تصدت له التجربة الاولى ونال منها ، فانه يضعف عن مقاومتها ، ومتى تغلبت عليه التجارب حطته إلى أدنى دركات الهوان ، ونزعت منه قوة الدفاع تدريجاً ، حتى تجعله غير قادر على تجنبها . انتهى »

واذا كانت التجربة التى سقط فيها هى الخمر ، لم تكن رذيلة واحدة. فإنَّ شُرْبَها جماع الرذائل . واللهِ لَحَمْلُ الحر للسيف ، وسعيه به الى الوغى لا يدرى ما يُفعل به ، أقلُّ خطراً عليه من قصده الى حانة ! فان فى سعيه إلى ساحة القتال تعريض جسمه إلى الأذى ، وفى قصده إلى الحانة تعريض شرفه الى الأذى ، وشتان ما بينهما . كم كأس ساقت الشارب الى مخازٍ، حتى ودّ عند صحوه لو أتت عليه أحقاب وهو مقبور . هذا الى ما يصيب الجسم والمال من الفساد . إذا قلنا إن نحو نصف الشر الذى يقع على الأرض لَحسْو الخمر ، فما أخالنا أبعدنا كثيراً . دع خيال الشعراء فيها وما يقولون ، إن ابتغيت الرشد ، وذرهُم وغواتهم ، وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعهُمُ الْغَاوُونَ .

إياك والخمر ، إياك والخمر ، فان سرورها ساعة ، قد يوقعك فى الخسران والأسف دهراً طويلاً . كن كما شئت ، واحذر الخمر ، فلن تستطيع أن تكون شقيا كما تشقيك الخمر ! ! وهل يقدر السّكير أن يذر الخمر ؟ نعم اذا أجهد نفسه ، فإنَّ شُرْبَها

عادة ، والحر قادر على ترك العادة . فكِّر فيما أنت معرض له من الخطر ! مثّل لنفسك ما يصيبك من الأذى ، فى جسمك وعقلك ، وما أنت فيه من السرف القبيح ، واعلم بأنك إنسان ، وما ينبغى أن تكون عبد الشهوة ! انما أنت امرؤ يعرف أن الخير فى إنفاق المال فى الخير . فكّر برهة فى دينك الذى هو خير صديق ناصح لك ، وهواك الذى هو ألدّ أعدائك ! إن تذعن وترد الخير تترك الخمر.

اذكر قول بَوَ لْزن الألمانى : من أراد أن يصير امرأ آخر أمكنه ذلك ، وما عليه إلا أن يعتصم بالأسباب القوية والوسائل النافعة ، لا بالآمال الكاذبة والأمانى .

وقول البوصيرى :

والنفس كالطفل ، إن تهمله شب على حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطم

بل اذكروا قول الله تعالى :

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .



الجـــد

فقل لمُرَجّى معـــالى الأمور   بغير اجتهادٍ ، رجوتَ المحالا

خلق الله تعالى الأرض ، وأسكن فيها الأمم ، كل أمة فى صُقْع ، وناط ثروة أهلها وخَفضَ عيشهم بجِدّهم ، لا بخصب ديارهم ولا بعَدِّهم .

فإذا أتيت بلداً من سويسرة ، وسويسرة بلاد جبلية قليلة السكان ، راقك منه بناء مشيد ، ومصانع منتشرة فى جميع أرجائه ، ومرافقُ شتى ، وطرقٌ نظيفةٌ واسعةٌ مستقيمةٌ ، يتعاقب فيها ضوءان ، ضوء من الشمس ، وضوء من المصابيح ، بحيث يسهل جَوْبُها ليلاً ، كما يسهل تَطْوافها نهاراً . واذا أزمعت سفراً من ذلك البلد ، لم تجد فى السفر كلفة عليك ، فما هو إلا أن تريد ، فتركب القطار ، فتسافر ، فتصل إلى مقصدك . واذا انتهى بك الطريق الى جبل من جبالها الشامخة . وجدت أثر الزارع ، ويد الصانع ، فى سفح ذلك الجبل ، حتى تبلغ ذِرْوته .

أما إذا أتيت بلداً من مُراكش ، وما مراكش بأقل سكاناً ولا أدْوَن خصباً من سويسرة ، رأيت مساكن غير طيّبة ، ترصفت على غير نظام ، وطرقاً ضيقة مُعوجة ، تمْسِكُ بقايا المطر حيناً ، كما كان يرى فى طرق القاهرة من قبل ، بحيث إذا عن لك جوازُها نهاراً ، تجشمت المشاق ، بَلْهَ جوازها فى ليـلة ماطرة ، احتجب قمرها وتوارت نجومها . وإذا عرضت لك نقلة إلى مكان آخَرَ نَاءٍ ، اكتريت بغلاً أو حماراً ، وسرت أياماً ، ينال منك النَّصَب ، ويُرَوِّعك خطرُ الطريق . هذا بأن الإنسان الذى قطن فى سويسرة ، عَمِلَ وجدَّ ، على حين أن الذى قطن بمُراكُش ، أهمل وتراخى .

قد جرت سنة الله، أن تُسْبَق المطالبُ بالمتاعب، وتُلْتَقَط الراحةُ من النَّصب، كما قيل: « إن أردت ألا تتعب، فاتعب لئلا تتعب ».

وهب الله للانسان، فى عقله وجسمه، قدرة يَطْرُق بها أبوابَ الخير، ويستفتحُ بها السماء فى التماس رزقه، وقد قال عمر رضوان الله عليه « لا يَقْعُدَن أحدُكم عن طلب الرزق، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ».

سهل الله تعالى للمرء من الخير، بمقدار ما أفاض عليه من تلك القوة، فلا يحل له أن يَذَرَ إعمالها، ويسأل الرزق بلسان العاجز الكسلان، كما لا يحل له أن يُعَطَّل منها.

ولم أَرَ فى عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

إن العامل الذى رزقه الله قوة يقتدر بها على السعى لتحصيل أربعة دراهم، لا يحل له أن يبذل منها بمقدار درهمين. والطالب الذى يستطيع تحصيل عشر مسائل، يظلم نفسه إذا رضى منها بخمس. وعلى كل امرئ أن يجمع قواه فى كسب ما هو مُيَسَّر له؛ ومن لم يفعل، كان مثله كرجل يملك بيتين، يَغْتَلُّ واحداً منهما ويَدَع الآخر لا ينتفع به. هذا سفه.

وهب الله تعالى للانسان هذه القدرة، وجعل له أن يصيرها إلى ما يشاء، فإن شاء جعلها ذهباً وفضة، وثروة طائلة، وبات فى عداد الأغنياء. وإن شاء جعلها علماً، وأضحى فى عداد العلماء، وربما أضحى فى عداد الولاة والأمراء. لئن كان للكيمياء إكسير، إن هذه القدرة إكسير الكيمياء، أو كان للكنز كما يقال رصد، إن هذه القدرةَ مفتاحه. نعم هذه القدرة هى إكسير الكيمياء، ومفتاح الكنوز؛ فعوّلْ عليها، ودع قول المغاربة والكتب العتيقة. هؤلاء العلماء، وكلهم كانوا أطفالا، أخرجهم الله من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وجهوا هذه

القدرة ، والقدرة هى الوسيلة الحقة الى كل شىء ، إلى العلم ، فأصبحوا علماء . وهؤلاء الأغنياء ، الذين لم يرثوا المال عن أب ولا أم ، جدوا فزايلوا الفاقة ، واستولوا على ثروة واسعة ، بإعمال قدرتهم ، والقدرة هى الوسيلة الحقة إلى كل شىء .

فالمنشاوى باشا ، كان مبدأ أمره فى عمل صغير لا يملك غيره ، فجد حتى صار إلى ثروة طائلة ، وترك ميراثاً منه بضعة عشر ألف فدان . والناضورى ، ذلك التاجر الشهير بالاسكندرية ، الذى أتى على موته بعض سنين ، كان مبدأ أمره أجيراً ، ثم جَدَّ حتى صار فى ثروة واسعة . وويصا بقُطْر ، المثرى الشهير بأسيوط ، كان غلاماً فقيراً ، لا يملك شيئاً . وسوارس الذى ترى من ثروته آثاراً فى كل طريق ، كان غلاماً يتيماً فقيراً . وعلى باشا فهمى ، الذى مات قريباً وخلَّف أموالاً جزيلة ، كان فقيراً ، وصار إلى ما صار إليه بالجد ؛ ولكننى لا أرضى لك أن تكون بخيلاً كبعض هؤلاء . وما أحقر ثروة لا تُشَاطِرُ فيها المروءة والحمد !

إنك مسئول عن جدِّك لأمرين : أما أولهما ، فان الكمال من حق نفسك عليك ، وما أنت ببالغٍ الكمالَ إلا بالجد ، كما لا تستطيع أن ترقى بغير سُلَّم . وأما ثانيهما ، فإنك مُطَالَب لقومك بالعمل ، لأنك تجد سعادتك فى أعمالهم ، فعليك أن تعمل لهم عملاً يجدون فيه سعادتهم ، حتى لا تكون وضيعاً صغير النفس ، يستحل شىء غيره ، ولا يعوضه عنه ما يستطيع .

لُودُن النباتى ، كان غلاماً لبستانى ، وكان يدرس ليلتين فى الأسبوع ، حتى تعلم اللغة الفرنسية ، وترجم سيرة شهيرة ، قبل أن يبلغ الثامنة عشرة . ولما بلغ العشرين من عمره ، كتب فى مفكرته : « الآن قد بلغت السنة العشرين ، وربما كان ثلث حياتى قد مضى ، فما هو العمل الذى عملته لإفادة بنى نوعى ؟ » فعسى أن تجد أيها الطالب من نفسك هذا الشعور الحق ، ولو بعد وصولك إلى ضعف هذه

السن ! إن الطبقات المختلفة من هذه الأمة ، ليس لها آثار تدل على جد ونشاط ، لا تفضل طبقةٌ منها الطبقةَ الأخرى . هذه طبقة الزراع واقفة فى مكان لا تتجاوزه صنوف من المزروعات محدودة ، وطرق لزراعتها مألوفة ، لا تتخطاها ، ولا تصلح منها شيئاً . وهذه طبقة الصناع ، فى يدها بقايا وَرِثُوها عمن قبلهم ، عاكفين عليها يعملون فيها عمل الآلات التى فى أيديهم . بل هذه طبقة المشتغلين بالعلوم والنفوس ، لا يَفْضُلون من قبلهم . تبلغ كل الأطفال أشدَّها وعلومُنا ومعارفُنا وطرقُنا ، لم تزل بعد فى عهد الطفولية . وبالجملة ، فالروح الضعيف العام السارى فى مجموع الأمة ، ظاهر فى كل طبقة من الطبقات ، كالنهر تتصل به جداولُ صغيرةٌ فيبقى سطح الماء فى جميعها على ارتفاع واحد .

أيها الناس ! إنكم إلى قول الحق ، وتنبيهكم إلى مواضع نقصكم ، أحوجُ منكم إلى المدح والنفاق . وإن الذى ينبهكم بنيـة سليمة إلى مواضِع نقصكم ، إنما يبغى صلاحَكم . أما الذى يبحث عما تَرْضَون عنه ، ولو اختلط بالنفاق ، فإنما يبغى صلاح نفسه . إن الكسل أفسدَ فينا كثيراً ، فعلينا برَأْبِ ما أفسده فينا الكسل .

إن كان الفتور ، والاكتفاء بتحصيل الصور الظاهرة ، مما لا يلام عليه الذين يعملون فى المادة ، كالصناع ، لَوْمًا موجَعاً ، فما أشنعها ذلة أن يكون الاكتفاء بالصور الظاهرة ، يقع من الذين يعملون فى العـلوم وتقويم النفوس !؟ فإن هؤلاء غير مسئولين عن صورٍ وهيا كل ، إنما هم مسئولون عن الروح السارى فى الأمة .

لتكن أعمالُنا حيَّةً باستقلالنا وروحٍ منا ، وإلا كنَّا ممن يكثر الحزَّ ويخطىء المَفْصِل . لا نكون كإخواننا الأزهريين ، يعملون كثيراً وليس لعملهم أثر . ذلك بأن روح الاستقلال السارى فيهم غيرُ كاف .

إن الأمة ، مع ما مُنِيَتْ به من قلة الأعمال ، وضعفِ الروح فيمن يعمل ، ابْتُلِيت بكثيرين لا عمل لهم ، فى ذواتها الذين تكلمنا عنهم فى الصبر .

وأنواع الشحاذين ، ما بين سائل ، وزامر ، ودفاف ، وقائد لقرد ، وكلهم شحاذ ، هؤلاء جميعهم لا يعملون شيئاً ، ويشاركون الناس فى ثمرات أعمالهم . يُلْقُون أوزارهم على كواهل العاملين ، والعاملون لا يستطيعون النهوض بأنفسهم ، فهم كما يقال فى المثل « إن ضج فزده وِقْرا » .

أن هؤلاء الأعطال ، لا ينبغى شرعاً ولا عقلاً مدُّهم بشىء ، بل يجب الصدُّ عنهم ، وتركُهم تتخطَّفُهم الفاقة ، حتى يذوقوا من بطالتهم آلاماً ، كما يأتى فى السخاء إن شاء الله . إن فى ترك العمل ، وعدم الجد ، مضارَّ كثيرة ، والمرء الذى لا يأخذ بالجد ، يظلم نفسه ، ويظلم الناس الذين يعيش معهم .

بالبطالة يُخْمِد الرجل جذوةَ فكره ، ويعوّد جسمه الترَفُّه والعجز ، فلا يجد منه خادماً صالحاً .

فى الطبقات ، من رواية البخارى ومسلم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ من الكسل ، وعن على رضى الله عنه أنه قال : « أنى لأرى الرجل فيُعجِبُنى ، فأقول : أَلَهُ حرفة ؟ فان قالوا : لا ! سقط من عينى »

وقال بسْمَرْك يوماً فى مجلس النواب « لا نعُدُّ الرجلَ ، ليس له عملٌ ، كاملاً »

إن القوة البهيمية تخرج بالعاطل عن الاعتدال ، فيصير إلى الفساد ، ولا سيما إذا وجد له عَضُدا من شبابه وماله .

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَه مَفْسَدَةٌ للمرء أيُّ مفسده

يَبِينُ لى أن أكثر الشرورِ التى تقع ، يُسْعِر لظاها الأعطالُ ، فاذا بحثت عن سيرتهم ، رأيت المستقيم منهم نادراً أو مفقوداً .

ولا يفوتنا تخصيصُ أقراننا بخطاب : فأنتم أيها الإخوان خريجى دار العلوم ! قد شدّت بكم اللغة العربية أزرها ، ووجدت منكم ملجأً لها فى المدارس ، وأصبح شبان الأمة بعنايتكم يعرفون لغتهم على وجه مناسب ، وكثر فيهم الكُتَّاب . ومن أراد أن يغمط حقَّكم ، ويحُطَّ من شأنكم ، فليقابل بين الشبان والكهول الذين تعلموا فى عهدكم ، وبين الشيوخ الذين تعلموا فى عهد سلفكم ، فانه لا يجد بداً من الاعتراف بما لَكُمْ . نعم يؤخذ علينا بعد هذا ، أن عدداً مِنّا لا يُعْنَى يبسطة علمه . يجِدُّ عند ما يُتِمُّ دراستَه فى إجادة ما يلزم للتعليم الابتدائى ، من القواعد والأمثلة ، حتى إذا علَّم السنة الرابعة بكفاءةٍ تروقه ، أو كفاءة مّا ، أسند ظهره ، وألقت عصاها واستقر بها النوى .

يقتل عددٌ منا زمنه بالجلوس فى القهوات ، وسط العامة ؛ وبعضنا يؤدى عمله كما تؤدى الآلاتُ عملها ، لا يعنى إلا بانتقال الدرجة وزيادة الراتب . إنه ، ليس كل واجبنا فى أن نعطى قواعد النحو ، سهلة مقربة لأذهان التلاميذ ، مُجلّاة بالأمثلة والشواهد !

إذا فتشنا عن المطالبين أمام الله تعالى لأمتهم بتهذيب نفوس أبنائهم ، وبث الفضيلة فيها ، وغرس مبادىء الدين حتى تثمر ثمراً طيباً ، لا نجده غيرنا .

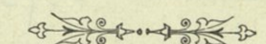
واذا بحثنا عمن فى عنقه تهذيبُ قواعد اللغة العربية ، لا نجده غيرنا . واذا بحثنا عن المطالبين باصلاح مؤلَّفاتها وبَعْثِ روحٍ من النظام فيها ، لا نجده غيرنا .

بل إذا بحثنا عمن هو المطالب بإصلاح نفوس العامة ، قدرما يتيسر ، ووضع الكتب المناسبة المقومة لأخلاقهم ، لا نجده غيرنا . وانه لا يتيسر لنا جميعاً الكمال إلا إذا ثابر أفراد منا على دراسة اللغات الأجنبية ، حتى نترجم ما نحتاج إليه ، ونحن محتاجون إلى كل شيء .

قررت نظارة المعارف جعل التعليم باللغة العربية ، وهو مشروع إذا استقبله التجار مثلاً بأَحْسَنَتْ ، لا يجوز أن نجلس معهم فى القهوة ، ونقول مثل ما قالوا ، بل يجب أن نَشْعُرَ بالواجب الذى ألقاه هذا القرار على كواهلنا .

يجب أن نشعُر بالواجب الذى نطالب به لهذا الجمهور الذى يسعى فى خدمتنا ؛ وإلا فما أحرانا ونحن جلوس على القهوات فى قتل أوقاتنا ، بأن يسخر بنا هذا الجمهور ، وينظر إلينا نظره إلى أحقر الصناع !

أما أنتم أيها الطلاب ! فان ما أنتم فيه من الجد ، لا يُطلب من المرء أكثر منه ، ولكنى أَلفِتُكم الى قرن هذا الجد بالاستقلال ، فان الاستقلال روح العمل . وعسى أن ترفعكم من بعدُ همةٌ عاليةٌ عن قتل أوقاتكم على القهوات ، بمعزل عن واجباتكم ؛ وعليكم بالسعى فى نفع الناس والمحافظة على الوقت ، إن الوقت نفيس .



النظافة

إذا كان الظالم يصير إلى الظلم لما يجد فيه من شفاء النفس ، والكذاب يصير إلى الكذب لما يرى فيه من جلْب منفعة أو دفع مضرة ، فما هى الثمرات التى يراها الوَسِخ من وسخه ، غير أنه لا يرى ؟ ! وما هى الفائدة التى يشعر بها غير أنه لا يشعر ؟ !

إنه لا يستطيع أحد أن ينازع فيما وصلت إليه الطبقةُ المتعلمة فى الديار المصرية من النظافة فى هذه السنين . كنت فى سنة ١٢٩٨ هجرية تلميذاً بمدرسة الجمالية ، فكان تلاميذ المدارس حينئذ أقلّ نظافة من تلاميذ الكتاتيب الآن . كان بعضهم يأتى إلى المدرسة وفى رجله قبقاب ، وبعضهم يجىء غير منتعل ، وأذكر من هؤلاء الحُفاة تلميذاً اسمه جوهر ، لم يكن ينتعل فى السنة يوماً ، وكان للوَسَخ أثرٌ أسودُ على ظهر قدميه ، لم يفارقْ بعدُ مرآهُ ذا كرَتى على ضعف فيها ، وسيبقى عالقاً بها . وقل فى طرابيشهم وثيابهم ونعالهم من البِلَى والتباين ما تشاء . أما الآن فانك لا تجد مثل هذا فى الكتاتيب ، كتاتيب نظارة المعارف . وإن التقدم فى النظافة قد سار سيراً حثيثاً . غِبتُ عن مصر أربع سنين ، وعدت إليها من سبع سنين ، فرأيت فى النظافة والأزياء تقدُّماً أىَّ تقدُّم .

إن مخالطتنا للأوربيين ، وهم بلا شك أنظف منا ، أثَّرَتْ فينا تأثيراً حسناً ؛ كما أثرت فينا مخالطة الترك ، الذين ينبغى أن يعزى إليهم ، خصوصاً ، إصلاحُ بعض بيوتنا ، لاشتداد اتصالهم بأُسرتنا . إن كان الترك يبعدون فى استقامة الذوق عن الأوربيين شيئاً ، فإنهم ، قدرَ ما أعرف ، يماثلونهم فى أمر النظافة أو يكادون . ولكن رغم هذا بقيت الأسرة المصرية متأخرة فى أمر النظافة ، وان كثيراً جداً

مما يكدر السِّلْم فيها ، مسبب عن إهمال شأنها . نعم ، إن المرأة تهتم بأمر النظافة ، وتحسبها بحق من قبيل الزينة التى هى مولعة بها ، ولكن هذا الاهتمام أو الحسبان راجع إلى نظافة نفسها فقط . والمرأة النظيفة فى ذاتها ، كثيراً ما تؤخذ عليها أمور فى نظافة منزلها وأولادها .

وإن سوادَ الناس ، وهم لم يخالطوا الترك والأوروبيين ، لعلَى تقهقر يظهر فى صوَر شتى !

عيوب مطاعمنا (لوكانداتنا للأكل) ليست رداءة اللحم ، ولا سوء الخضار ؛ إنما هو الوسخ . عندنا كثير من المطاعم ، ومحالّ الأكل المختلفة ، ولكن النظيف منها معدوم . المحل ، والخادم ، والأدوات ، يبارى بعضها بعضاً فى الاتساخ ، « وإنّ الشِّراكَ قُدَّ من أديمه » . لا يستطيع نظيفٌ أن يصيب من الأكل فى هذه المحالّ ، وإن أغمض فيه . وإذا اشتهر عندنا صانع بنوع من الطعام ، لا يجد على شهرته إقبالاً ، ولا ينال من الربح ما يقتضى اسمه . إن داءه العُضال ، والعقبة فى طريق الناس إليه ، هما بُعْدُه عن النظافة ، وزُهده فى الترتيب .

لا يستطيع واحد من أغنيائنا أو متوسطينا ، أن يجهز وليمة يُعنى فيها بالنظافة ويراعى الترتيب ، إلا إذا وكلَ الأمر فيها إلى عمال من الأوربيين . ما أحوج الناس إلى النظافة والترتيب ! وبالجملة ، إن الطعام الذى لا تمسه صناعتنا ، أشهى إلى النفس وأقرب إلى الصحة .

باعةُ الشراب عندنا كالخروب ونحوه ، يُعْرِضُ عنهم النظيف على عطش . يلبس واحدهم غالباً لباساً قذراً ، يحمل عليه فوطة مثله ؛ ويداه ورجلاه ، وقلما تُكنهما نعلان ، لا تخلو من وسخ . ويحمل آنية فيها الشراب ، وفى إحدى يديه أكواب أو كيزان لا تسكن حركتها ، ولا تهدأ صلصلتها ، بصوت لا ينفتح له سمع ، ونغمةٍ

لا يعتريها تغير ؛ وفى يده الأخرى إبريق من الصفيح صغير ، ربما وَسِعَ رطل ماء ، يغسل به الأكواب لمن يحتشمه . فاذا استسقاه أماله فى الكوب أو الكوز ، حتى يكاد يجعل عاليه سافله ، إلى أن يسيل من بلبله الدقيق دراهم فيه ، فيرُجه بذلك الماء رجًّا هيناً ، يأتى على بعض سطحه ، اجتزاء شافعى فى مسح رأسه للوضوء ، ثم يرمى بمائه إلى الأرض ، وقلما يسمع له رِكز ، ثم يعدُّه للصب فيه ، ويسلط عليه القِدْر حتى يفيض على يده ، ويكون للأرض منه نصيب . إنه فى يدٍ موفقة للاتساخ ، لا فى يدِ كريم . ويناولك إياه ، والشراب يتقاطر من كليهما ، ولولا مدٌّ يدك إلى الأمام مدها للسلام ، وانحناؤك للاصابة منه ، لأصاب لباسُك منه قبلك ، يفعل هذا ، وزميله الأوروبى أمامه ، وبين يديه نحو عَجلة صغيرة مقفلة ؛ أما باطنها فقد تضمَّن الماء النقى ، وأما ظاهرها فقد رصف عليه الأكواب ، إلى ما يستدعيه إتقان عمله .

قهواتنا لا تصلح للجلوس ، ليس لأنَّ بُنَّها ردىء ، ولا لأن ماءها من غير ما فى أيدى أنظف الناس ؛ داؤها العضال الاتساخ . المحل غير نظيف ، والأدوات لا تكفى نظافتها ؛ واذا نبَّهت الخادم ، بادر إلى تنظيفها ، بيدٍ أحوج منها إلى النظافة . هذا إذا صح فى ذهنه ما تقول ، أو احتشمك ، وكثيراً ما ينكره عليك .

الفنادق عندنا ، لا يلجأ اليها إلا مضطر ساقته الحاجة ، داؤها العضال اتساخها . إذا جُعِلَت (اللوكاندة) أو الفُندق فى بناء جديد ، فما هو إلا زمن قصير حتى ترى البناء قذِراً ، يسبح فيه البق ، وتهتدى اليه العناكب ، كأنما أتت عليه أحقاب من الدهر . ومثل هذا يقع أيضاً فى بيوت بعضنا ، ولو قصوراً مشيدة ، حتى لا يستطيع خِدْنُ النظافة اضطجاعاً على فراشها ، إلا إذا بسط عليه شيئاً .

خادمونا وخادماتنا فى منازلنا ، من عيوبهم التى لا تغتَفَر ، الوسخ . فما هو إلا

ريثما تقل عناية أصحاب البيوت بالنظافة ، ويهملون قليلا فى قيامهم عليها ، حتى يعود المنزل كاللوكاندة الحسينية أو الزينبية .

إن كثيرين منا يستخدمون الأوروبيات بالأجور الغالية ، حتى يريحوا شعورهم بما فيهن من النظافة ، بَلْهَ حسن الترتيب . نَتَّهِمُ أولئكم بالتفرنج ؛ فنحن ظالمون وهم معذورون . إنهم يَقدرون النظافة حق قدرها ، وتُنيلها أنفسهم النقية عناية .

إنك تجد الأحياء الوطنية ، بيوتها وطرُقها ، سواء فى القاهرة وغيرها ، دون الأحياء الأوروبية . فاذا نظرت إلى جهة الباطنية وما يضاهيها من الجهات التى نحن قُطَّانها ، وجدت خارج البيت وداخلَه يَنُمُّ على اتساخه ، وفى أول ما ينُمُّ عليه بَقُّه وبراغيثه . إن كان سكان هذه الأحياء ، لفقرهم ، لا يستطيعون أن يُصْلحوا منازلهم كلَّ الإصلاح ، فلا يعجزهم أن يزيلوا ما يعلَق بشبابيكها ، وينظفوا سقوفها وزواياها من التراب والعناكب ، التى تهتدى اليها اهتداء القطا ، ويوالوُا غسلها بالماء ، ويُجَنِّبوا صحونَها القذَر الذى يُطْرَح فيها . ألست تجد فى هذه الأحياء ، أن الطرق التى ليست حافلة برجال الشرطة ، وإن كانت حافلة بالسابلة ، يقضى الناس فيها حاجاتهم ، قياماً وقعوداً ، على مقربة من الجوامع المنتشرة فى تلك الأحياء ، وفيها تكثر المرافق (المراحيض) ؟ ! أليست القطاط أهدى إلى الصواب ، وأقرب إلى النظافة ؟ ! كثرَت الكتابة على الُجدران بكَفّ الناس وهم لا يكُفون ! ألم تك هذه الكتابات الكثيرة شاهداً على تساهلهم فى أمر النظافة ؟ ! إنما كان ترديدُ البَبغاء عندنا لألفاظ السّب ، شاهداً على تساهلنا فى آداب القول ، وأن الهُجْر أَعْلَقُ بألسنتنا !

إذا حضرت احتفالاً ، كالجمعة ، عثر بصرك فى ألوان من التساهل . فمن سائس حاضر الاحتفال بحاله ، كما كان يغسل الحصان ؛ أو نحاس تشهده كما كان يستدير

فى طشت أو غطاء ليجلُوَه قبل عرضه على النار؛ أو مجلد يجىء اليه كما كان، وعلى حجره قطع الجلود الملونة الندية! ولا يخطر ببال واحد من هؤلاء، أن الذى خاطَبنا بشهود هذا الاحتفال، خاطبنا بأن نغتسل له، ونذهب اليه فى الثوب النظيف! هذا إلى أن الجامع قد يكون قَذِراً، وحصيرُه بالياً وسِخاً، وللطير عليه أثر غير حميد، كجامع الدرب الجديد، بقرب السيدة، ساقنى إلى الصلاة فيه قُربه من منزلى.

أما فى القرى فيلق كل قذر يخرج من البيوت بينها، ويبقى السَّنَة والسنتين، حتى يصير كثبانا، ويا ليتها كانت من الرمل! وتطيف بالقرية المياه الآسنة، وتتخللها، وآونة تختلط بها مجارى الجوامع. وهناك تُبْنَى البيوت بغير مرافق إلا نادراً، ويقضى الأولاد حاجاتهم فى الطرق. وأكثر الناس لا ينتعل، وبعض هؤلاء ينتعل يوم الزينة. ألم تر إلى الناس، وخصوصاً هناك، يرون عدم استعمال الماء شفاء من أمراض كثيرة؟! يعالجون به الجراح! ومن البين أنه لولا تنظيف الجراح لسارع إليها الفساد، والرمد! ومما يغمس فى العجب، أن بعضهم يُضيف إلى العلاج روث الحمير، والعين عضو لطيف، ينبغى أن يجنَّب القذر والا سارع اليه الفساد! ولو نظرت إلى عيون الذين يشتغلون فى المرافق يطهرونها، لأيقنت بصحة القول! ويعالجون به الحصبة، ويجعلون اتساخ الأولاد ترساً يرد عنهم كل حسد؛ ولو كانت وظيفة العين الحسد، لا الإبصار، لكانت أبقى عليهم من هذا الاتساخ الممقوت. إن الناشئين، وخصوصاً هناك، لا يعرفون شيئاً من أمر النظافة. وحسبك ما تراهم فيه من رمص العينين، ودنن الأنف، وتناول القذر لجميع وجوههم، وسقوط الذباب عليها! وإن أحدهم ليُحْمَل على غسل يديه، كما يحمل الكريم على نقيصة! وإنه ليساق إلى الاستحمام، كما يساق إلى الموت! إنه لم يعوَّد النظافة!!

لا يستطيع متأمل أن ينكر أن الأوساخ تفسد الجلد، كما يفسد الصدأ الحديد.

كنت وفى عهدتى تفتيش الكتاتيب ، كتاتيب نظارة المعارف العمومية ، أجد أن كل كُتَّاب منحط فى النظافة ، يوجد فيه قرع ؛ وكان هذا المرض يَبين فى أبشع صورة فى القرى ، وخصوصاً فى الوجه القبلى ، لأن نظافته أقل . وفى ظنى أننا لو اطلعنا على إحصائيات للأمراض المقترنة بالاتساخ ، لعلمنا من أنفسنا تقصيراً أىّ تقصير !

وبالجملة ، فان اختطاط الدور فى القرى بلا مرافق ، وعدم انتعال أهلها ، وأكل الناس فى آنية واحدة ، خصوصاً السوائل ، بلا مبالاة بأن هذا الآكل نظيف وذاك وسخ ينبغى تجنبه ، وشربهم كذلك ، ونحو التمسك الشديد بالميضآت يبصقون فيها ويمتخطون ، ويغسلون وجوههم وأفواههم ، بله التبرك بها فى الموالد، على زيادة قذرها ، وعدم الرضا بأن تبدل منها الحنفيات أو الصنابير فيما يقولون ، وأمور أخرى لا أسميها ، — كل هذا يدل على أننا لم نزل بعد فى طور البداوة ، أو قريباً منه ، وأننا لم نُعْمِل فى سبيل النظافة أقدامنا إعمالا يذكر .

ليس ينسى الكثيرون ذلك الجدل العنيف ، الذى قام بشأن الحنفيات والميضآت ، كما لا ينسون أن سواد الناس وقادتهم من المشتغلين بالعلم ، كانوا على اختيار الميضآت. إن القول بأن الميضآت أخلق بالاستعمال من الحنفيات ، كالقول بأن سربال الطباخ أنقى من مرآة الغريبة ، وأنظف من قلب المؤمن ! فى ظنى أن الدين لا ينظر إلى أمر الآنية أو اللباس مثلا ، إلا بنحو إرشاد عام ، كاختيار ما هو أنظف ، أو أقرب الى الحشمة ؛ ولكنها الحضارة تُحل هذا اليوم وغداً تصيب خيراً منه ، فتحرم القديم وتحل الجديد !

نتج من عدم نظافتنا أمور : أن ضاق الرزق على كثير منا فى بلاد رزقها واسع ، وساء حال الذين يحترفون بعمل الأطعمة ونحوها ، وحاربَنا كثيرٌ من الناس

فى ديارنا فانهزمنا أمامهم ، هزمنا الاتساخ وسوء الترتيب فى كثير من المواطن ، وابتلينا بالأمراض نحن وأبناؤنا الذين وقعوا تحت رعايتنا ، وتكدر السلم فى أسرنا أونة وأحياناً كثيرة ؛ كل هذا لأننا ما رعينا النظافة حق رعايتها .

خِزْى وعارٌ على أمّة القرآن أن يكون قسطها من النظافة هكذا ! وقد جاءها الدين الاسلامى من أكثر من ألف وثلثمائة سنة مفعماً بها . حكى الغزالى عن النبى صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة » . ويروى « النظافة من الإيمان »

وليس هذا كل ما جاء به الدين الإسلامى فى النظافة ، بل هناك باب الطهارة ، باب كبير لتفصيل أمور الطهارة والنجاسة . وليس معنى الطهارة إلا النظافة ، ولا النجاسة إلا الوسخ ، إلا ما كان تعبُّديا . ألا ترى كيف تجرى الطهارة على لسان الطب ، بدل النظافة ؟ ! هذا بأن الطهارة تشعر بنظافة أدق ، وهو ما يريد الطب .

فرضت الشريعة على كل مسلم أن يطهر ثيابه ومكانه من النجاسة ويتوضأ ، وإلا فلا عبادة له ، أليس معنى الوضوء أيضاً النظافة ! خاطَبَتْهُ بنقاء نفسه وثيابه من كل ما يستقذر فى جميع الأوقات ، مع التشديد فى أمر المستكره منه ؛ وَجعلَتْ عليه أنواعاً من الاستحمام والوضوء ، وغسل اليدين والفم ، وترجيل الشعر ومَسّ الطيب ، خصوصاً عند شهود الاجتماعات ؛ وأرشدتْهُ الى السواك لتنظيف الفم فى كل حال ؛ كما أرشدته الى مواضع تغيب العناية بها ، كداخل الأذن وتحت الأظافر ؛ وكما أرشدته الى قص الزوائد ، كتقليم أظفاره . ومن أراد الوقوف على التفصيل فليرجع الى كتاب من كتب الفقه ، كالإحياء للغزالى ، فانه يجده فى الجزء الأول منه .

والذى يهمنى أن أقول إجمالاً : إن الدين الإسلامى دين النظافة ؛ وإنه يشمئز جداً من الوسخ ويطلقه على الخبيث ، كقوله تعالى : إنما المشركون نَجَس ؛ وَيهَشُّ الى الطهارة ، ويطلقها على الطيب من كل نوع . وآيات التنزيل حافلة بهذا .

وإنى ، مع امتلاء نفسى بأن الدينَ دينُ النظافة ، التمست آياتٍ صريحةً من الكتاب العزيز فى شأنها فلم أقع عليها ، فكلفت الحافظين المشتغلين ، فلم يهتدوا إلى شىء ، فامتلأ فؤادى عجباً ! ولما أُلقىَ فى نفسى أن الطهارة والنظافة شىء واحد ، كما أن النجاسة والوسخ شىء واحد ، خِلْتُنى أتيت بجديد لم يَهْتَدِ اليه مَنْ قبلى ! والأمر بديهى ، خصوصاً لمن كان مجاوراً مثلى ، لولا تعليم لا روح فيه !

إن تعليمَ كثير من أمور الشريعة فى الأزهر جافٌّ وجامد ، وإنه إلى إماتة النفوس أقرب منه إلى حياتها ، والى العبث بهذه النفوس البشرية أقرب منه إلى صلاحها . لا أطيل الآن ، وإن كان للقول مطرح ، وأكتفى بإبداء رأيى ، عسى أن يكون صالحاً فى تعليم هذا الباب ، باب الطهارة .

أولاً : توجيه الطالب الى أن الطهارة هى النظافة التى تعرفها على حال أدقّ ، حتى يتصل ديننا بحال من أحوالنا ، وحتى إذا مر بمسائل الباب نظر اليها نظراً صحيحاً نافعاً .

ثانياً : كمال الطهارة فى الدين الاسلامى ، وسَبْقُه فيها على الأديان الأخرى ، حتى يرسل الدينُ جذره فى نفوس الطلبة إرسالاً ، وحتى يقيموا منه لأنفسهم وغيرهم ، إذا اقتضى الحال ، حجةً عملية قوية . فعصر اليونان الذى كان يسبح فيه الخيال ما شاء — تَقَضَّى ، وهذا عصر أوروبا وأمريكا ، يقتضى نظاماً آخر .

ثالثاً : النظر فى ثمرات الطهارة ، ومضار النجاسة .

رابعاً : عرض الفروع التى أتت فى الباب مع آراء العلماء فيها للبحث النافع ، مع النظر فى بقية أصول الباب ، كما به يكون التطهير .

خامساً : إعارة أحوال الناس لَفتةً ، حتى يرتبط الدين الذى نتعلمه بالعالم الذى نعيش فيه . فإنه ما دامت الصلة قويةً بين عِلْمنا وعَمَلنا ، سرى فينا حقيقةً روحٌ طيب ، وتم لنا من الخير ما نحاول .

الانتظام

ليس الانتظام ، كما قد يتوهم كثيرون ممن لا يعيرون الأشياء من النظر حقها — أمراً راجعاً إلى إبراز الأشياء فى صور مزخرفة ، تسر الناظرين ، وتخلب عقولهم ؛ بل يرجع إلى حسن تقدير الأشياء وترتيبها ، كما ينبغى ، وذلك واجب ضرورةً فى كل شىء . الشخص ، والأسرة ، والمدرسة ، والحرف والصنائع ، والأمة ، كل أولاء يجب أن تبنى أمورهم على أساس متين من الانتظام ، وإلا اختلط بها الفساد.

أما انتظام الشخص فيرجع إلى ترتيبه فى ذاته ، كاستواء أعضائه ، وصحة وضعها فى حركة أو سكون . وإن كثيراً من الرزايا ، التى يتجشمها المارة بمرأى منك على السبيل ، من تردٍّ فى حفرة ، ومصادمة جدار ، وتصد للكهربائية تصنع ما شاءت الأقدار ، حاصل من الغفلة عن الانتظام . وإن المتعرضين غالباً لحوادث الطريق ، وما إخالنى مخطئاً ، من المعروفين فى أحوالهم بعدم الانتظام . فذلكم أعدى الناس إلى الخطر ، وأهداهم إليه . وكذلك ترتيب لباسه ، فلا يجعل الجبة طويلة فوق الحاجة ، وإلا تعثَّر فيها وتَمَسَّك بأذيالها الثرى ، وقادَها إلى البلى. إن عدم الانتظام فى اللباس مناف للاقتصاد ، مناف للحشمة . فمن قدم عليه رجلان لا يعرفهما ، هذا منتظم فى لباسه ، وهذا غير منتظم ، وقَّر الأول وهان عليه الثانى ، حتى إنه ليحل بنفسه محل السخر منه ، والعبث به . وكذلك ترتيب قوله ، فلا يتكلم فيجمع بين الأرْوَى والنعام ، ويجعل الأول آخراً والآخر أولاً ، وإلا أتعب السامع ، وأفهمه أحياناً غير ما يريد ؛ فآناً يفوته غرضه من القول ، وآنا يدعى كذاباً . وترتيب عمله ، وإلا لم يفلته الإفراط أو التفريط ، ولم يلق راحة . وفى كتاب بَوُلْزِن:

من أخذ على الطريق بعد فوات ربع ساعة ، أخذه عامة يومه عذاب شديد .
وترتيب أكلهِ وشربه ، ويقظتهِ ونومهِ ، وإلا هزَل جسمَه ، وعدل به عن طريق الصحة ، والجسم خادم توحى اليه بأمرك ، فلا يستطيع خروجاً عن طاعتك ؛ وإذا مرض استحال صفوُك كدَراً ، ولم يصب بعض غرضك قضاء ، ولو اجتمع خدام الدنيا ، وكان بعضهم لبعض ظهيراً . وبالجملة ، فان النظام مطلوب من الشخص فى جميع أموره ، حتى فى الحركة يأتيها بيده ، والإشارة يأتيها بأصبعه .

وأما انتظام الأسرة ، ونعنى المنزل الذى تقيم فيه ، والسيدَ والسيدة ، ومن لهما من الأولاد والأتباع ، فيقتضى أن يتعهد المنزل تعهـداً مناسباً للأسرة ، من حين استئجاره ، أو ابتياع عرصته ، حتى يكون ترتيبه منطبقاً على جميع أحوالها ؛ وإلا كان كالسجون ، إنما يلبث فيها مضطر . كما يقتضى أن يؤدى الرجل ما عليه بترتيب صحيح وضبط ، كأن يحضر فى أوقات الأكل المقررة ، ويجعل أعماله على وجه يمكنه من أن يكون مع الأسرة وقت اجتماعها ، حين تتم الأم عملها ، ويرجع الابن من المدرسة ، والبنت من حيث تتعلم . إن على الرجل لأسرته لدرساً لازماً ، لا يحل له أن يضيعه ، وإن فى وجوده بينها لقسطاً لها من السرور وافياً ، لا يحل له أن يمنعه . إنه الراعى فيها ، وكل راع مسئول عن رعيته . كما يقتضى أيضاً أن تؤدى المرأة ما عليها للأسرة بترتيب ، فان المرأة هى المباشرة لجميع أمورها المنزلية ، والفطرة تحتم عليها ذلك ، وإن كان للرجل السلطان عليها ، وبيده زمامها . المرأة هى المربية للولد ، المرتّبة للمنزل ، المتصرفة فى الحاشية ، وإن ترتيب المنازل صورة من عقول السيدات العاملات . المرأة مع بيتها ، كرجل نوى سفراً مع صندوقه ، فاذا وضع فيه نعاله وطرابيشه وثيابه داخلاً بعضها فى بعض بغير ترتيب ، لقى كل نوع من الآخر صنفاً من التلف ، وساءت الصورة ، وربما احتاج الى شراء

صندوق آخر. أما إذا أحسن تقسيم الصندوق ، ورَص أنواع الملابس رصاً حسناً أَمِنَ تلفها وحسُنت صورتها ، ووسعها فراغٌ قليل . المرأة إذا عُنيت بترتيب أثاثها أصابت الأسرةُ بذلكم من الراحة والاقتصاد جانباً عظيما . إنها تستغنى بالقليل من الأدوات ، والضيِّق من الحجر ، والصغير من البيوت . يمكنها بواسطة ستائر من الخشب الجميلة مثلاً ، تقسيم رحبتها ، وحجرتها الكبيرة إلى أقسام شتى تتخذ كل واحد منها اتخاذ الحجرة ، وتعده لعمل خاص . إنها بواسطة ذوقها الصحيح ، وتصرفها الحسن وترتيبها الجميل ، تهب لأسرتها ، من وقت إلى آخر حُجَراً جديدة ومسكناً طَليًّا . إن كثيراً من الأسر الأوربيات التى يُشاقُّها الحظ ، والتى ينقاد لها أيضاً ، تستأجر مساكن تبسط فيها فرشها ، وتهتدى ، بحسن ترتيبها ، إلى الاكتفاء بالقليل من حجرها ، وتؤجر الباقى .

البيوت هى المدارس الطبيعية للبنات ، يقضين فيها حياتهن قبل الزواج أو أكثرها ، فإن لم تكن قائمة على صحة الترتيب ، أفسدت أذواقهن الفطرية ، وقلما يحصلن منها على ثمرة . إن كان فى (السنية) أو (عباس) اعانةُ البنات من بعدُ على أعمالهن بما يتعلمن من بعض الوسائل ، ففى البيوت نفس أعمالهن فى هذه الحياة وإن مِلاَكها الترتيب .

إن على المرأة شيئاً ، أهمَّ من ترتيب الأثاث ، وأعظمَ خطراً ، ذلكم تنظيم ولدها فى أكلهم وشربهم ، ويقظتهم ونومهم ، وراحتهم وعملهم ، حسبما يقتضى العلم الحق . ثم إن كان لها حاشية من طباخ وخدامين ، كان عليها الإشراف عليهم وردُّهم إلى النظام ، كلما جاوزوه أو حاولوه .

ويقتضى انتظام الأسرة أيضاً ، أن يؤدى الخادم عمله بترتيب ، وإلا ساء ما يعمل . فإذا كنت كاتباً فى ديوان ، وعليك أن تخرج من منزلك فى الساعة

السابعة والنصف ، حتى تدرك محل عملك من أول الوقت ، أخَّر ذلك الخادم الذى لا يَرْعى الترتيب تنظيفَ الملابس ، وألفيتك على الطريق تنظفها بمنديلك ويدك . إنه ليعمل ما لا يحتاج إليه الآن ، ويشتغل عن إجابة دعائك . وإنه ليقدم بعض الأعمال على أوقاتها ، أو يؤجلها إلى حين عودتك ، كترتيبك من الديوان ، فيردك بابك المغلق ، بعد تجربة فتحه ، والتماس المفتاح من مظانه ، ويصرفك الى قهوة أو دار صاحب ، تضيع فيها الوقت ، على حاجتك إلى الوقت ، حتى يعود ذلك الخادم . كما يقتضى أن يؤدى الطباخ عمله بترتيب ، وإلا آذى ضيفك ، وأخلف ترتيبك . فاذا كنت امرأ سريعَ الغضب ، سريع الجوع ، لم تلق من جوعك دون ما يلقى الناس منك . حتى البربرى الذى عمله فى الجلوس على كرسى عند الباب ، إذا لم يوفق إلى النظام ، لم ينج الناس من شره . فالمرأة التى يجب أن تنظر إلى ولدها آناً نظر طبيب ، وآناً نظر مُرَبٍّ ، والى منزلها وحاشيتها ، آناً نظر منظم صحيح الذوق ، وآناً نظر مُدَبر عارف ، لا تؤهلها معارف الأم الجاهلة لتأدية واجباتها . إنه من اللازم أن تجلس للدرس أمام المعلم .

وأما انتظام المدرسة ، فيتناول انضباط أمورها العامة ، كأوقات الذهاب اليها والخروج منها ، والعمل والفراغ منه ؛ ويتناول أخذ التلاميذ بالترتيب فى قولهم وفعلهم ، ودخولهم المكاتب وخروجهم منها ، وأسئلتهم واجابتهم ، وجميع أمورهم . ويتناول أيضاً ترتيب المعلمين لأقوالهم وأفعالهم ، فانهم القُدَى الصالحة للتلاميذ . ومما هو جدير بعناية المعلم ترتيب المسائل التى يقع عليها الدرس ، بأن يجعل كلَّ طائفة منها فى موضعه اللائق ، ولا ينصرف عن قسم الى آخر حتى يتم الأول ؛ لا أن يكون فيها كالذى يراوح بين رجليه ، يقر على هذه وقتاً ، ثم ينصرف عنها ، ثم يعود إليها . إن ترتيب مادة الدرس من أهمّ ما على المدرس ، ولولاه لم يكن

لأ كثر ما يُعلِّم التأثيرُ النافع فى صدور التلاميذ ، بل لولاه لم يفقهوا كثيراً مما يقول ، كما هو شأن بعض المدرسين فى تدريسهم . ان الطالب ليسمع المادة الخالية ، من الأمور الاصطلاحية ، فلا يجد غير ما كان يختلجُ فى نفسه ، ويثبتها بغاية السرعة ، لولا عقبات يجدها فى الطريق ، من سوء الترتيب ، ترتيب المدرس . إن الترتيب الصحيحَ عليه مُعوَّل كبير . أخذ بعض المعلمين تلاميذه الذين يعلمهم الإنشاء ، بكتابة هذه الجملة ، على غلاف كراستهم ، أول شىء يخطُّونه فيها (عليك بترتيب الفكرة ، وتسهيل العبارة) وكان يكلفهم أيضاً كتابتها على سبورات المكاتب ، فى حصص الانشاء ، بخط جيد واضح ؛ ومن وقت الى آخر ، يَطْرُق بها سمعهم ويَطْرِفُ بها بصرهم . وكان پلتى بك ، ناظر مدرسة المعلمين التوفيقية من قبل ، إذا دخل فصلاً من فصول مدرسته ، فوجد النظام سائداً ، وقف قليلاً ، وأحسن السلام على المعلم وانصرف . أما إذا دخل فوجد التلاميذ على غير نظام ، وقطع الورق منثورة فى المكتب ، أثر سوء النظام من قبل أيضاً ، وبخ التلاميذ ، وطالبهم برفع الورق ، وطلب الباب مُغضباً ؛ وان تكرر هذا من المدرس مرات ، سعى فى نقله من مدرسته . هذه قاعدة رأيت من پلتى بك شدة التمسك بها ، مدة إقامتى معه بالمدرسة التوفيقية ، من سنة ٩٤ الى سنة ٩٧ وإن قاعدة پلتى بك هذه مستقيمة كل الاستقامة ، فان المعلم الذى فى روحه الانتظام ، وان قل علمه ، أنفع للتلاميذ .

أتدرون أيها الطلاب ، لم كان تلاميذ المدارس الذين يتخرجون منها ، قبل أن تُنشأ مدرستكم هذه ، لا يعرفون من العربية غالباً إلا بعض الأسماء الاصطلاحية ؟ إن كثيرين من معلميهم كانوا من مدرسى الأزهر ، الذين هم ، وان بالغوا فى التدقيق ، مثلُ ما تعلمون من الانفضاض عن النظام والزهد فيه . وإن أ كثر ما ساعد

اخوانكم على أداء عملهم ، حتى كثر فى خريجى المدارس العارفون والكاتبون ، هو النظام . إن الانتظام أول الأوصاف التى تستطيع المدارس أن تهبها لتلاميذها ما دامت قائمة عليه ، فانه أمسُّها بها . فعليكم بالأخذ به فى جميع أموركم ، والتأمل فى قضاياه ، ولا يكنْ مبلغُ نظركم إليه نظرَ العامة الى صف من الجند ، مرتبٍ يسعى بين أيديهم .

وأما نظام الحرف ، فيقتضى الترتيب فى جميع أمورها ؛ فان كنت من العلماء أو طلاب العلم الذين تكثر كتبهم ، فعليك بترتيب كتبك ترتيباً نافعاً . ومن الخطأ أن تقيم بعضها على بعض بغير ترتيب ، أو تضعها فى صناديق كبيرة ، حتى إذا عرضت لك حاجةٌ إلى كتاب منها وقعت بين أمرين : فإما أن تلتمس الكتاب فتلقى منها تعباً ، وتُضيع زمناً ، هذا الى سرعة تلفها ، وإما أن تعرض عنه ، وتفوتك المسألةُ التى تطلبه من أجلها . وإن كنت مؤلفاً فعليك ثم عليك باستقامة الوضع وحسن الترتيب فى مؤلفاتك ، وإلاّ ساء السبيل إليها ، كما ساء سبيلٌ كب فيه الدهر بناءً لطول عهده . وازن بين كتابين ، كأقرب الموارد والقاموس ، تجد أن قليلاً من الدقيقة يكفى للعثور على كلمة فى الأول ، أما الثانى فانك أحياناً لا تعثر فيه على الكلمة الا بعد نحو خمس دقائق ؛ هذا بحسن الترتيب فى الأول وسوئه فى الثانى ، فان كنت ممن يشتغلون بالأمور اللغوية كثيراً ، سلبك القاموس زمناً طويلاً . أما خلو الكتاب من فهرس أو ترتيب يهدى الى السير فيه ، كالكامل ، فجاعله متصلاً بسبيل الاتفاق ، منقطعاً عن سبيل الحاجة ، إنما يقع نواله عفواً . وفى ظنى أن أوعر السبل الى ما فى بطون الكتب ، هى السبل الى كتب الفقه ، ففى كثير من الأحيان لا تلفى مذهباً لتحصيل المسألة ، إنما هو جولان فى المظان قريبة أو بعيدة ، من كتب ما أضخمها .

فى أكثر الكتب الأوربية ، يؤتى فى أول الكتاب بفهرس كما عندنا ، يشتمل على الأبواب والفصول ، ويبين بالأعداد مواقعها من الكتاب ، ويؤتى فى آخره بفهرس كبير ، كثيراً ما يكون كرسالة أو كتيب ، تذكر فيه على ترتيب الحروف جميع مواد الكتاب ، وأسماء الأشخاص ، الذين عرض ذكرهم لأمر ، مع إتباع كل عَلَم أو مادة بأعداد تدل على جميع مواقعه فى الكتاب .

نحن لا نلوم الفيروزابادى على القاموس ، ولا المبرّد على الكامل ، بل نشكر لهما عملهما الجليل ، ونلوم أنفسنا لأنهم وضعوا أساساً فلم نقم عليه بناء ، بل شيدوا قصوراً فلم نمهد اليها السبل ، والأشياء لا تدرك كما لها من أول نشأتها .

الزارع الذى لا يرعى الانتظام ، ويدع أعماله حتى تتصرم أوقاتها ، يستكثر من شراء الماشية ، ويلتمس معونة الزراع ، وتضطرب أموره ، وتستبق اليه ألوان الخسران .

التاجر الذى لا يحصل على الانتظام ، يعمل كثيراً ، ويربح قليلا . فالعطار بالمعنى الذى نعرف ، اذا لم يراع الانتظام فى رص بضاعته ، يشتغل طويلا بالبحث عن المُصْطكى والقرنفل ، حتى ينفضّ عنه المشترى ويهرب الى عطار آخر . ألا تبصر كيف يرتب أكثر البدالين بضاعته ؟ بل ألا تبصر كيف يحسن الصيدلانى ترتيب عقاقيره فى صيدلته ، حتى إذا وقفت هناك أخذ عينك انتظام ، إن يدك تكاد تقع عليه ؟

وأما انتظام الأمة ، ونعنى به ترتيب أمورها العامة ترتيباً صحيحاً معتمداً على العلم ، فأس راحتها وفلاحها . فلولا انتظام فى جيشها ، لرأيته خاشعاً متصدعاً لا يدفع عدواً ولا يلى حراسةً . ألم تر أن الجمهور يسميه نظاماً بضم النون يعنى نظاماً بكسرها ، كما يقول كُراماً يعنى كِراما وحُصاناً يعنى حِصانا ؟ إنهم ليسمونه

أيضاً لظاماً باللام أول الـكلمة وهى نظام بالنون غيرت إلى اللام ، لأن صوتيهما متقاربان . وكذلـكم يحصل التصحيف فى جميع اللغات بين الأصوات المتقاربة كالتاء والدال ، والسين والزاى والصاد ، وكالباء والفاء والثاء . ألا ترى لفظ (صراط) فى العربية فانه يستقيم نطقه بالسين والزاى كما يستقيم نطقه بالصـاد . قال فى القاموس : الرهدل (يعنى باللام آخر الـكلمة) كجعفر : الضعيف ، والأحمق ، وكجعفر وقُنفُذ وزبرج ، طائر ، لغات فى الرهدن (يعنى بالنون بدل اللام) .

ولولا انتظام فى ريّها لما أخصبت أراضيها وجادت بالثمرات . انظر إلى الأراضى المصرية ، لما لقيت نظاماً صحيحاً كيف أخصبت ! ولولا انتظام بريدها وطرقها الحديدية، لساءت الصلات، واضطربت الأحوال، وبطلت الأعمال. ولولا انتظام مدنها لبلغ من السكان الجهد ، ونال منهم العَنَت . والحاصل أنه لولا انتظام فى إدارة الامة ، أساسه إصابة النظر ، وبسطة العلم ، لم تكن الأمة شيئاً .

إن فى النظام قيامَ هذا الـكون وبقاءه، ولو زايلت هذه الـكواكب مواضعها، أو انحرفت عن أفلاكها ، لـكان الله قد تأذّن بانتهاء العالم .

وبقى أن نقول إجمالاً : إن الراحة والاقتصاد ، والابقاء على الزمن ، والخروج من الـكسل، وفعلَ الواجب ، كل هذه أمور مرتبطة بالنظام ، كما ارتبط به فلاح الأسرة والأمة . ولـكنه لما كان النظام أعلق بالأعمال ، انفرجت مسافة الخلف بيننا وبينه . فنحن وإن بسطنا ألسنتنا بالقول ، نقبض أيدينا عن العمل ، ونحن وإن قلنا كثيراً ، نعمل قليلا .

وفى كل شىء لنا آية　　تدل على بعدنا من النظام

إن الجمهور الذى لا يوقفه عند النظـام فى حفلاته ومواكبه غير عبث رجال الشرطة به ، لا يرعى النظام ؟

الكذب

بينا فيما سبق ، أن الصدق دين للناس بعضهم على بعض ، مع التنبيه الى وجه ذلك ؛ فضده ، وهو الكذب ، التواء عن هذا الواجب ، وسقوط فى رذيلة من أكبر الرذائل كما سيبين .

الخرافات والأباطيل التى وجدت فى الأمم ، على عكس قسطها من العرفان ، أبطلت فى نفوس أفرادها شيئاً من الاستعداد ، وازدرعت فيها بعض الرذائل . فالذى نشأ فى أمة صوّر خيالها العفاريت فى صور منكرة مفزعة ، ونَحَلها كثيراً من الألقاب والأسماء المستهجنة فى أقاصيص مفعمة بالشرور التى استطالت بها على الناس ، وكذلك صوّر الغيلان فى نحو هذه الصور ، وأضاف اليها الأسنان الحادة ، والأنياب البارزة القواطع ، والأظافر الطويلة ، والشعور الكثيفة ، فى حكايات تمثل من أنواع التعدى على الناس والفتك بهم والصبيان منهم خصوصاً ، ما تمثل — الذى نشأ فى أمة كهذه ، خليق بأن يبدل من بعد أمنه خوفاً ، ويزول منه سلامة فطرته ، ويستولى عليه الضعف ، والضعف رذيلة يجد المرء عذابها فى كل حال من أحوال الحياة ؛ وعلى هذا القياس . إن كان بعض المخترعين لهذه الأباطيل ممن ضعفت مفكرتهم وقوى خيالهم لأمر ، كما يحدث عند بعض المرضى ، فالبعض الآخر بلا شك من الذين يفترون الكذب . إنْ تخلص جماعةٌ من الذين نشئوا يسمعون هذه الأباطيل ، من تصديقها ، بضوء يصل إلى قلوبهم من العرفان فيما بعد ، فنحن على بينة بأن سائرهم يبقى له مرض فى نفسه حتى يموت . على أننا لا نجزم بأن من زالت عن نفسه هذه الظلمات ، استرجعت نفسه تمام الاستعداد الأول ، بل أولى لنا أن نجزم بعدم رجوعه .

إن الكذب دخل فى الديانات ، وأبرزها للنـاس فى صور ناقصة . فالدين الإسلامى خالطه كثير من الأحاديث الموضوعة ، والظنون الفاسدة ، التى اشتغلت العلماء فى كثير من الأزمان بتمييزها ، وتلقفها الكثير على أنها من الدين . ونتج من تلك الظنون ، وهذه الأحاديث ، فساد كبير ؛ لأنها شوهت وجه الرشاد ، وجعلت الحقيقة بمكان قصىّ ، وصدّت كثيراً عن قبول الحق ، بعد أن اختلط بالباطل ، وجرّت العامة إلى فعل ما لا يحل ، تعْويلاً على حديث ضعيف ، يقضى بكذا وكذا من أنواع الرضوان والمغفرة ، جزاء على عمل حقير لا قيمة له . وفى مثل نزهة المجالس كثير من هذه .

كذلك علم التاريخ ، دخله كثير من الأكاذيب ، واشتغلت العلماء بالرد عليها كابن خلدون فى مقدمته ، والتاريخ على هذا الوجه مفسد للانظار ، ومبعد للشخص عن الحق ؛ والذين تراهم قد جمعوا فى معارفهم بين الحق والباطل ، وقرنوا الغث بالسمين ، أولى الناس بتصديق ما يلقى عليهم ، وأبعدهم من التماس الحقيقة . وهكذا فى سائر العلوم النقلية ، ترى للباطل مجالاً واسعاً ، تفرغ كثير من العلماء لدحضه وتفنيده ، وبعضهم بذل الجهد فى البحث عما هو بالحق أشبه ، ودوّنه فى كتب مخصوصة كالبخارى وغيره . ولم يكن لهؤلاء من الأعمال إلا تخليص العالم من بعض شرور تلك الرذيلة ، وتقليل ما يَنْصَبُّ من المصائب منها على رءوس الناس .

الكذب رذيلة استطالت على المعاملات والنظام ، وحِرَف العالم الدائمة ، حتى كادت تفسدها ، وتصدم الكون فى رأسه صدمة يتقهقر بها إلى الوراء . فالعالم والتاجر ، والزارع ، والصانع ، كل أولائك أضرّ بهم الكذب فى عملهم ، وضيّق عليهم السبل حتى أُقفلت فى وجوه البعض ؛ وتوجيهه لا يخفى على قياس ما قيل فى الصدق .

وقد ذكرنا لك، أن كذب التاجر قضى بأن تنفق زمناً فى شراء عَرَض حقير.
ونزيدك، أن الناس الذين لا عمل لهم إلا قضاء الأشغال، من بيع وشراء، واجارة ونحوها من المعاملات التى أفسدها الكذب، ربما أضاعوا أكثر من ثلاثة أرباع عمرهم فى الاقتراب من الحق، فيما يباشرون، وما هم بمقتربين منه. إذا نظرنا إلى الخصومات التى تقع بين الناس، ووراء الخصومات ما وراءها من العداوة والبغضاء وما يتبعهما من المفاسد — رأينا كثيراً منها قد أوقع فيه الكذب. فكم من رجل ينازع فى عين يدّعيها لنفسه، وهو يعلم أنها ليست له، وآخر كان قد استأجر منزلا وعد بإخلائه في يوم كذا، ولم يف بوعده، فقامت بين الاثنين خصومة ساقهما إليها الكذب.

الكذب أدى إلى ذهاب ثقة الناس بعضهم ببعض، فصارت رابطتهم واهنة، وتعسر على ذى الحاجة أن يقترض مثلاً ما يدفع به تلك الحاجة، خصوصاً إذا كان معروفاً به، فإن الثقة به تذهب، وتضيق عليه المعاملات، حتى لا يجد مسلكاً.
وأنت ترى من نفسك سهولة الإعطاء لمن يعد ويفى بخلاف الكاذب. قد يكذب الرجل حتى لا يُصَدَّق، وإن صدق ربما وقع من أجل ذلك فى مهلكة، والشواهد كثيرة.

وينبغى أن يتَعهد الأحداث، وتُستأصَل من نفوسهم هذه الرذيلة، بما يناسب حالتهم من العقوبة اللائقة:

(١) فإذا كان الكذب واقعاً من الصبى لكثرة كلامه، أُلْزِمَ الصمت.

(٢) وإذا كان عن خوف، نشأ عن القسوة فى معاملته، عومل بالرفق حتى يثوب إليه ما فقد من القسوة.

(٣) وإن كان كذبه صادراً من الفخر، عُوّد التواضع.

(٤) ومن نشأ كذبه من طمع فيه ، وطلب به الحصول على شيء ، حيل بينه وبين ما يشتهى .

(٥) ومتى بان لك أن سيء النية يريد أن يضر غيره ، عوقب علناً بما كان يعاقب به ذلك الغير على فرض صحة دعواه ، مع إعلان شرف المكذوب عليه .

ويجب مع هذا أن يكون المعلم قدوة حسنة :

(٦) فلا يكذب فى شيء ما .

(٧) وأن يطابق قوله عمله .

(٨) وألا يتضارب قوله .

(٩) وأن يجعل فى مادة الدرس ما ينفر من الكذب .

(١٠) وأن يبين فى كل فرصة أن الكذب له منه وقع سيء .

(١١) ويبين لهم أيضاً ثقته بهم فى أعمالهم ، ولا يظهر شكه إلا عند اتهام شديد على وجه لطيف ، وإلا أثر فيهم السؤال على غير هذا الوجه أثراً سيئاً .

(١٢) وينبغى أن يسامح من يجيب بصراحة ، بخلاف الكاذب فيعاقبه .



الحسد

ثلاثة ألفاظ من قبيل الحسد ، يكثر دَوَرانها ، ويشتبه فيها بعض الناس ، لورود بعضها مستعملاً مكانَ الآخر ، لغرض يليق بذلك الاستعمال . وهى : المنافسة ، والغبطة ، والحسد .

فالمنافسة : تمنى ما للغير مع السعى فى التحصيل . وهى سبب قوى من أسباب تقدم الأشخاص والأمم . ولهذا حسن أن يحرّك الى التسابق فى طلب الخيرات بالوسائل المختلفة ، فهى من أجل ذلك ممدوحة . قال تعالى « وفى ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . »

والغبطة : تمنى مثل ما للغير ، وهى ممدوحة أيضاً ، لأنها قد تنتهى بالمنافسة .

والحسد : كراهة نعمةِ الغير وحب زوالها . وهو ضرب من البخل شديد ، لأن بخيل المال يضن بما فى يده ؛ وأما الحسود فانه يضن بنعم الله تعالى ، ويألم من وصولها إلى الغير . وهو مع هذا سخط على نظامه تعالى من حيث تفريقه النعم فى خلقه . قال صلى الله عليه وسلم : إن لنعم الله أعداء . فقيل: ومن هم ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله . ومن ثم كان الذين اختصهم الله بحظ وافر ، ونبغوا فى أممهم ، غرضاً لحسد الحاسدين ، واتقاد نيرانه فى قلوبهم ، فتعرضهم لهم بالمثالب خفضاً لدرجتهم ، وحطاً من كرامتهم ، يصيبونهم فيما يعز على أممهم ؛ فان كانت الأمة مكلفة بأمور الدين سلبوهم فيها ، وإن كانت مولعة بغير ذلك ، عابوهم فيه ، مع أن تلك المثالب يكون من شأنها تنبيه كثير إلى فضائلهم، كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ ، أتاح لها لسان حسود

ولا تكون أمة راضية كل الرضاء عمن نبغ فيها ، إلا بعد انقراض الحاسدين ، بانقراض جيلهم ، وقيام جيل آخر مقامه .

أما دواعى الحسد فكثيرة ، منها : البغض ، فان الشخص متى أبغض آخر لسبب مّا كان من شأنه أن يجد فى نفسه انقباضاً من نعمة تصير إليه . وهذا النوع قد يزول بسهولة ، لأنه من توابع البغض ، ثبوتاً وزوالاً ، ولا يكون عاماً . ومنها : التزاحم على غرض واحد ، كالذى يكون بين طائفة النجارين أو الحدادين مثلاً ، فهؤلاء ، كما تكثر فيهم المنافسة ، يكثر بينهم الحسد أيضاً ، لأنهم يرتزقون من طريق واحد ، وما يحصل لأحدهم من الكسب يخسره الآخر معنى .

أما الحداد والنجار ، يعنى اثنين من طائفتين ، فليس بينهما تزاحم بهذا المعنى ، ولذلك لا يتحاسدون . وهذا الأمر بعينه ، يصلح علة فى أن سكان القرى يكثر فيهم الحسد ، عن سكان المدن ، لأن الأولين لهم عمل واحد وهو الزراعة ، فهم فى حرفة واحدة ، ويندر بينهم الصناع . وهم مع ذلك ، فى قريتهم الضيقة ، بما لهم من الروابط الكثيرة ، بمنزلة أسرة تقيم فى بيت ، بخلاف سكان المدينة ، فان بينهم الصنائع المتنوعة ، والأعمال المختلفة ، مع قلة العلائِق فيما بينهم ، واتساع مدينتهم .

ومنها : أن تكون النفس شحيحة بالفضائل ، بخيلة بالنعم ، لا يَطيبُ الشخص نفساً بما رأى فيه غيرَه من النعمة ، وان كان هو فى نعمة فوقها ، يَسخط على قضاء الحكيم عز وجلّ . وهذا النوع شر الأنواع ، لأنه خبث فى النفس ، وانطواء على الشر لذوى النعم ، بلا سبب .

وقد قلنا فى الشفقة إنها عامل من عوامل الألفة والاجتماع ، وهنا نقول : الحسد بخلاف ذلك ، إنه سبب من أسباب النفور والتفرق .

الحسد إن تمكّن من قلب امرئ أفسد عليه أخلاقه ويسّر له أوصافاً قبيحة ، كالكذب والغيبة والنميمة .

الحسد إن ثبت فى نفس امرئ ساقه إلى فعل ما لا يحل من القبائح والجرائم ؛ فهو الذى حمل إخوة يوسف على أن يأتمروا به ، ويتشاوروا فى قتله ، كما جاء فى التنزيل . وهو الذى أغرى قابيل ، على قتل أخيه ؛ ودمُه ، كما روى ، أولُ دمٍ سُفِكَ على الأرض . قال تعـالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ إلى قوله فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ .

وهو الذى دفع المشركين إلى الاستطالة على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالأذى ، ووقوفهم فى طريق الارشاد .

وكذلك فرّق بين كثير من الأُسَر ، وأوقع فيها الشقاق ، ووهنُ الأُسَر وهنُ الأمة . يخص الأب ، مثلاً ، أحد الأخوة بجزء من مقتنياته ويترك الآخرين ، فينبت الحسد فى قلوبهم ، وتكثر الشرور فيما بينهم . فان الحسد متى دب فى جمعية كيفما كانت ، أفسد قلوبها ، وأذهب ثمرتها ، وصيّر بعضها وبالاً على بعض ، وحوادثه قلما يخلو منها كتاب أو رواية .

والحسود شرير شره راجع إليه ، وعذابه دائم ، وألمه مقيم ، بما يجد فيه الغير من النعمة . ولذلك قيل « عقوبة الحاسد من نفسه » . وقال بعض الحكماء : « الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحاسد ما يلقى »

وعلى المربى ألا يَدَع طريقاً للعداوة بين تلاميذه ، كالمماراة ، وأن يعمل لجعلهم إخواناً متحابين ، حتى لا يتطرّق إليهم الحسد ، ولا يخص أحدهم بمثل التوجه إليه فوق الحاجة ، لأن ذلك قد يفسد قلوب إخوانه .

الظلم

عرف الكثير الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه ، وهو تعريف خفي ، والأحسن أن يعرف بأنه : خروج الشخص في تصرفه عما حُدّ له . في الناس مَن طبعه العدوان ، ومنهم مَن دأبه الجشع ، وآخرون عادتهم الغضب ، وغير ذلك من الرذائل التي جاءت من عدم اعتدال القوة المودعة فيهم . فلا جرم كانت هذه الرذائل مع تزاحمهم على المطالب سبباً في مجاوزتهم الحد ، واستطالة بعضهم على بعض ، بالشتم والضرب ، والسلب والنصب ، والقتل وغير ذلك من الأمور التي يأباها العقل والقانون .

وأول من يصيب الظالمُ بظلمه ، نفسُه التي بين جنبيه . فإن الشرور التي تخالج قلبه ، وتخامر نفسه ، تضره قبل أن تصير شروراً بالفعل ، تصل الى الغير ، ويجد ألمها . على أن بعض الظلم يكون قاصراً على الظالم ، لا يصل الى غيره منه ضرر . والظلم أمر قبيح ، سيء العاقبة ، كما ستسمعه . وأنواعه كثيرة .

فمنها ظلم الحاكم للأمة ، وأدناه ألا يقلع عما فيه من الرذائل ، فان كل رذيلة فيه هي عند النظر ، ضرب من الظلم لرعيته ، لأن تلك الرذيلة تنتقل الى كثير منهم . فالحاكم إذا أحب التجسس أخذه مَن حوله بحكم التقليد ، ولكل من هؤلاء حاشية وناس محدقون به ، فتنتقل تلك الرذيلة اليهم ، وهكذا . كنت أعرف في بعض الرؤساء رذائل ، ولم ألبث حتى رأيت بعض مرءوسيهم وقد ظهرت فيهم هذه الرذائل بعينها ، وكأني الآن أنظر اليهم .

ومنه أن يقعد عن إدارة شئون الأمة ، ويجعل مصالحها وراء ظهره ، لا يحفل

بها ، ولا يُعنى إلا بتقاضى أجره ، وحمل الرعية على الاعتراف له بالسيادة ، وإبداء شعائر العبودية ، ويكون عبئاً ثقيلاً على كاهلها .

ومنه ، وهو أشد ، أن يستبد برأيه ، ويقضى بهواه . وقد يمد عينيه مع ذلك الى أموال الرعية ، وحينئذ تذهب حرمة النفس والمال ، ويتضعضع الأمن ، ويخشى الناس على أموالهم من اظهارها فى التجارة ونحوها ، وتنقبض الأيدى عن الأعمال، فتقل الثروة ، وتضيق دائرة العرفان . لأن الأمه تكون حينئذ فى تقهقر، والحكومة الظالمة لا تنصر العلم، لأنه يناقض حالها الذى هى فيه . وكذلك الشأن فى أخلاقها، فانها تصير الى الضعف والذلة ، وينتشر فيها النفاق والكذب ، وتبطل فيها الشجاعة والحمية ، وتظهر فيها جميع الرذائل التى تتولد من الضعف ، وإذا سلمت من الدمار زمناً ، فانها تبقى كالمريض فى حال النزع ، ثم تضعف عن القيام بنفسها ، وتصير إلى غيرها .

وهذه مراكش ، لظلم حكومتها ينطبق أمرها على ما قلنا ، وهى قريبة من السقوط .

الظلم فى الأمم يثير الضغائن ، ويزرع الأحقاد ، فى نفوس الرعية ، على الحكومة حتى تكون الأمة فى نزوع الى الثورة ، وليس يَدرى ما وراء الثورات من سقوط الحكومات ، وانقلاب الممالك ، إلا الله تعالى . فالحروب الداخلية ، أشد وقعاً من الحروب الخارجية . وهذه أمة الروس ، لما لقيت من حكومتها من الاستبداد والمصادرة فى الحرية ، أوغر ذلك صدورها ، وتحفزت إلى الثورة . ولما آنست من حكومتها الضعف ، ثارت إلى الفتن والفتك بالناس وتعطيل الأعمال ، وتلك من ثمرات الظلم .

ومنها الظلم الذى يقع فى الأُسَر من عُمَدائها ، والأسر أجزاء تتركب منها الأمة فاذا وقع فيها خلل أدى ذلك إلى فساد الأمة من وجه . ونذكر لك شيئاً تقيس عليه : فمن ذلك أن يسىء الرجل إلى زوجته ، وهو كثير ، ينظر اليها نظره إلى متاعه ، ويعاملها بما يقتضى ذلك ، فإن هذا يؤدى إلى ذُلها وهوانها ، وتولد الرذائل فى نفسها ، وهى أم ولده ، فلا بد أن تبعث فى نفسه من تلك الضعة التى صارت اليها ، ويكون عدوانه على زوجته عدواناً أيضاً على أولاده وأمته . إن الذين يتكبرون فى أجواف بيوتهم على أهلهم ، ويشمخون بأنوفهم على أسرهم ، إنما يلدون عبيداً لغيرهم من الناس . ومن الظلم أن يدع تربية أبنائه ، تربية يقتضيها الزمان ؛ فان التزاحم على أمور الحياة قد اشتد ، وحاجة الإنسان قد تضاعفت ، وطبيعة العمران قد تغيرت . فمن لا يجعل لبنيه عدة من تعليمهم وتربيتهم فقد ظلمهم ، وكان كما لو دفعهم إلى الوغى بغير سلاح . وكثير من الأُسَر أدرك الحاجة إلى تربية البنين ، ولكنهم لم يدركوها بعد إلى تربية البنات ، وهن كذلك فى حاجة اليها ؛ فان تدبير المنزل والسعادة من داخله ، وتربية الأولاد ، واقتدارهن على العمل والكسب عند الحاجة ، كل ذلك داع الى العناية بتعليمهن وتربيتهن . غالى الرجال فى ظلم بناتهم ، حتى جعلوا درجتهن وراء ما يملكون من الحيوان ، وهم لا يشعرون . تُولد عند الرجل المهرة أو الجحشة ، فمتى أدركت سن الروض دفعها إلى الرائض ، وإن قصر ندم ؛ وتولد له البنت ، فاذا جاء عليها دور التربية أو جاوزته لم يدر فى خلده شىء من أمر تربيتها . فما أظلم الانسان وأبعده عن الحق ، إذا اعتاد الباطل ! ؟ ومن الظلم ما أسلفنا القول عليه ، من أن الرجل يضم اليه بنيه الكبار على الوجه الذى فى القرى ، ولا يَكلُ إلى كل منهم عملا خاصاً يحضه على

الكسب ويعرفه طرق المعاملات ، ويبعث فيه روح الاستقلال . فاذا مات عجزوا عن تدبير أمورهم ، ووقعوا فى الخسران .

ومنها ظلم الحيوان ، مع كونه نعمة من الله تعالى على الانسان ، قال تعالى : (والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ؛ إن ربكم لرءوف رحيم) . فلا يحل مقابلة هذه النعم بالكفران ، ولا هذه الرحمة بالظلم والقسوة ، وإسخاطه تعالى فيما أفاض من المنـة . نعم أحلت الشريعة ذبح الحيوان وأكله ، فمجاوزة ذلك الى تعذيبه بلا جدوى ، أمر مخالف للشرع والعقل معاً . فهِراش الديوك تتقاتل حتى تسيل دماؤها ، والكباش تتناطح وتذوق الألم وقد تتكسر قرونها ، وتحميل الحيوانات فوق طاقتها حتى يبلغ منها الجهد غايته ، وضربها مع ذلك بالسياط ، كل ذلك ظلم . وأظن أمثال هؤلاء الذين يصنعون بالحيوان مثل ذلك ، يعاملون الانسان بمثل هذه المعاملة ، لو وجدوا إليها سبيلا . جاوز الناس الحد فى أمور الصيد ، والعدوان على الحيوان ، وان لم يطعموا منه . ومن هؤلاء جماعة من الأغنياء ، جعلوا لهم قِطعاً من الأرض يأوى اليها ، فاذا مالوا لِلَّهو بقتله ، ركبوا ومعهم آلاته من كل نوع ؛ حتى إذا جاءوا اليه وجدوا لهم فى الفتك به لهواً ولذة .

ويجب على الاستاذ أن يربى تلاميذه على احترام الشرع والقانون ، والتمسك بهما وينفرهم من مخالفتهما ، والخروج عنهما ، حتى يكون ذلك داعياً إلى بعدهم من الظلم .



الكبر

حال فى النفس، يدعو إلى مجاوزة الحد فى إعظام النفس وإحقار الغير. والتكبر اسم يقع على العلامات المختلفة التى تنبئ عن تلك الحال ، على قياس ما سبق فى السخاء والجود . وتلك العلامات مما لا يغيب عن الناظر ، إلا أننى الم على شىء منها . فمنها النظر الشَّزْر، وتقليل الكلام . قال شاعر الحماسة :

وما تزدهينا الكبرياء عليهم إذا كلمونا أن نكلمهم نزراً

ومثلهما الترفع عن الحق استخفافاً بمن جاء به ، وهو رذيلة كبيرة من رذائل الكبر ؛ حتى لقد عرفه بعضهم ، بأنه رد الحق على قائله واحتقار الناس . كذلك عدم رد السلام ، والتوقف عنه حتى يبدأ به الآخر ، ونحوهما .

أما هذا الخلق فيحصل فى الشخص لنظره إلى نفسه بالإضافة إلى فضيلة فيه ، وإلى غيره من جهة أنه عار من تلك الفضيلة ، أو فيه رذيلة . ويضرب صفحاً عن نقائصه وكمالات غيره ، فتعظم عليه نفسه ، ويهون عليه الآخر ، وتأخذه هزة من الكبر . وقد يحل الكبر فيُرَى أنه سرى فى الشخص من أنه يرى حاله التى هو فيها جماع الفضائل ، وأن ما عداها ليس بشىء ، فيجاوز الحد فى تعظيم نفسه وتحقير غيره . كما قد يقع من بعض الذين يعرفون شيئاً من مسائل العلوم ، فانهم يحقرون عامة الناس ، وإن أوتوا من غرائزهم وأدبهم الفطرى ، ما يجعل لهم المحل الأرفع . وهذا راجع إلى ضيق دائرة النظر ؛ ومثل هذا النوع سريع الزوال ، متى اتسعت دائرة العرفان وأدرك الشخص حقيقة الفضيلة .

أما أسباب التكبر فمنها : علم لا تقصد به الفضيلة ، كما هو واقع ، فانه متى صادف نفساً متهيئة للكبر بعثه فيها ، وكان مثله كمثل الغيث ينزل صافياً من السماء ، فتتشرب به الأشجار المرة فتزداد به مرارة . ذلك بأن يظن صاحبه أن ما حصله هو من العلم المعنى بالتقريظ ، وهذا الظن خطأ .

ومنها : النسب ، ويحصل به الكبر غالباً ممن لا يشعرون لأنفسهم بشيء من الفضائل ؛ وهو أدل على جهلهم ، لأن النسب إنما صح اعتباره فضيلة ، لأن الفرع يصير غالباً إلى ما كان لأصله من المحامد ، ويحمله النسب على المطالب الرفيعة . فاذا لم يكن ثَمَّ واحد من هذين ، بطل معناه . نعم يصير له معنى آخر ، هو الاحتجاج به على الفرع ، فلَوْمُهُ ، كما قيل :

لئن فخرت بآباء ذوى نسب لقد صدقت، ولكن بئس ما ولدوا !

ومنها : المال ، وما يستدعى من بسط الرزق ورغد العيش ، والانغماس فى الترف ونحوها ؛ وهى أمور ليست من الفضائل فى شيء . والمال فى ذاته ليس فضيلة ، وربما لا يدل على فضل سابق ، كالجد ، كما إذا كان موروثاً ، ولا لاحق ، كالسخاء ، كما إذا كان الثرى بخيلاً . ويا ليت شعرى ، إذا كان العلم ، والنسب ، والثراء ، فضائل على الإطلاق ، فهل من مقتضى الفضيلة أن يجاوز صاحبها الحدّ فى إعظام نفسه ، وإحقار غيره ؟ نعم إذا اقترنت برذيلة الجهل !

ومنها : القوة والجاه وغيرهما .

أما تأثير الكبر فى النفس ، فاستتباعه كثيراً من الرذائل ، فضلا عن كونه يقضى بانسلاخ صاحبه من التواضع الذى هو من كبريات الفضائل . فمن هذا أنه يغرى بالظلم ، لأن المتكبر لا يحفل بحقوق غيره فيجور عليه ؛ والحقد ، لأنه ربما لا يجد من بعض الناس تسليماً بحاله ، ولا يَدَ لَهُ عليهم ، فيدب فى نفسه ؛ والحسد ،

لأنه من فروعه كما سبق ؛ والغضب ، لأنه يرى كثيراً من أعمال غيره دون المنزلة التي حسبها لنفسه ، وذلك داع الى أن يغضب ؛ والإزراء بالناس ، والغيبة ؛ ويصده عن الطاعة احتقاراً لمن تجب له ، وقبول النصيحة ، ومعرفة الحق ، والانقياد له ، والرجوع اليه ، كما يجيء . واذا أعملت فكرك عثرت على رذائل وراء هـــذه تتبع الكبر .

وأما تأثيره في الخارج ، فاني مورد لك بعض شواهد ، نموذجاً تقيس عليه . فهو الذي حمل إبليس على المعصية فطرد من رحمة الله ، وحاق به سوء العذاب ، كما ذكر في مواضع من التنزيل العزيز ، منها قوله تعالى في صورة « ص » :

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ، أستكبرت أم كنت من العالين ؟ قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ! قال فاخرج منها فانك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ! » .

الكبر هو الذي حمل جبلة بن الأيهم ومن معه ، على الارتداد ، ومفارقة جماعة المسلمين ، واختيار النار . فقد كان جبلة يطوف بالبيت ، إذ وطىء إزاره رجل من بني فزارة ، فانْحَلَّ ، فرفع جبلةُ يدَه فهشم أنف الفزاري . فاستعدى عليه عُمَرَ رضوان الله عليه . فبعث إلى جبلة ، فأتاه ! فقال : ما هذا ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ! إنه تعمد حل إزاري ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف . فقال له عمر : قد أقررت ! فإما أن رضى الرجل ، وإما أن أقيده منك . فلما رأى جبلة الصدق من عمر ، قال : أنا ناظر في هذا ، ليلتي هذه . حتى إذا نام الناس وهدءوا ، فحمل جبلةُ بخيله ورواحله الى الشام ، وارتحل في خمسمائة رجل من قومه ، فدخل

إلى هرقل ، فتنصر هو وقومه . وهو الذى يقول بعد ذلك ، وقد سُقِط فى يده :

تنصرف الأشراف من عار لطمة وما كان فيها ، لو صبرت لها ، ضرر !
تَكَنَّفَنى فيهـــا لجاج ونخوة وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمى لم تلدنى ! وليتنى رجعت الى القول الذى قال لى عمر !
ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر !
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر !

والقصة مبسوطة فى أول الجزء الرابع عشر من كتاب الأغانى .

الكبر يصد عن فهم الحق ، استخفافاً بقائله ، وانصرافاً عنه . قال تعـــالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) وقال تعالى (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) فلا ينفذ فيه الحق ، ولا يعمل فيه الرشاد . ولذلك كان أتباع الرسل ، وخصوصاً فى أول أمرهم ، الضعفاء من الناس ، لأن أقوياءهم وعظماءهم ، لا يخلون غالباً من كبر ، يحول بينهم وبين الحق . يؤيد ذلك ما جاء فى حديث لهرقل مع أبى سفيان إذ يقول له : وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

قال القسطلانى فى شرح هذا : غالباً ، لأنهم أهل الاستكانة ، بخلاف أهل الاستكبار ، المصرين على الشقاق ، بَغْياً وحَسَداً ، كأبى جهل . ويؤيد استشهاده على ذلك قوله تعالى (قالوا : أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون ؟) المفسَّر بأنهم الضعفاء على الصحيح اهـ والحديث جدير بالنظر وهو مفصل فى الجزء الأول من القسطلانى من ص ٧٣ وما يليها .

قد يوجد عدد وافر من الأمة يحملهم جهلهم على الكبر ، ويصد فريقاً منهم

عن مباشرة التجارة ، وآخر عن الصناعة ، وغيرهما من الأعمال التى هى منابع الثروة للأمم ، فيضربون عنها ، ويقع كثير منهم فى الذل خوف الذل .

الكبر قعد بكثيرين من ذوى النسب عما تهيأ لهم من الأعمال ، حتى صاروا حملاً على غيرهم . فالأشراف مثلاً أخذتهم العزة بنسبهم الرفيع ، حتى وقفوا عن مشاركة الناس فيما بين أيديهم من الأعمال ، وصاروا إلى العجز ، وانقسموا طوائف : فمنهم فريق يجول فى البلاد على أنهم مشايخ طرق ، وآخرون أقاموا فى ديارهم ، ينتظرون ما يأتيهم به الناس من الصدقات ، ولسان حالهم يقول : تصدق على سيدك الذى تحل له الصدقة ، وهكذا من الطبقات التى لا ثمرة لوجودها فى الجمعيات والأمم ، سوى تكثير سوادها . فى ظنى أن كثيراً من الحروب التى دارت رحاها صدر الاسلام فى سبيل المطالبة بالملك ، كان من جملة الدواعى إليها تعاظم بعض الأشراف بنسبهم . وهـذه حرب الروس ، وما حرب الروس منكم ببعيدة ، إنما أوقدوا نارها مع اليابان ، عظمة منهم ، وكبراً واحتقاراً لليابانيين ، كما هو بين فى عباراتهم ، كقول قيصرهم : لنؤدبن اليابان مائة مرة . وناهيك بما تجر الحروب من قتل الرجال ، وذهاب المال ، وقلة الأعمال ، وصيرورة كثير من الأسر إلى الدمار لفقد عائليهم ، ووراء ذلك من السقوط للأمة ما وراءه .

كبر الرؤساء يقتل كثيراً من الفضائل فى نفس المرءوسين . فالرجل إذا تكبر على زوجه وأولاده ، ولم تكن رابطة الأسرة المحبة والاخلاص ، فاعتبر الزوجة قطعة من الأثاث ، والأولاد خلقة له ، ووضع نفسه فى جميع الأحوال موضع الآمر لا يرد أمره ، والناهى لا يلطف فى نهيه ، وترفع عن مجالستهم ومحادثتهم ، أمات فيهم كثيراً من الفضائل على نحو ما مر فى الظلم ، فإن المتكبر ظالم .

كذلك المعلم المتكبر ، يصير تلميذه إلى الذل ؛ على أن طريقته فى التعليم لا تكون مرضية ، لأنه قد يحمله الكبر على أن يضع نفسه موضع العالم بكل شىء فيخلط ويخرج إلى الهذيان ، ويحقر كل رأى للطالب ، وإن كان صائباً ؛ فلا يعده إعداداً حقاً للنظر والاستقلال ، وليس عليك إلا أن تنظر نظرة صحيحة فى الخارج حتى تفقه هذا وتجزم به .

وكذلك الحكومة ، إذا كانت متكبرة على الأمة لأمر ، ناظرة إليها نظرة احتقار ، ظلمتها من بعض الأوجه ، فوضعت لها القوانين بمقدار هوانها عليها ، وَحَرَمَتْهَا بعض حقوقها وجعلت منها مقابر لبعض الفضائل .

وبالجملة ، فإن الرؤساء المتكبرين ، على اختلافهم ، يؤثرون فى الأخلاق تأثيراً سيئاً ، لأنهم مُرَبُّون من وجه . فويلٌ ثم ويلٌ لمن يخرج من سيطرة أب متكبر ، إلى معلم متكبر ، ثم يقع فى قبضة رئيس متكبر ، وحكومة متكبرة ؛ فإنه يذوق صنوف العذاب من نفسه !

وأما التواضع ، فهو فضيلة يتبعها كثير من الفضائل وليس فيه رذيلة من هذه الرذائل ، وهو خلق نعم الخلق .



الأخـــلاق

التى تكون فى بعض الناس فضيلة وفى بعضهم رذيلة

قد يكون الخلق المحمود ذميماً بالنسبة إلى بعض الناس ، وكذلك الخلق المذموم قد يكون حميداً بالإضافة إلى بعضهم ، وذلك باعتبار أثره . يظهر هذا فى أخلاق شتى ، نورد لك بعضها لتقيس عليه . فمن ذلك ما نقلناه فى باب الحياء ، من أن الخجل يقبح فى الرجال ، ويحسن فى النساء . أما وجه قبحه ، فلأن الرجل بمقتضى صورته فى الجمعية ، عليه واجبات كثيرة خارج المنزل ، والخجل يمثل بعض أعماله فى صور مستهجنة ، ويحول بينه وبين بعض هذه الواجبات ، ويُصَيِّرُهُ إلى الذلة . وأما وجه حسنه فى المرأة فلأنه يقبضها عن الابتذال فى المخالطة ، ويكون فيها سياجاً على صيانتها ، وهى فضيلة خليقة بالعنايه فيها . ومع هذا فإن واجباتها فى تدبير منزلها وتربية ولدها ، وليس فى خجلها ما يصدها عن مباشرة هذين على وجه كامل .

إن صيرورة المرأة إلى القوة والجلادة ، وإن كان كمالاً فى الرجل ، نقصٌ فى حقها . ذلك لأن الائتلاف بينها وبين الرجل يكون حينئذ ضعيفاً والميل قليلا ، وربما نشأ عن ذلك ضعف الرآسة في الأسرة ، وعدم الوئام . وقد قيل فى المثل : (لا يستقيم الطحن بحجرين صلبين) . ومن الشواهد على صدق هذا ، أن المرأة إذا زاولت حرفة كالتعليم زمناً حتى ظهر أثرها فى أخلاقها ، وأشبهت الرجل ، قلّت

الرغبة فيها ، وانصرف الأكثرون إلى تأليف أسرهم من غيرها . وإن للحرف تأثيراً في الأخلاق وسحنة الوجه ، ففكر فيه .

ومنها الميل إلى الزينة ، بحيث يجد الإنسان من نفسه سائقاً إلى اتخاذ الملابس الفاخرة ، والحلى ونحوهما ، وهو رذيلة في الرجل ، وفضيلة في المرأة ، على وزان ما سبق . وإنما كان رذيلة فيه، لأنه مناف للاقتصاد ؛ وقد يخرجه من الجلادة التي تنبغي له ، ويخمد فيه جذوة النشاط ، ويغريه بالكسل .

أما المرأة فتلك الجلادة غير مطلوبة منها . نعم لم يراع الاقتصاد في زينتها ، ولكن هناك أمر آخر أجدر منه بالمراعاة ؛ ذلك أن الزينة وصف يدعو إلى تمام الألفة بين الزوجين ، وقيام الأسرة على نوع من المحبة أكمل ، ولهذا أَحَلَّتْ لها الشريعة المطهرة لبسَ الحرير ، واتخاذ الحلى من الذهب والفضة . والأصل في هذا ما جاء في حديث رواه عدة من الصحابة ، منهم على ، رضى الله عنهم أجمعين ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خرج وبإحدى يديه حرير ، وبالأخرى ذهب ، وقال : (هذان محرمان على ذكور أمتي ، حلال لإناثهم ، وفي رواية حِلٌّ لإناثهم) .

ومنها الزهد ، وهو احتقار الأموال وأعراض الدنيا ، وهو ممدوح من الخطباء والوعاظ ، وغيرهم من رجال الدين ، ومذموم من الملوك والأمراء . وتوجيه ذلك أن كثيراً من الناس لم يطلبوا الدنيا برفق ، بل تكالبوا عليها ، وزَلَّتْ بهم الأقدام ، فهوَوْا في بحرها ، وأوشكوا أن يذهب بهم تيارُه ، ونتج من هذا كثيرٌ من الشرور والآثام . من ثَمَّ كانوا محتاجين إلى تنبيههم على ما هم فيه ، وبيان المضار التي جاءت من إيغالهم فيها ، يريدون عَرَضَها ، وذلك عملُ الوعاظ والخطباء ، وغيرهم

من رجال الدين . ومن البين أنه يجب أن يكون من أخص أوصاف هؤلاء ، القناعة والزهد ، لأنهما ملاك الفضائل التى يدعون إليها وليس الغرض أن يجعلوا كل الناس زهاداً ويوقفوا العمران ، ولكن الغرض أنهم يقتدرون حينئذ أن يرجعوا الناس إلى الاعتدال شيئاً ويقللوا الشرور .

أما الملوك ومن فى معناهم ، فإن فى زهدهم انفضاضَ الحاشية عنهم ، وتفرقَ الأعوان من حولهم ، وذهابَ شارة الملك ، وانتقاضَ أبهته ، وزوالَ رهبته من نفوس العامة ، وهو مما لا تحمد مغبته .



السعادة مع التفرد محالة

ولزوم اجتماع الناس فى توزيع الخيرات المشتركة

الإنسان لا يمكنه الاستقلال بتحصيل ضرورياته ، فإنه على الأقل مفتقر إلى مطعم يحفظ به بقاء هيكله، وسرابيلَ تقيه الحرَّ والبرد، ومسكن يؤويه ويمنعه من العاديات . وإذا قدَّرت له مطعماً وملبساً ومسكناً غاية فى السذاجة، احتاجت هذه إلى كثير من العمال والصناع، كزارع وطحان وخباز، ثم غزال ونساج وخياط، ثم بنّاء ونجار وحداد، ويتبع أولئكم من الصناع والعمال الآخرين جماعة يكادون لا يتناولهم الإحصاء، وأعمال شتى كهذه لا يتأتى لواحد أن يباشرها وحده . ولهذا كان الناس فى حاجة إلى الاجتماع ، لتتوزع عليهم الأعمال المختلفة ، ويقتطف كلٌّ من ثمارها ، وهذا معنى ما يقال « الإنسان مدنىّ بالطبع » ، وبعبارة موجزة ، إنه بمقتضى الطبيعة ، فى حاجة إلى الاجتماع مع الآخرين ، لا يمكنه التفرد .

هب أن الشخص إذا انفرد يأ كل من نبات الأرض وخَشَاشها ، ويتخذ له لباساً من جلد الحيوان يصنعه كما تهيأ له ، ويأوى إلى جحر أو مغارة ، فهل يستقيم حاله مع هذا ؟ ! وإذا ألمّ به مرض أعجزه عن تحصيل القوت ، أو فاجأته فى مغارته عرجلة من السباع، بله سبع واحد، والعوارض كثيرة، فكيف يكون حاله حينئذ ؟ !

إن الانسان إذا عاش مفرداً ، كان مثله كمثل نباتة فَذَّة ، إذا سَلِمَتْ عفواً من الآفات حيناً ، ثارت عليها فى حينٍ آخرَ ريحٌ عاصف ، فاجتثتها .

إن ما يجده الانسان من الأنس بمخالطة نوعه والتسلى بهم ، وخصوصاً عند الحوادث ، لكثيرٌ، قالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتَلْتُ نفسى
ولا يبكون مثل أخى، ولكن أُسَلِّى النفس عنه بالتأسى

انظر كيف جعلت الشرائع ، على اختلاف أنواعها ، السجن نوعاً من العقوبات ، وفى السجن حرمان الشخص من مخالطة نوعه .

وإذا أتيح لانسان أن يعيش وحده زمناً، حُرِمَ جميع المعارف التى يصيبها من مخالطة الناس، وبقى على مقربة من سائر الحيوان ؛ إنما يتميز عنه ببقية من استعداده الفطرى . ويمكنك أن تتعرف هذا مما تجده فى القروى ، بالاضافة إلى المدنى ، فانك ترى منه غِرًّا قليل التجارب . ومثل هذا الفرق تراه بين من يسكن الكفور الصغيرة ، و بين من يسكن القرى إلى أن تنزل إلى الانسان المفرد .

على أن الوسائل والدواعى التى تُقْدِرُه على طلب المعارف المتنوعة ، وتدعوه إليها تكون معدومة فى حقه .

وإذن ، فالسعادة فى اجتماع الناس ، وتوزيع الأعمال عليهم ، واقتطاف كل واحد من ثمرات أعمالهم ، حتى يحصل الخير للجميع .



الحكمـــة

فى تشريع اجتماع الناس فى الصلاة والمواسم

جاءت الشرائع السابقة بالاجتماع ، فاليهود لهم اجتماعات فى كنائسهم ، والنصارى لهم اجتماعات فى بِيَعِهم .

وكذلك الشريعة الإسلامية ، جاءت بالاجتماع ، ولكن على وجه أكمل ؛ فجعلت على الناس أن يجتمعوا فى اليوم خمس مرات لصلاة الجماعة ؛ وقد حض الشارع على هذا الاجتماع ، وشدَّد فى طلبه . ففى صحيح البخارى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفسى بيده ، لقد هممت أن آمُرَ بحطب فيُحْطَب ، ثم آمُرَ بالصلاة فيؤذَّن لها ، ثم آمُرَ رجلاً فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأُحَرِّقُ عليهم بيوتهم ! والذى نفسى بيده ، لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقاً سميناً ، أو مِرْماتين حسنتين لشهد العشاء !)

والذى يلوح لنا من حكمة صلاة الجماعة أمور ، منها : استيلاء عظمة الله تعالى على النفوس ، وأخذ رهبته بمجامع القلوب ، بما تُحْدِثه هيئة المصلين ، وقيامهم فى صعيد واحد للعبادة ، من التأثير . ومنها : الأنسُ الذى يجدونه فى اجتماعهم ، والصلةُ ، فإنهم إذا اجتمعوا فى اليوم خمس مرات حصلت لهم الألفة ، وقويت الرابطة . وإن كنت فى شك من هذا فارجع إلى ما تعرف من حال المعاشرة ، تجد أن الذين يقل اجتماعك بهم ، قد يعودون أجانب منك ، وإن كانوا من قبل أصدقاء لك . ومنها : ظهور جماعة المسلمين مظهر القوة ، بهذه الاجتماعات المتكررة ، التى تنبىء بائتلافهم ووحدتهم ؛ وهذا داع إلى أن يعظم

أمر الدين ، ويرجع من ناوأه بالخيبة والخذلان . ثم تنبيههم إلى انتظامهم فى أمورهم ، وطاعتهم لإمامهم ، بما يرون فى الصلاة من استقامة صفوفهم ، ومتابعة الإمام .

أما احتفال الجمعة فهو أكبر ، وعناية الشارع به أتم ، قال تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) . ذلك بأن المعانى السابقة ، حاصلة فيها على وجه أتم ، وتزيد الخطبة لدعوة الناس إلى ما يصلح أمور دينهم ودنياهم ؛ وقد كانت من وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفائه من بعده . ولما تغيرت الأحوال ، وبَعُد الناس عن الدين ، صارت إلى أجير ، ربما لا يفقه شيئاً من أغراض الدين ، ومصالح الدنيا ، واتخذها حرفة كالتجارة ، يرتزق منها ، ويأخذ عليها أجراً ، ولكنه حقير .

أما الحج ، فهو ذلكم الموسم العظيم ، الذى تُضْرَبُ له الأرض ، ويؤمه المؤمنون من مشارقها ومغاربها ، حتى يجمعهم فضاءٌ رحيب ، يكاد يَميدُ بهم من تحتهم ، ولهم عجيج يفزع منه الطير فى كبد السماء . وقد ورد فى كثير من الآيات والأحاديث ، ومع هذا فلا نرى شيئاً أدل على عناية الشارع به ، من جعله ركناً من أركان الإسلام ، لا يتم معناه ولا تكمل صورته إلاّ به . قال عليه الصلاة والسلام : (بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً)

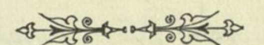
أما حِكَمه ، فمنها : التعارف بين جماعة المسلمين ، وتأكد الرابطة . وإنك لترى كل عامٍ ، عقب الحج ، ما يتجدد من الروابط والصلات ، بين أناس وآخرين ، ربما كانوا لا علاقة لبعضهم ببعض من قبل الحج .

ومنها : زيارة بيت الله تعالى ، والاطلاع على تلك البقاع التى فيها موضع الرسول ، ومهبط الوحى ، ومُتَنَزَّل القرآن . وهى ، على قحولها ، وبداوة سكانها ، وبعدها من الخصب والعمران ، تذكر بأن القوة التى فاضت منها فأذلت الجبابرة ، والرحمة التى تشقق من كوثرها جداولُ وجعافرُ أروت الناس ، ليس مما ينبغى أن يضاف إلى خصوبة أو مدنية ؛ إنما هى عناية الله ، وفضله المحض . وإذا كانت الأمم المتحضرة قد جعلت بيوت حكمائها وشعرائها مزاراتٍ يؤمها القاصى والدانى ، ورأت لهذا معنى ، فزيارة بيت الله ، ومَقَرِّ رسوله ، ومنبع العرفان والحكمة ، أولى .

ومنها : ما يعم سكان تلك الأجادب ، الذين هم جيرانه ، وحماة حرمه ، من الخيرات التى يسوقها اليهم جمع الحجيج .

ومنها : اجتماعهم بعَرَفة ، فى فضاء واحد ، ووقت واحد ؛ لنحو سماع الخطبة التى يجب أن تكون فى مصالحهم وأهم أحوالهم الحاضرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحج عرفة ، أو كما قال) . ومعناه : الإشارة الى السر الذى فى هذا الركن ، حتى صح أن يطلق الحج عليه ، وهو جزء منه ، على حد ما قال أمير المؤمنين (البلاغة : البصر بالمحجة) ؛ ونظيره إطلاق العين على الجاسوس ، مما هو شائع فى اللغة .

هذا وإن الحج لمؤتمر عظيم للعالم الإسلامى ، ينبغى أن يجمع عظماءه وأمراءه ، يتشاورون فى أمورهم ، ويقضون فى مصالحهم . ولكن المسلمين غيّرُوا وبدّلوا ، فحرموا هذه الثمرات ، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .



المحبة وأنواعها

وســــــيرة الإنسان مع أهل نوعه

المحبة : ما تجد فى نفسك ، من الميل إلى ملائم لك . ويقابلها البغض ، وهو النفور من غير الملائم . وهى وصف شريف جداً ، لأنها تخمد جذوة الرذائل ؛ ومعنى هذا : أن رذائل الشخص قلما تصيب من أحبه ، ومن ثم قيل : العدالة خليفة المحبة ، تستعمل حيث لا توجد المحبة .

بينا فيما سبق ، ثمرات الشفقة وأثرها فى العالم ، ولا شك أن مقداراً كبيراً منها مبنى على المحبة . فقد رأينا بعض المعامين جفاة غلاظ الأكباد ، لا يرأفون بأسيرهم ، إلا أنهم مع بنيهم أرق أخلاقاً من النسيم ، وأعطف من الدجاجة . ذلك بأن الشفقة ليست خلقاً أصلياً فيهم ، إنما هى ثمرة من ثمار المحبة .

الإنسان إذا أوتى قسطاً وافراً من محبة الناس ، صار بقدر قسطه إنساناً خيراً . فالذى يحب أمته محبة صادقة ، يسعى جهده فى خيرها . والذى يحب الناس ، ويخلص لهم ، يسعى فى حاجاتهم ، ويكون قريب الخير ، بعيد الشر ، ويجدهم فى سرائه وضرائه ، ويبقى حياته فى راحة . ومن لم يوفق إليها ، يلق كثيراً من الشدائد ، ولا يكون له نصيب فى الأنس الحاصل بالاجتماع ، وتكون خلوته خيراً . ولهذا ينبغى أن يكثر المربون من حديثها للناشئين . ويلفتوهم إليها ، قال سقراطيس : (إنى لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ، ووقائع بعضهم ببعض ، وذكر الحروب والضغائن ، ومن انتقم أو وثب على صاحبه ، ولا يخطر ببالهم أمر

المودة ، وأحاديث الألفة ، وما يحصل من الخيرات العامة بالمحبة والأنس . وإنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة ، وإن مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها . فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير ، فالصغير من ظن ذلك . اﻫ .)

وهى أجناس : فمنها : محبة الولد لوالديه ؛ فان المحبة ، والاخلاص ، والاحترام ، ديون يجب على الولد أن يؤديها ، إزاء نعم والديه عليه . قال عليه الصلاة والسلام : (الولد مَجْبَنَة مَبْخَلَة) ومعناه ، كما هو بين ، يدعو إلى الجبن والبخل ، ويحمل عليهما . فالوالدان لم يكفهما سائر نعمهما على الولد ، حتى صارا إلى التنازل من فضائلهما الشخصية . وقد قال تعالى : ولا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . أما تفصيل نعم الوالدين فبيّن ، فلا نطيل فيها القول .

ومنها : محبة المعلم للمتعلم وعكسها ؛ فالمعلم متى أخلص فى وجهته ، وتوخى الخير حقيقة للمتعلم ، وكان المتعلم مجتهداً قابلاً ، يبغى الخير ، تمت الألفة بينهما ، على نحو ما يكون بين الأب والابن . فإن المعلم ، حينئذ ، يحاول نقل صورته المعنوية إلى التلميذ ، ويكون هذا الأخير فى المعنى صورة منه .

ومنها محبة الانسان لأهل دينه : قال تعالى : (إنما المؤمنون أُخوة) . نعم إنهم ليسوا إخوة من النسب ، ولـكن اتحادهم فى العقائد والشعور العام ، وخضوعهم لسلطان دين واحد ، مما يقرب بعضهم من بعض ويجعلهم أخوة .

فاللازم أن يحققوا معنى هذه الأخوة ، بأن يستطلع بعضهم أحوال بعض ، على الأقل ، وإن كان هذا فى المشرق ، وذلك فى المغرب ، ويتعاونوا ويتناصحوا . وإلا فهم مؤمنون ، صورة ، وإنما الاخوة للمؤمنين حقا .

ومنها : محبة الجار ؛ لأنه امرؤ شديد العلاقة بك ، كثير الروابط ؛ وإن كان من بنى وطنك وهو الغالب ، فهذه علاقة ثانية ؛ وإن كان مؤمناً ، فهى ثالثة. وقد سنت الشريعة الإسلامية للجار كثيراً من الحقوق ، فارجع اليها . فى صحيح البخارى : قال عليه الصلاة والسلام : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه .

ومنها محبتك لوطنك وبنيه ؛ قال ابن الرومى :

وحَبّب أوطانَ الرجال اليهم ... مآربُ قضَّاها الشباب هنالكا

فوطنك هو الذى نشأت فيه ، وأقلتك أرضه ، وأظلتك سماؤه ، وغذاك نباته وحيوانه ، وأرواك ماؤه .

وطنك تراث لك من آبائك ، لم يصر إليهم عفواً ، إنما ملكوه بعد أن أدَّوْا ثمناً نفيساً ، هو دماؤهم التى سالت على حدود المناصل ، وأطراف الأسل ، وارتوى منها هذا الثرى ، الذى تطؤه الآن بنعليك . فإن استطعت فاخلع نعليك ، نعم ما أنت بالوادى المقدس طُوًى ، ولكنك بوادى النيل : حيث دماء آبائك المسفوكة ، ولحومهم البالية ، وعظامهم الناخرة .

خفف الوطء ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد

ألم تر إلى اليهود لما لم تبق لهم حكومة ولا وطن ، تشتتوا فى البلاد ، وبطلت جامعتهم ، وصار كل منهم نزيلا فى مملكة ، ثقيل الظل ، جامد النسيم . وبعض الممالك جعلوا يشردونهم من بلادهم ، ويذبحون شيوخهم وأطفالهم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . تلكم أمة الروس ، فانظروا إلى ما صنعت بهم .

ويا ليت شعرى : ما هو معنى الأمة ؟ وكيف يستقيم لها حال إذا كان كل جماعة منها نزلاء فى أمة أخرى ، تسومهم الخسف ، لا فى العير ولا فى النفير !

إن الكلاب إذا توطن جماعة منها فى بقعة ، فزاحمها آخر ليس منها ، أخذتها سورة الغضب ، وكشرت عن أنيابها فنبحته ، وصالت عليه ، وتأحَّدَت لإجلائه عن موطنها . ومثل هذا تشاهد فى القطاط المستوطنة فى منزل ، عند ما يزاحمها قط أجنبي ؛ وأظن هذا سنة فى سائر الحيوان الأعجم .

قد يكون لك البيت فى الحارة الرديئة ، وهو مع ذلك ضيق الحجر قليل الضوء ، فاسد الهواء ، فتحن اليه وتتعهده بالاصلاح . فيا عجباً لك ! كيف لا تحفل بوطن ، أما شماله فمطل على بحر الروم ، وأما جنوبه فمتصل بالسودان ، يشقه النيل ، ويغطى تربته بساط أخضر من النبات ، وتعلوه سماء زرقاء صافية الأديم ، ويتهادى بينهما النسيم ؟ ! إنك إذاً لظلوم ! أما بنوه فإنهم اخوانك الذين تربطهم بك روابط شتى ، كاتحاد المصالح ، والعوائد ، والحكومة ، واللغة ، والقانون ، والتربية ، والفكرة فى الجملة . فأنت فى أى بقعة من وطنك ، فى بيتك وبين عشيرتك . إذا اعتدل النيل فى فيضانه كنتم سعداء معاً ، وإن نقص عن الحاجة أو طغى ، فأنتم على حال واحد . وكذا إذا عدل القانون والحاكم ، أو جارا ، فإن شعوركم يكون واحداً ؟ ! فلا تعتبر هذه البلاد مع ذلك وطناً ينبغى أن تحبه ، وتحرص على خيره ، وسكانها اخواناً تودهم وتعمل لصالحهم ؟ ! إنك إذاً لظلوم ! ! إذا ارتحلت إلى جهة نائية نظر إليك قدر ما ينظر إلى وطنك ، كأنك تحمل رايته الحمراء ، ذات الهلال ، وفى صورتك الصغيرة ، انطوى هذا العالم الأكبر ! ! أفلا يكون هذا داعياً إلى

محبة الوطن وبنيه ، والسعى فى رفع ذكرهم ، وإعلاء كلمتهم ؟ ! نعم إن كنت ابناً بارًّا وأخاً يفهم هذه الروابط ! بل ينبغى أن تحب الناس جميعاً ، وتعاملهم بالمعروف لأنهم يخدمونك ، وإن نأت الديار ، واختلفت المذاهب . إن كنت تشعر من نفسك بذلك ، فأنت إنسان كامل ، وإلا فإن اقتصرت على محبة المصريين ، فما أحراك أن تدعى مصرياً فقط . نعم إن حقوق المصريين عليك أكثر .

وأخيراً لا يحسن أن يفوتنا تنبيهكم إلى أن الأديان على اختلافها ، قام فيها جماعة يَدَّعون العلم بها ، وهم أبعد الناس عن أغراضها ، فزرعوا البغضاء فى نفوس الناس وولدوا الشقاق فيهم ، والتفرق بينهم ، وصار الواحد يظن أن من ليس على دينه له فطرة أخرى . وتلا هذا كثير من المصائب فى بنى الإنسان ، فلا يخدعنكم مثل هذا . فالأديان إنما جاءت للتأليف بين الناس ، وإصلاح الفاسد ، من عوائدهم ومعتقداتهم ، فلا ينبغى تأويلها بالتفريق والعداوة بينهم ، وجعلها مانعاً من محبة الناس ، بعضهم لبعض ، ورحمتهم ، ومعونتهم ، عند الحاجة . فالخلق عيال الله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .



الصـــداقة

وما يجده الصديق مع صديقه ومع الناس

إذا تمت المحبة بين شخصين ، وكان هناك مشاكلة فى الطبع ، وتوافق فى المذاهب ، وائتلاف تام حتى كأنهما شطرا كرة ، أطبق أحدهما على الآخر ، حصلت الصداقة . وكما أننا لا نجد فى الأشياء المحسوسة ، كالألوان والأصوات ، اتفاقاً تاماً بين فردين منها حتى نحسبهما واحداً ، كذلك الشأن فى أحوال النفس ، مع كثرتها التى لا تنضبط . قال ارسطاليس : إن المعول فى الصداقة الحقة ، على السرور الذى يجده أحد الصديقين ، من فضائل الآخر ، وأوصافه الراسخة . ولهذا لا تحصل إلا بين الأخيار ، وتدوم الدهرَ بينهم . أما المنفعة المشتركة ، والميل العرَضى ، فليسا من دواعيها . نعم إنهما سببان فى الاتصال ، الذى يؤدى أحياناً الى ضرب منها ، ولكنها حينئذ تكون مهددة بالزوال ؛ لأنه متى انقطعت تلك المنفعة ، فما أقرب انحلال الصداقة ! كما أن عروض ما يخل بالمساواة بين الصديقين إخلالاً واضحاً قد يبطلها . لأن تذكر المساواة السابقة ، مما يصير الحال الطارئة وقرا على الصديق ، الذى لم تلاحظه عين العناية . ومن أجل هذا ، كانت التغييرات العظيمة فى حال أحد الصديقين ، تنتظر منها انحراف مجرى الصداقة . اهـ بتصرف

والصداقة التى تنعقد فى الصغر ، تكون أمتن وأجدر بالبقاء ، من التى تنعقد فى الكبر . فإن صراحة الشاب ، وإقباله على الناس ، وثقته بهم ، تكون أكمل . ذلك بأنه قضى أيام عمره فى دار أبيه ، فلم يَبْلُهم ، وهو مع هذا شارع فى دراسة

العالم ، ومدفوع إليها ، بخلاف الكبير ، فانه بَلَاهُم ، فصار حذِراً منقبضاً عنهم بعض الانقباض .

أما الأخلاق التى ينبغى أن يكون عليها أحد الصديقين ، فهى فى الجملة ، الأخلاق التى ينبغى أن يكون عليها مع سائر معاشريه ، وإن كانت تظهر هنا فى صورة أكمل . وذلك كالصراحة ، وقد تصل بين الصديقين إلى ألا يكتم أحدهما من الآخر أمراً كائناً ما كان ؛ والسخاء ، وقد ينتهى أمره الى أن يصير مال أحدهما كأنه مشترك بينهما ، كما قيل : (لا حرج على الصديق فى مال أصدقائه) ، والاحتمال ، ونحوها .

وثمرة الصداقة على وجه عام ، أن كلا من الصديقين يجد فى الآخر كمالاً له ، فى رأيه ، وتجاربه ، ومعارفه ، كأنه أضاف إلى عمره عمراً آخر ، أو تضاعفت نفسه ، وظهرت فى هيكلين .

قال بعض الحكماء : الصديق هو آخر فى الشخص ، الا أنه أنت فى النفس .

وليحذر الأصدقاء من الأمور الآتية ، كما نبه علماء الأخلاق :

إذا لاحظتك عين العناية ، فجزت حالك إلى أرقى منه ، فلا يدفعَنَّك ذلك إلى الفخر ، ولا توجه عنايتك إلى أن يطريك صديقك ، ويثنى عليك ، بأنك خليق بهذه المنحة . ويُطْلَب مع هذا أن تعرض عليه مما نلت ، على وجه لا ينفره .

إذا أصاب صديقك نعمة ، فكن متحفزاً لأن يطلعك على ما صار إليه ، مع مقاسمته سروره ، ولا يأخذنك الطمع فى مقاسمته ذلك الذى صار إليه . أما إذا تثاقلت عن مشاركته فى سروره ، والإقرار بأنه جدير بذلك ، صُرِف تثاقلك إلى الحسد .

وإذا أصابتك جائحة من الدهر، فلا تسع فى كتمانها عنه ، ولا تنقبض من حُنُوٍّ يهديه إليك ، وإن كان مثل هذا الحنو مما لا ترتاح إليه النفس أحياناً .

وإن أَلَمَّتْ بصديقك يوماً ملمات ، واستطعت أن تصرفها عنه ، أو تحتمل شيئاً منها ، فافْعَلْ ؛ ولا تُلِحَّ عليه فى طلب إخبارك بما أَلَمَّ ، وكيف أَلَمَّ . وكن حَذِراً عند ظهور شفقتك عليه ، فلا تظهر منها قدراً يثقله . وإياك وأن تظهر له أنه السبب فيما ألم به ، كأن تقول له : أخطأت فيما صنعت ، ألم أقل لك إن ما صنعت يؤدى الى ما حل بك ؟ فإن مثل هذا القول مما لا يتحمله أحد من الناس ، جرَّ على نفسه مصيبة ، وإن كان حقاً كيفما كان ، بل تراه فى هذا الحال يبحث عن آخر يلصق به الخطأ ، ليخلص من الندم على ما فرط منه .

ونذكرك بأن بعض النـــاس قد يصطفون الجهلاء لأمر يعجبهم فيهم ، فيلقون منهم عنتاً . واذا انحلت صداقتهم أفشوا أسرارهم ، وأوقفوا الناس على ما لا يحبون ، فاحذرهم .

احذر عـــدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربمـــا انقلب الصديـــق فكان أعلم بالمضرة

هذا ، وينبغى أن تحذر مع جميع النـاس أموراً أنبهك على واحد منها ، جدير بالعناية ، وهو عدم التعويل على أقوالهم ، وصورهم التى يظهرون لك فيها ، حتى تَبْلُوَهم .



ما ينبغي الاقتصار عليه

من المأكل والملبس ونحوهما

أسلفنا أن الإنسان مفتقر إلى مطعم يحفظ به بقاء هيكله ، وسرابيلَ تقيه الحر والبردَ ، ومسكن يؤويه ويمنعه من العاديات . فينبغي أن يقتصر فى أمر مأكله على ما يؤدى هذا الغرض ، ولا ينال منه إلاّ بقدر ما يغذى جسمَه ، ويحفظ اعتدالَ مزاجه ، ويعوض ما فقده بالحركة والعمل . لا يزيد على ذلك إلاّ بمقدار يدفع عنه عيب البخل باعتبار العرف ؛ فالمعدة ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، بيت الداء . ولا يفوتنك أن خروج المأكل عن البساطة ، والاكثار من ألوان الطّعام ، والاستعانة على التناول منه بنحو التوابل ، وصرفه إلى اللّذة ، حتى كأنما عاش الإنسان ليأكل ، مما يذهب بالقوة والصحة ، ويستتبع كثيراً من الأمراض والآلام . ويظهر لك ذلك إذا قارنت بين الذين يعيشون معيشة بدوية ، وبين الموسرين من سكان المدن .

وينبغى أن يقتصر الإنسان فى أمر الملبس على ما يكون موافقاً للصحة ، من جهة سعة الملابس وضيقها ، وحرارة الجو وبرودته ، مساعداً له على العمل ، غير ذاهب بنشاطه ، ميسّراً له خلال الخير ، نحو الصلاة ، فان للملابس بلا مرية تأثيراً فى بعض العوائد والأعمال . ولا يخرج فيها عن الحشمة ، ولا يتأنّق فيها إلاّ بمقدار ما جرت عادة المعتدلين من طبقته ، حتى لا يزدريه العرف ، ولا يسخر به . وإن « القفطان » وخصوصاً بعد تعديل قليل ، خير من « البنطلون » .

وكذلك ينبغى الاقتصار فى المسكن على أن يكون موافقاً للصحة من كل وجه ، حسن الشكل ، متين البناء . يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : اعمل

لدنياك كأنك تعيش أبداً . أما النقوش والزخرف ، وارتفاع البناء فوق الحاجة ، مما يضاعف النفقات بغير معنى صحيح ، فهو تبذير مذموم .

غالى بعض الناس ، وخصوصاً فى القرى ، حيث يغلب التفاخر ، وتشتد الغفلة ، فأتلف جميع ثروته فى تشييد منزل ، بل احتمل بعضهم من الدين فوق طاقته ، فلم يستطع أن ينهض به .

وكذلك الحال فى الملبس ، جعله كثير من الشبان زينة ، فتأنّقوا فيه ، وأكثروا منه ما شاءوا وشاء لهم الهوى ، حتى أتلفوا فى سبيله أموالاً جزيلةً . وخرج كثير من النساء عن الحد فى الحرص على اللباس المزين ، ووقع من أجل هذا بعض الأسر فى الضنك والفاقة ؛ فقد يكون عند الرجل قليل من المال جمعه لأمر يعرض ، أو لأمر بعينه ، فلا تحسب المرأة ذلك شيئاً فى جانب حاجتها إلى حلة مزخرفة ، فيقع الرجل بين حالين ، أحدهما شر من الآخر : إما أن تفوته حاجته على شدة اضطراره إليها ، أو يقع مع زوجته فى شقاق .

وكذلك أمر المطعم ، أوقع التأنق فيه ، والإكثار منه ، عدداً من الناس لا يحصى ، فى انحراف الأمزجة ، واختلال الصحة . ولو تأتى لنا إحصاء مرضى بطونهم وقتلاها ، لحصلنا على عدد يوقع فى الدهشة ، وعلمنا فوق علمنا الآن ، أن العالم بأسره خسر جزءًا من قوّته أىّ جزء .

وبالجملة ، فإن مجاوزة الناس الحد ، فى المطعم والملبس والمسكن ، ألقى على ظهورهم أعباء من النفقات ثقيلة ، ففقدوا راحة الدنيا فى سبيل جمعها ، وأمات فيهم كثيراً من الفضائل ، وأحيا كثيراً من الرذائل ، فقلّ الخيرُ وكثر الشر . وحبذا لو تأتى إنفاق هذه القناطير المقنطرة ، من الذهب والفضة ، فى إصلاح شأن الإنسان وإكماله .

كلمات قالها بعض المدرسين فى مدرسة المعلمين الناصرية يخاطب بها الطلبة الذين قبلوا فيها
سنة ١٩٠٩ — ١٩١٠ يوم استقرارهم بها

من أنتم ؟ وماذا يراد منكم ؟

الفضيلة ، ونعنى بها الخُلُقَ الفاضل ، والعلم ، هما السبب الأقوى فى رقى الإنسان . والرذيلة ، ونعنى بها الخلق الناقص ، والجهل ، هما السبب فى هبوطه عن معارج الكمال . فكل أمة عليها أن تسعى فى الاقتراب من الأوَّلَين ، والابتعاد من الأخيرَيْن ، قدرَ حرصها على رِفْعة شأنها وبُعدصِيتها . وقد ندبتكم هذه الأمة المصرية ، التى قعد بها بعض أخلاقها ، وعدم رسوخ قدمها الآن فى العلم ، والتى أنتم من أعضائها ، لتخلفوها فى تربية أبنائها ، وتخرجوهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، وتقوموا فيهم باستئصال الرذيلة وغرس الفضيلة ، كما انتدبت غيركم من المعلمين . فاسعوا جهدكم فى أداء ما عهدت به إليكم على الوجه الحق ، سعياً تعملون فيه فيه ضمائركم وأفكاركم ، لا أرجلكم وأقدامكم ؛ وهذا قول مجمل أفصله لكم بعض التفصيل :

أيها الطلاب ! عند ما كنت طالباً مثلكم فى هذه المدرسة ، قرأت فى بعض كتب الكيميا : « قال الفاضل لافوازييه كذا » ، فقلت فى نفسى هذا خُلْفٌ بيّن ! لأن كلمة فاضل تستعمل للدلالة على الاتصاف بالعلم ! وأنى جاء العلم لمسمى بمثل هذا الاسم ؟ ! ذلك أنى كنت أتوهم أن لفظ علم ، ليس من حقه أن يستعمل إلا فى الفقه والنحو والصرف ، وأشباهها ، مما يُعَلَّم فى الأزهر . كما كنت أستنكر بعض الاستنكار ، أن يقال : « العالم الفاضل فلان أفندى » ! جرنى عهدى بنفسى

يومئذ ، وإن لم يكن من غرضى القول فى العلم أصالة ، أن ألم بما يأتى ، فربما كان بينكم من يزعم مثل هذا الزعم :

إن موضوع العلم ، كما يكون اللغة ، كالنحو والصرف والبلاغة ، يكون كل شىء فى هذا العالم ، من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وجميع ما تقع عليه حاسّة ، أو يحيط به فكر . ولئن كانت ثمرة علم الصرف مثلاً صون اللسان عن الخطأ فى المفردات ، ومراعاة قانون اللغة فى الكتابة ، إن ثمرة الدراسة لهذه الأشياء التى تحيط بنا ، بَسْطَة سلطاننا على العالم ، وتسخيره فى مصالحنا ، واندراجنا اندراجاً بيّناً فى المخاطبين بقوله تعالى « خَلَقَ لَكُمْ ما فى الأرض جميعاً » . ولا ينبغى لنا أن نستهين بدراسة عِلْمٍ ، وإن كان موضوعه ضئيلاً حقيراً فى نظرنا ، فليس ثمة عِلمٌ بحيث تصدنا حقارة موضوعه عن دراسته بعناية ، وإن كان علينا ، يوم يُوكل الاختيار إلينا أن نوجهه إلى ما يرتبط بسعادتنا وإتقان عملنا فى هذا المجتمع . وربما كانت دراسة الشىء التافه ، كالنمل ، سبباً أو جزءاً من السبب فى تيقظ شعورٍ فينا ، أو تحرك ميلٍ ، بحيث تكون هذه اليقظة والحركة أساساً متيناً لأعمال كبيرة ، تجلب لنا السعادة عاجلاً وآجلاً .

إن كانت الأخلاق الفاضلة سبباً بَيِّناً فى تحصيل العلوم والعمل بها ، فإن للعلوم كذلك أثراً فى الأخلاق لا ينكر . فمن درس الحيوان ووقف على الأسرار والثمرات المودعة فيه ، خليق بأن يجد من نفسه رحيما به شفيقاً عليه . لهذا أنصح لكم باستقبال جميع العلوم الحديثة ، التى تلقى عليكم ، بالإكبار والإقبال التام ، حتى ترتوى بها نفوسكم ، وتخصب ، إن شاء الله تعالى .

أيها الطلاب ! ليس العلم — وإخالكم تعرفون رفعة شأنه من قبل — أمرا أَخْلَقَ بعنايتكم به من الخلق الفاضل . فان هذا الأخير عليه تدور السعادة ، كما ستعلمون

مما يأتى ، فى خلال الدراسة . إن كان العلم بمنزلة مصباح فى يد العامل يستضىء به وقت العمل ، فإن الأوصاف النفسية ، وهى على الجملة أخلاق الشخص ، هى التى تعده للعمل ، وتدفع به إليه ، وتمسكه فى خلاله .

فالعلم بمثابة بصر الشخص ، والفضيلة بمثابة قوّته . النفوس الكبيرة تحصل لنا العلم ، والعلم لا يحصل لنا النفوس الكبيرة . إن عظماء الرجال فى هذا العالم ، الذين تولوا هداية أو إصلاحاً أو فتحاً ، أو قاموا بكشف أو اختراع ، لولا ما هم عليه من شجاعة وثبات ، وصبر ومحبة للناس مثلا ، لم يستطع عالمهم أن يعمل بعلمه شيئاً . أما الذين لم يكونوا منهم فى مصاف العلماء — وهم أكثرهم فيما يظهر — فقد كانت رءوس أموالهم الأخلاق الفاضلة وحدها .

إن الخلق الفاضل يهدى إلى المجتمع الإنسانى رجالا عاملين نافعين ، أكثر مما يهدى العلم . وإن الرجل الكريم الأخلاق ، الذى لم يسمع من العلم إلا صوت ضميره الطاهر ، ولم يقرأ من كتبه إلا أسطراً من صحيفة الكون المنشورة لمطالعة القارئ والأمى ، أكثر نفعا لهذا المجتمع ، وأقل ضرراً عليه . كم فى سجون هذا العالم من رءوس كبيرة بيضاء ، لأن معها قلوباً صغيرة سوداء ؟ ! ذلكم بأن العلم إذا صحبه خلق الشر ، خليق فى الكثير من أحواله بأن يُطرح فى السجون المظلمة ، حتى يستريح هذا الناس من شره . وجملة القول : إن رجال الخير والعمل ، هم رجال الأخلاق ، قلّت معارفهم أو كثرت ؛ وإن رجال الشر والفراغ ، هم رجال الرذيلة ، قلّت معارفهم أو كثرت . فأحلّوا الأخلاق الفاضلة من نفوسكم محلها .

أيها الطلاب ! نحن نعترف ، مع الأسف ، بأننا كذابون ، لا نصدق فى قول ولا عمل ، غشاشون ، إذا وَلِى واحد منا أمراً لا يديره على وجهه . لا يجلس بائعنا بين الجمهور ، يبيع بضائعه منه بالصدق والأمانة ، إزاء ربح لائق تقوم به معيشته ،

بل يجلس جلسة لص محتال ، وبضائعه أمامه وسائل لرواج حيله ونفاذ غشه . يزيد فى الثمن زيادة فاحشة ، ويعرض الردىء باسم الجيد ، وينقص المكيال والميزان ؛ ويريك الشىء ، وعند نقد الثمن يحاول أن يخدعك بإعطائك أدنى منه . ويقول فيكذب ، ويؤكد قوله بالأيمان ، فيكون كأبى المثنى :

وأكذب ما يكون أبو المثنى إذا آلى يميناً بالطلاق !

ويسلبك من النقود ما استطاع ، كما يسلبك من الزمن ، وثقتك بالناس ، وركونك إليهم ، وأنسك بهم ، شيئاً كثيراً . وصانعنا أيضاً يجرى على سننه : يقول فيكذب ، ويعد فيخلف . وموظفنا لا يسعى فى طريق الاصلاح لقومه ، بل يسلم نفسه إلى الأغراض والأطماع ، ولا يهمه عدل ولا حقيقة ولا مصلحة ؛ إنما هى صور يريد أن يدفع بها سؤال من فوقه . فالجمعية صورية ، وكل يعمل لنفسه وإن آذى غيره ، ويسعى فى تحصيل المال من وجهه ومن غير وجهه ، بلا مبالاة بالفضيلة ، ولا رجوع إليها فى شىء . إننا وَكِلُون غير مستقلين ، يغلب علينا التقليد ، وصرخة واحدٍ ينقاد لها الجمع من غير تفكير ؛ وليس فينا من يعول على نفسه حقا . وهذا مما يجعل كثرتنا قِلّة ، وألوفنا لا يساوون آحاداً . إننا مغرورون ؛ نحسب لأنفسنا ، فى ذاتنا ، وبالاضافة إلى غيرنا ، ما ليس شيئا . والغرور من أسباب الغطرسة ، والمقت والجهل والتأخر . إن رفعنا أصواتنا نفخر بما شيده قدماء المصريين من أهرام ونحوها ، لدلالة ذلك على وجود بعض الصناع والعلوم فيهم ، فما أحرى هذه الأصوات العالية فى الفخر ، أن تصرف فى الشكوى من سوء الطالع ! ؟ لأننا من يوم تشييد هذه المفاخر المزعومة ، ابتدأت أغلال العبودية توضع فى أعناقنا ، فأخذنا نهبط إلى الأخلاق التى استقررنا عليها اليوم . وما كان أحسن حالنا لو كنا فى أعصر ابتناء تلك المفاخر الوهمية ، نرعى الابل والشاء

فى الصحراء، وبقينا على أخلاق الفطرة ؟! إننا جاهلون ؛ ينبغى أن نفكر حتى نشعر بجهلنا، ونعمل أقدامنا فى سبل العلم، ونلقى عنا لباس الكسل، الذى طالما أخذناه. إن كنا قد سبقنا الأمم المتأخرة خطوات، فقد سبقتنا الأمم المتقدمة فراسخ. هذه الأخلاق ونحوها، مما نحن متصفون به، هى السبب فى تأخرنا، وَحيْرتنا، وتألمنا.

وإنا لا نشك فى قدرة المعلمين المخلصين الأمناء، على أن يجعلوا من الصبى الصغير، رجلا كبير النفس، شريف المقصد، طاهر الذمة، طيب الأخلاق؛ ولا سيما متى طال الزمن، وانتشرت التربية فى الأسرة والأمة. وإلا فما لنا نشاهد الذى نشأ بين قوم مستمسكين بالصدق، يكون صادقاً، وابن اللص يصير لصا، إذا لم يكن للقدوة الحسنة أو السيئة تأثير؟! ومثل الصدق والخيانة، غيرهما من الأخلاق، إلا النذر الذى يرينا التأمل خروجه عن طاعة الشخص، وارتباطه بالعصب تمام الارتباط، وانقياده لأحواله المختلفة، كالجزع من أقل شىء. على أنه ليس من البعيد أيضاً، إمكان التأثير فى هذه الأخلاق، بواسطة التأثير فى الأعصاب. إن الأخلاق والأميال موضع للتغيير. وكما أن النواة متى صادفت الغذاء اللائق صارت نخلة كبيرة، كذلك الخلق، متى مدته الملائمات والفرص، صار ملكة راسخة، ووجدانا يتعسر أو يستحيل قلعه. كم من سخى بعض السخاء، صار فى آخر أمره مغرى بتوزيع ماله فى طرق الخير، لا يكاد يمسك منه قوت يومه؟! صيره إلى ذلك ثناء الناس عليه، مثلا، وتوالى بذله، حتى استولت على نفسه ملكة السخاء. لذلك يقال بحق: السخاء بالتسخى. وكم من ذمة صالحة بعض الصلاح، رفعتها أمور إلى مرتبة شامخة، حتى صار صاحبها حريصاً على طاعة ضميره، حرص الجبان، جبان الحرب على نفسه؟! وكم من أبىّ صادفه

فى طريقه أشياء أنسته ما كان له من الإباء ؟ ! وكم من خائن كان يتردد ويرتجف فؤاده عند سرقته الدرهم ، أصبح لا يتردد عند سرقته القناطير ، وسفك الدماء ، بعد أن أخرس ضميره وقضى عليه ؟ ! ولكن استعداد الأخلاق والآداب للغرس والجث ، والمد والجزر ، أتم ما يكون فى زمن الصغر . ولهذا يسهل علينا نوعاً ما ، أن نرى بعض الرذائل فى الصغير ، لبقاء أملنا متعلقاً بإقلاعه عنها ، ونزوعه إلى الصلاح . أما إذا شب على الرذيلة فقد انتهى الأمل فيه ، وطال الحزن عليه .

أيها الطلاب ! — أنتم الذين رضيتهم هذه الأمة أن يخلفوها فى أبنائها ، تقومون فيهم بنشر العلم وبث الفضيلة ، حتى تؤهلوهم لأن يكونوا فى الغد أمة خيراً منها اليوم ، أروحَ بالا ، وأعلى قدراً ، وأرفعَ ذكراً .

أنتم الذين يستطيعون ، تمام الاستطاعة ، أن يؤدوا لقومهم وديارهم ، المعونة الكبرى ، متى أخلصوا فى أعمالهم ، وفكروا حقاً فيما نيط بهم ، ولم يكن همهُم كسبَ المال . أنتم الذين رأت الأمة معونتهم فى الحال ، ليعينوها فى الاستقبال عند قدرتهم . عجلت لكم الثوابَ على مالم تفعلوا بعدُ ، فرحبت بكم خمس سنين على مائدتها ، وقدمت لكم من الكتب ووسائل التعليم ، ما تحتاجون إليه ، وأعدت لكم المعلمين على نفقاتها ، كما أمدتكم بشىء من المال . فعلت كل هذا بواسطة رجال الإدارة منها . فعسى أن تجدوا فى أنفسكم شهامة تحملكم على الاعتراف بهذا الإحسان ، والتفكير من اليوم ، فى أمر أبنائها وبناتها ، قدر ما يرضى لكم زمن الدراسة ، حتى تقابلوا هذا الثواب المعجل ، بشىء من الواجب معجل . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ !

أنتم الذين رضيتهم هذه الأمة قُدًى لأبنائها ؛ فأصلحوا أنفسكم بالآداب والفضائل ، حتى يكون لهم منكم قُدًى صالحة .

أنتم فى الأمة صِنْف من الكُتَّاب متميز ، بأيديكم من نفوس أبنائها و بناتها ، صحفٌ نقيةٌ بيضاء ، فاكتبوا فى هذه الصحف النقية البيضاء بمداد الفضائل ، ما تستطيعون .

أنتم فى الأمة صِنْف من الزراع متميز ، بأيديكم من نفوس أبنائها و بناتها ، تربة طيبة مخصبة ، فخذوا أهبتكم لأن تغرسوا فى هذه التربة الطيبة المخصبة ، من الآداب والفضائل ، ما تستطيعون .

أنتم فى الأمة صنف من الأمناء متميز ، أودعتكم الثمين النفيس من قلوب أبنائها و بناتها ، فاتقوا الله تعالى أن تمسخوا هـذه القلوب الطيبة الطاهرة ، بتفريطكم فى جانب الأدب والفضيلة .

خذوا أهبتكم لإصلاح قلوبهم ، قبل أخذها لإصلاح ألسنتهم . وإلا فماذا تنفع ألسنة مستقيمة ، وقلوب معوجّة ؟ !

وفكروا من الآن ، فى أن هذا أول واجب عليكم ، حتى تنتهى هذه الفكرة يوم مباشرتكم لعملكم بالوجدان .

وعودوا أنفسكم اتباع ما توحى إليكم به ضمائركم ، لا ما تزينه لكم أهواؤكم . وإن تلجلجت هذه الضمائر التى منيت منّا بالقطيعة ، فهذا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فاحرصوا على الأخذ بآدابهما . ولا ينبغى أن تعتصموا بالمندوب ، من إرسال العَذَبات ، وإحفاء الشوارب ، وإعفاء اللحى ، وتنصرفوا عن الواجب الذى يقضى به مثل قوله تعالى :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »

لم أر أشد تأثيراً فى تكوين الفضيلة فى النفس ، من قراءة قصص الفضائل وسِيَر الفضلاء ؛ فاحرصوا ، من الآن ، على جمع ما ترونه منها موافقاً للناشئين ، حتى تلقنوهم إياه متى جاء الوقت .

وخذوا من الآن ، فى التأمل الصادق ، والنظر الصحيح ، فى أخلاقنا ، وما جرَّته علينا ، حتى يصبح لهذه المسألة الخطيرة موضع رحب من صدوركم . وأسأل الله تعالى أن يتولانا بمعونة منه ، ويوفقنا لإيقاظ ضمائرنا ، واستماعنا لما تناجينا به ؛ كما أسأله تعالى ، أن يهب لنا الاخلاص ، والصدق فى القول والعمل .



اضافة

الأخلاق العمليــة

زرت الأستاذ — رحمه الله — يوماً فى منزله ، عقب رحلة إلى مستشفى الرفق بالحيوان ، فسألنى عن الصندوق الذى يواجه الداخل من باب المستشفى ، وعما دفعته فى الصندوق عقب الزيارة ، ولما علم بأنا لم ندفع شيئاً قال : وما فائدة الزيارة إذا لم يتبعها إحسان ؟ ثم كان درس فى الأخلاق العملية ، استغرق نحو ساعتين ، على عادته فى المحادثة التى كانت تتحول دائماً إلى محاضرة قيمة .

وتلك كانت خطته فى قرن العلم بالعمل ، من الوجهة الخلقية .

ولقد ضرب لنا مثلاً عملياً ، من آثار دراسته الخلقية ، فلم يفته المشاركة فى الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ م بقلمه ولسانه ويده وماله ، فكتب فيما كتب ، أربع مقالات فى جريدة « المؤيد » ، بالعنوانات الآتية :

(١) عيد بأية حال عدت يا عيد ؟ فى ٧ من ذى الحجة سنة ١٣٣٠ هـ

(٢) رحمة لبقية سيف ونار ! فى ١٦ منه

(٣) عطفاً أيها الأطباء ! فى ٢٢ منه

(٤) هل للمهاجرين من أنصار ؟ فى ٢٩ منه

وقد رأينا إضافتها لمذكرة الأخلاق ، نتيجة عملية لما فيها من دروس أخلاقية ، كما أنها دروس أدبية ، ودروس وطنية ، ودروس اجتماعية ، ودروس دينية أولاً وأخيراً .

ونسأل الله الذى وفقه ، أن يجزيه عن الإنسانية خير ما يجزى به عبداً من عباده المخلصين . آمين .

عيـــد بأية حال عدت يا عيـــد !

جاء عيد الأضحى ، وكان إخواننا العثمانيون يأخذون له أهبته ، كما نأخذها نحن الآن ؛ وتطلق فى ديارهم المدافع بِشْراً بقدومه ، وإيذانا بحلوله ، كما تطلق عندنا . وها هم أولاء الآن ، لا يعدون لهذا العيد شيئاً !

نعم أقول بحق ، إخواننا فى الإنسانية . ولئن رجعت هذه الأخوة إلى آدم — والعهد بعيد — فهم إخواننا فى الدين ، والدين أصل من أصول الجامعة البشرية . إنهم أيضاً لإخواننا فى الرحم القريبة . أليس كثير منا يدخلون بيوتهم ، فيتلقاهم فى أزواجهم سيدات عثمانيات ، و بنون منهن و بنات ، ترقرق فى وجوههم دماء عثمانية ، كما ترقرق فيها دماء مصرية ؟ ! خلط بعضَنا ببعض طولُ الصحبة ، ووحدةُ الدين ، وامتزاجُ الدماء ، فاكتملت فينا الاخوة . فان كنا بحيث لا تستميلنا إليهم روابط الإنسانية ، ولا تستفزنا أسباب الدين ، ولا تعطفنا عليهم فى بؤسهم أواصر القرابة ، أصاب المقال فى إحساسنا موضعا !

بلى ! إن العثمانيين أيضاً لينصبون لعيدهم أمارات ، ولـكنها فى معناها ليست كأماراتنا ! إن العثمانيين فى هذا العيد تصنع لهم ثياب جديدة ، ولـكنها تصنع عصابات وأربطة لجراحهم ، وأكفانا لقتلاهم ، لولا أن الشهداء يكفنون فى لباسهم ، مضرجين بدمائهم الطاهرة ! إن العثمانيين فى هذا العيد لمتخذون علامات فى لباسهم ، ولـكنها علامات حداد لا علامات زينة ! إن اخوانكم العثمانيين لتراق فى عيدهم أضاحٍ كما تريقون ؛ ولـكنها ضحايا من رجالهم وأبطالهم فى حماية الذمار ! فى مقابل الأضاحى فى مصر ، تراق فى هذا العيد الأكبر ، بديار اخوانكم ، دماء أبطال عثمانية ،

معصومة نقية ، تخضب بها أراضيهم وديارهم فى كل مكان ! إن العثمانيين فى هذا العيد الأكبر ، ليسمعون قصف المدافع ببلادهم ، فوق ما تسمعون ببلادكم ؛ ولكنها ليست مدافع للبشر ، والايذان بحلول العيد ! إنها مدافع تنساب منها النيران ، لنهب نفوس أولئك الأبطال ، وتأييم النساء ، وتيتيم البنات — والحرب مائمة ميتمة — ونقض بناء الاسر ، وتقويض صروح السعادة التى شادتها آمالهم وأعمالهم ، على تعاقب العصور الطويلة ! إن العثمانيين في هذا العيد لمجهزون أطعمة خاصة ؛ بيد أنها أطعمة ملائمة لجرحاهم ومرضاهم ! إن العثمانيين لمرتحلون لهذا العيد مركبات ، ولكن لا تسير بهم فى تحيات وتهانٍ ؛ إنها مركبات ، أما بعضها فللمسير بهم إلى صف القتال ، واقتحام مآزق الحرب ، ومركبات أخرى يسلكون بها من بلادهم كل درب ، فى شئون مصائبهم من كل ضرب ! وأما سائرها فيرتحلونه فى سبل الجلاء عن أوطانهم وأموالهم وقومهم ! فويل لأهل الأرض من تلظى نيران الحروب ، وفعلها القاسى بالإنسان ! ! ان هذا العيد له ضجة فى كل دار عثمانية ؛ ولكنها أعوال النساء ، وأنات المحزونين ، وزفرات المنكوبين ، لا هتاف صبيتهم بالسرور ، كما كانوا يهتفون للعيد من قبل ! وأى صبية يهتفون بالسرور ، فى حجور أمهات معولات ، وعمات باكيات ، وخالات تصب العبرات ، وقرابات كلها موجعات ، وأنواع شتى من المصائب ، إن تهيأ للقلم ذكرها ، طال عليه سردها ؟ ! !

وما للعثمانيين والعثمانيات ، إن لم يحالفوا صبراً لم تَجْرِ بهِ العادة ، لا يتابعون تسكاب الدموع ، حتى يستنزفوا ماء الشئون ، على آلاف مؤلفة من حماتهم ، أُلقُوا — والعهد قريب — فى حفرهم ، وآلاف مؤلفة ، يجودون فى العيد بأنفسهم ، ومثلهم فى مزدحم الوغى عليهم الطير ترقبهم وقوعاً ؛ وآلاف الآلاف ، أصيبوا بمصائب لا يأتى الإحصاء على بعضها ؟ ! نفوس سالت على ظباة السيوف ،

وأبطال كرام صرعى الواجب ، يكاد السهل والجبل يضيق دونهم ، مجندلون على الغبراء ، ممرغون فى التراب ، ملطخون بالدماء ، يعالجون سكرات الموت، عطاش يستسقون فلا يُسْقَو ن ، ولا ينالون من هذا العالم إلا سنابك الخيل ، نهاية شقوتهم فيه ! وأسرى يُطْعَمُون فى عيدهم ألوانا من العذاب ، تنتاب صدورهم الوساوس والهموم ! استولى عليهم الذعر والقلق ! لا يدرون بكل ما يحل بهم وبدارهم ، وإن الشقى بسوء ظن مولع ! وصنوف شتى من الجرحى : فمنهم من أخذت المدافع يديه ورجليه ، ومنهم من بتر الرصاص منه بعض ذلك ، ومنهم من كسر فكه ، ومنهم مَنْ فقئت عينه ، ومنهم من جدع أنفه ، ومنهم ومنهم ! ! غصت بهم الديار ، وضاقت عليهم المستشفيات بما رحبت ، وقرت معهم فيها حمى تستعر نارها ، وأقام بهم فى مضاجعهم آلام كثيرة ! وأطبـاء وممرضات على وفرتهم قليلة ! ونيران وتحريق ، يحصد كل شىء ، ولا يبقى على شىء ! ومخدرات وغير مخدرات شتى ، وجماعات ، وشيوخ وأطفال ، يتململون فى الفاقة والحزن ، ويشردهم من بلادهم الفزع الأكبر ، وقد كانوا قبل ذلك مُتْرَفين ! كانوا يرتعون فى بسطة من العيش والمسرة والأمن ! ضعفوا إلا عن ندب قتلاهم ، وبكاء أسراهم وجرحاهم ، ومتابعة الزفرات على ديارهم ، وما اشتملت عليه ديارهم ! وبالجملة ، أسرة كبيرة ، وأمة أصيبت فى كل عزيز عليها ، وأحدق الخطر بملـكها ، وزلزلوا زلزالاً شديدا ! ! تلكم ، أيها القراء ، صورة من تصرف الحرب ، لا من تصرف الخيال والقلم !

أفبعد هذا لا تدب فى صدورنا الرحمة ، ولا يتمشى فى قلوبنا الحنان ؟ ! !

إن كنا مع هـذه الذكرى لا نحطم مصابيح العيد ، ولا نلقى عن كواهلنا لباس الزينة فيه ، ولا ندع مراكب التطواف فى الطرقات للتهانى ، ولا ، ولا ،

ولا ، أفلا تكفى معالم العيد ، لتذكيرنا بما يلقى اخواننا من الألم والبلاء ، والبؤس والشقاء ، فننفس عنهم من كربهم ولو . . — إنى أساركم بالكلمة ، لأنها كلمة تهمة لو نفع سرار فى صحيفة المؤيد — ولو . . بضعف نفقاف العيد ؟ ؟ !

توغر منا الصدور على نزلائنا من اليونانيين ، فنسلقهم بالسنة حداد ، على ما أثمرت صدورهم من الحمية ، وما مالئوا اخوانهم بالنفس والمال ! وهل كان نزلاؤنا اليونانيون فى عهد ما ، أخلق بتقريظنا منهم الآن ؟ ولكن من لنا بطبيعة غير البشرية ، نقرظهم بها فى الظروف الحاضرة ، على استقامة شعورهم ، وبذل ما وجب من الحقوق فى أموالهم وأنفسهم ، بذلا بسماح ؟ ! أولم تكن أنفسنا هذه التى بين جنوبنا أولى بثلبنا ؟ بلى ؛ لأن كثيرين منا تساهلوا فى حقوق الإخاء ، على حين تأكد الحاجة إلى قضاء حقوق الإخاء ؟

إن قعدنا عن ممالأة العثمانيين ، الذين يذبون عن حياضهم ، ويخرون فى الملاحم صرعى ، دون شرفهم ، وديارهم ، وأنفسهم ، أفليس من الخذلان قعودنا عن إخواننا العثمانيين الجرحى ، وإخواننا العثمانيين المتدهورين ، فى العسرة والبؤس ؟ ! بلى ؛ وإنه لقبيح منا جفاء لقوم نحن أَوْلى أهل الأرض بهم ، وهذا موضع الرحمة ! إنه لقبيح بنا أن نلتقى بأعمالنا ، فى وسط أسرنا ، على مشاعر أبنائنا ، درساً من القسوة ، نفسد بمثله عليهم شعورهم ، ونمسخ فيهم فطرتهم ، إن أغضينا عن الجهات الأخرى !

ومن اختانته منا عاطفة الخير فى المصائب الملمة ، فليشعر قلبه تلك العاطفة ! ! ومن لم يستطع فليقصر نفسه على عمل الرحماء ، فإننا إن لم نسأل عن عواطف لم نجتلبها على أنفسنا ، فلا يفوتنا السؤال فى سائر الأحوال عن أعمالنا ! أَلا وإن مصرع المرء فى استسلامه لكل ميل ! ألا وإن حتف الفتى فى عبادة هواه ! فلنُحِلّ

الحكمة من أنفسنا محل ما استعصى علينا من خلال الخير، والحر الكريم يرقع حقاً عليه بمال له، ولا يرقع مالاً له بحق عليه! !

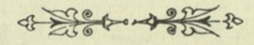
لا نبت ليالى العيد فى ألم التخمة، واخواننا فى ألم المخمصة ! !

لا نبت مسرورين بما حولنا، واخواننا محرومين بما منوا به ! لا نبت فى يسار ونعيم، واخواننا فى عسرة وجحيم ! لننفق مما أعطانا الله ! !

وإن سخط علينا احساسنا، فسيرضى الحق ! ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون !

وبعد، فهذه عشرة جنيهات، أهديها لإخوانى الجرحى، فى عيدهم هذا الأكبر فإن ضاق منى اليسار عن أكثر منها، رجوت منى الشعور للعطف عليهم، والتوجع لهم، والله تعالى أسأل حسن الغاية، وإليه المصير. ع . ز

(المؤيد) وقد سلم حضرة الكاتب الفاضل، المبلغ الذى ذكره فى مقالته إلى صندوق جمعية الهلال الأحمر. ونحن نشكر لحضرته عواطفه الشريفة، وجهاده بماله وبقلمه. أجزل الله له المثوبة والأجر.



رحمة لبقية سيف ونار!

المستشفيات العثمانية، وبعض الدور والطرقات، ينساب عليها مطر من فوقها، حافلة بجرحى العثمانيين! ضعاف، موقرون بالآلام، متكنفون بالأخطار، فى موضع غوث ورحمة، طالما قاموا الليالى فى جهاد الأعداء، ناصبين حذرين، لينام الناس فى راحة وأمن! لبثوا هنالكم فى تلك المواضع، مواضع القتال، أمام العدو، ليالى وأياماً غير آمنين! إن رقدوا رقدوا على قلة زاد، خماص البطون، يتمهدون الغبراء، ويلتحفون السماء؛ وإن هَبُّوا هبوا على قلة عدد لقتل وأسر! فهم فى حاليهم كالمستجير من الرمضاء بالنار! ظلوا كذلك، حتى صرعتهم نار الأعداء، فانكبوا على وجوههم يتخبطون فى دمائهم!

على عجلات الحرب الخشنة، لا على مركبات الركوب الوثيرة، حمل أولئك الجرحى، بقايا السيف والنار، إلى المستشفيات، حتى ضاقت دونهم، فإلى بعض الدور والطرقات! ولم تبح لهم الحرب أن يحملوا عليها برفق ينبغى لمريض مثلهم، إلا كما يرفق بالمتاع لا يخشى عليه، ينبذ فى سفينة! تسير بهم العجل إلى المستشفيات على عجل، تتسلق بهم الحزون، كما تهبط بهم إلى السهول، ونار الحمى تتفجر فيهم من باطنهم، والبرد يغشاهم ويؤذيهم فى جروحهم، والسماء تأخذهم من فوقهم! فمنهم من تستنزف على العجلات دماؤهم، فتفيض نفوسهم. ومنهم من يبقى حياً؛ للتراب الذى قلبهم فيه الألم بمصارعهم، والماء الذى صبته عليهم السماء، أثرٌ فى لباسهم، وللهواء البارد أثر فى أطرافهم وجراحهم، وللنار التى صلتهم بها الأعداء، أثر فى أجسامهم! كأنما عناصر الطبيعة التى تبدو أحياناً، لتصرفها، كجبار قاس، تألبت على هؤلاء الجند المساكين! فما أشأم طلعة الحرب على الجيش العثمانى، وقد أخذته

على غرة ! وما أشأم الحرب على العالم أجمع ، ما تعاقبت الأيام ! قطع بهؤلاء الجرحى شقة بعيدة ، تسيل منهم الدماء ، وتبكى عليهم بدموعها السماء ، حتى انتهوا إلى تلك المضاجع ، وهنالكم أصابوا راحتهم ! وأنى لمثلهم راحة ، وهذه جراح كثير منهم دامية ، حشوها رصاص الأعداء ، لا الخرق والدواء ؟ ! وهذه مضاجعهم ، فى كثير من أمورها غير صالحة . طرحوا بعد أن فرغ منهم الأطباء ، قد غاصت بهم بقية قواهم ، وفاضت فيهم الآلام بين يدى الممرضين والممرضات ، تحميهم من الذباب ، وقد كانوا بالأمس حراس الديار ، وحماة الذمار ! وتجرعهم الشراب ، وقد كانوا قبل ذلك يجرعون من ناوأ بلادهم ، الموت الزؤام ! فعطفاً أيها الأقوياء ، على هؤلاء الضعفاء ! حناناً يا صحاح السلم ، على مرضى الحرب ! !

لو اطلعت عليهم ، لرأيت الحديد والرصاص ، حالفا النار على التنكيل بهم وتشويه صورهم ! تخلل مراقدهم : فهذه ذراع برزت فوق الغطاء ، مشدودة فى مكان أصابع فتتها الرصاص ! وذراع ثانيـة ، مربوطة فى موضع كف أبينت ! وتلك عضد بترت ذراعها ، وشدت عليها الأربطة ! أو بقية قليلة من عضد ! وتيك رِجْل انزاح عنها الغطاء ، فبدت على بقيتها الأربطة ! وقد ذهبت أصابعها ، أو قدمها ، أو ساقها ! وهذا جريح عليه عصابة عظيمة ، شدت منه على فك منكسر ! وبجانبه جريح آخر ، عصبت جبهته على دهان تحتها ! وثم ثالث ، وضعت منه الخرق على عينين ، أشرفتا على العمى ! ومنهم من جمع فى موضعين من جسمه ، أو مواضع ، بين رباطين أو أكثر ! وهم كذلك شتى فى ضجعتهم : فمنهم راقد على جنبه الأيمن ، لا تقدره جراحه أن يرقد إلا عليه ! ومنهم مضطجع على جنبه الأيسر ! وبعضهم مستلق على ظهره ! وآخرون مسندون إلى شىء ، يقطعون الليل والنهار ، قعودا لا يرقدون ! هذا والآلام سارية ، والأوجه منزوية ؛ وأساريرها تشف عن ألم شديد ! وأنين المرضى

وتأوههم ، تلين له القلوب القاسية ! يستغيث بعضهم بالطبيب مما أثقلته جراحه ، وبعضهم يستعين بالممرضين والممرضات ، على أمر عرض فيه على رباطه ، أو عصابته أو دوائه ! ويحضر كثيراً منهم الموت ، ونار اللهفة على ولده وأهله تحرقه ؛ لولا أن الموت الذى تبرد له الأجسام ، أخمد فى ذلك الهيكل كل نار ، وأطفأ فيه كل حرارة ! نعم ، وتلك المستشفيات ينقصها الموت ، وتمدها النار والسيف ، كأنما هى خزائن الهلال الأحمر ، ينقصها الإنفاق على هؤلاء الجرحى ، ويمدها الراحمون ! والراحمون يرحمهم الرحمن ! ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء !

يغلب على الجريح منهم ألمه ، وتسبح به الحمى فى بحر من الأوهام ! فإذا هدأت فى جسمه ثائرة ذلك ، ثارت فى نفسه آلام كثيرة : فألم لذهاب أمله سائر حياته — وقد قطع منه عضو أو أعضاء — وصيرورته عيالاً على غيره ، بعد أن كان الناس كلهم عيالاً عليـه ! وإن كان من بلد استولى عليه الأعداء ، أو حرقوه ، أو خربوه — وما أكثر هذا فى الحرب — أقلقته الوساوس والهموم ، فى أمر أهله ، وما صاروا إليه ! هذا إلى ما هو فيه من القلق على قومه ! فأف لتصاريف الليالى ما أقساها ! لقد كانت السعادة لهذا الشقى ، لو أصابت مصرعه ، ثَمَّ فى ساحة الوغى ، وأخذته حوافر الخيل ، وتجاذبته الذئاب الكواسر ، فى تلكم الفجاج المترامية ! حقاً ! بيد أنه أشقى من أن يموت ! !

عاش هذا الجريح الشقى قبل اليوم ، برهة من الزمان ، فى غبطة ، ممتعاً بقواه ، مُعافًى فى بدنه ، آمناً فى سربه ، قريرَ عينه بماله وولده ، وجفنُ الدهر عنه غضيض . ثم تقلصت عنه فى لحظة واحدة ، ظلال تلك النعم ، كأنما كانت مصابيح شتى من الكهرباء ، توقد من زر واحد ، فَلَوَتْه بسرعةٍ يدُ الدهر ، التى تلوى كل شىء مسته ، فاحتجب عنه ضوءها الساطع ، وتركه فى ظلمة أسود من حلك الغراب ،

يظل نهاره يهذى بأهله وقومه ، ولا سيما جريح الأمس ، قبل أن تبدو تباشير الأمل ؛ وإذا خرّ عليه الليل ، بات يهذى بجرحه ، وإذا فتر عنه لحظةً ألمُ هذا وذاك ، صار يهذى بتصرم أمله ! !

فحناناً وعطفاً ، أيها الرحماء ، على هذا الجندى الجريح ، المتصل الآلام ، المنقطع الآمال ! فإنه بقية عسكر ماتوا لحياتكم ، أو حياة إخوانهم وإخوانكم ، ومثله خليق بإنسانيتكم وثمرات رحمتكم ! !

إنى لا أجد فى الجماعات أحداً أجدر بمؤازرتهم ، من جندى جريح فيهم ! لأنه إن يكن قد وقع عليه الاختيار قسراً من بين الجماعة للقتال دونهم ، فهو من لباسه ، فى قميص عثمان ملطخاً بدمه ! وإن كان متطوعاً ، بذل دمه لقومه ، فهو شريف محسن ! ومن ذا الذى هو أولى بمعونة قومه ، من رجل : إما مظلوم مضرج بدمه ، وإما شريف محسن به إليهم ؟ ! أما إذا كانت الجماعة أكرهته على الجهاد دونهم بحق ، فهو امرؤ قد احتمل واجباً خطيراً ، نيط أداؤه بسفك دمه ، وقد سفكه !

عطفاً ، أيها المصريون ، على هذا الجندى المسكين ! فقد فاجأ الأعداء فيه أهله الأدنين ، على غرة فى أمره ، فلم يجدوا بداً من تقديمه ، على غير أهبة كاملة ، لسفك دمه ! وهذا مبلغ ما يستطيع أُبَاة ، فاتهم ، لبعض الدواعى ، أخذ الأهبة لأعدائهم كل الأخذ ! قتله الجوع فى الحرب مرة ، وقتله البرد مرة أخرى ، وقتلته نار الأعداء مرة ثالثة ! ولكنه بعد هذه القتلات غلبت عليه شقوته ، فبقى فيه رمق يذوق به العذاب ، فأبْقُوا على رمقه ! أمسكوا عليه حياته ، بمده بالمال ، فأنتم عثمانيون ، أوْ لاَ ، فأنتم أولى الناس بجرحى العثمانيين ، الذين تشغلهم الحرب عن كل شىء !

ماذا يكون حال هذا المسكين ، إذا لم توالوا مَدّه بالمال ، فيجد له غذاء ، ووطاء ، وغطاء ، فى برد هنالك قارس ، وطبيباً يضمد جراحه ، وممرضاً يعينه على شئون عليل مثله ؟ ! أصبح يسألكم بلسان حاله ، أن تعيروه من قوتكم ، بعد أن كان يمدكم أنتم وإخوانكم بقوته ، والدهر بالناس قُلَّب ! على أن فى العطف على الجندى العثمانى ، وتضميد جراحه وسلامته ، طاعة لأمر الله فيه ، وصلة لإخوانكم ، وخيراً كثيراً لكم ولأعقابكم ! قدموا لهؤلاء الجرحى دريهمات ! قولوا لهم بها : إن أمتكم ، ولا ننكر أننا منها ، كلا أو بعضاً ، شاكرة لأفرادها ، الذين يريقون دماءهم فى سبيل سعادتها ، عاطفة عليهم !

قدموا للجرحى من أموالكم ! قولوا بها : إن جمعنا على أهبة لبذل ما يملك ، فى معونة العاملين لصلاحه ، لا نضيع عمل عامل منكم !

قدموا للجرحى من أموالكم ! قولوا بها : إن مثلنا ، فى تراحمنا ، وتوادنا ، وتعاطفنا ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى !

قدموا للجرحى قليلاً من أموالكم ! قولوا بها للعثمانيين : نحن إخوان الشدة ، كما كنا إخوان الرخاء ! وشدوا أزرهم ، وقووا عزائمهم ، وعزوهم على ما خسروا من رجالهم ، ولا يذهب العرف بين الله والناس !

قدموا للجرحى ، يشيد المصرى بهذا التقديم ، فى بناء التراحم والتعاون ، وجامعة الحياة ، وحياة الجامعة !

قدموا أيها الموفرون ، فى قوتهم ، وأعضائهم ، وأهليهم ، وأموالهم ، لمن فاتهم جميع ذلك !

قدموا قبل ألا تقدموا ! وما تقدموا لأنفسكم من خير ، تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً !

وهذه عشرة جنيهات ، مقدمة للجرحى ، جمعت لهم أيام العيد ، وليس لى فيها إلا نحو خمسة وثلاثين قرشاً ! منها نحو مائة وثلاثين ، تكرم بها المصلون فى جامع لاشين السيفى ، بشارع مراسينه بالسيدة ، بعد أن حثهم حضرة خطيبهم الفاضل ، الشيخ محمد أحمد أبو طالب ، وجنيه سلمه إلىّ حضرة الفاضل ، الشيخ أحمد إبراهيم ، مأذون الشرع الشريف هناك ، قيمة ما جاد به بعض أهل الخير من تلك الجهة . وسائرها دفعها إلىّ بعض أقربائى واخوانى . شكر الله لهم أجمعين .

ع . ز

(المؤيد) وقد سلم حضرة الفاضل ، كاتب الرسالة ، المبلغ الذى أشار اليه فى رسالته ، إلى صندوق جمعية الهلال الأحمر . شكر الله سعيه . والساعى إلى الخير كفاعله .



عطفا أيها الاطباء !

ليس فى الحياة أشق من ألم جثمانى شديد ! قضية يلفظها السمع ، ولكنها فيما أظن صادقة ! فألم النار أشد من كل ألم نفسى ! والمرء على احتمال الأول ، أضعف منه على احتمال الثانى ! ولا سعادة يشعر بها الحى ، أعظم من دفع هذه الآلام ! ودفعها من عمل الأطباء الذى يؤدونه للاجتماع البشرى . فللأطباء ، على الناس ، فى سعادتهم ، أياد بيضاء ، يبذلونها بثمن بخس . والمريض لو لم يجد طبيباً إلا بجميع ماله لبذله له ، وعد نفسه من بعد ، سعيداً ممتعاً بعيشه . وإلا فمن يشعر بشىء من سعادة ، إذا كان بين خزائن الأموال ، ولكنه مثقل بالأمراض ، منغص بالآم ، إلا من كان فى احساسه غريباً من الناس ؟ ! وعلى الجملة ، ليس فى المعاوضات صفقة ، أنفس مبيعاً ، وأقل ثمناً ، من صفقة تجرى بين طبيب ومريض. وإلا فلا أقل من أن صفقة الطبيب مع المريض ، تحسب بين تلك الصفقات .

هل أدلكم أيها الأطباء المصريون ، على عمل حاضر ، يضاعف لكم فيه الأجر ، أضعافاً مضاعفة ؟ ؟

هل أدلكم على عمل حاضر ، تطلقون به ألسنة قومكم بشكركم ، وإن كانوا يحفظون لكم الجميل من قبل ؟

هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، يوم الدين ، وتسير بكم شوطاً بعيداً فى سبيل الرقى ، والسعادة الأبدية ؟ !

تلبون نداء الهلال الأحمر ، ويرحل جماعة منكم ، كما نفر بعضكم من قبل ، إلى الاستانة ، فى أداء واجب عليكم ، وعلى أمتكم لاخوانكم العثمانيين ، موفين أجوركم الجزيلة من الله تعالى .

يا حضراب الأطباء ! أحقاً تقعدون عن واجب أخوى ، أُلقى على كاهل كل منكم ، كما ألقى على كاهل أمتكم ، من حيث إنكم جزء من أمتكم ، حتى احتاجت جمعية الهلال الأحمر ، أن تستفزكم بالقول ، إلى هذا الواجب ؟ !

انكم لتعلمون أن فى رحلتكم إلى الاستانة ، فى مداواة الجرحى والمصابين ، براً بأنفسكم ؛ وبراً بجمعية الهلال الأحمر ، القائمة بعمل من أشرف الأعمال الانسانية ؛ وبراً بأمتكم ، التى بعض واجبها رحلتكم ؛ وبراً بالعثمانيين اخوانكم ؛ وبراً بالانسانية ! فحق عليكم اجابة هذه الدواعى كلها ، إذا لم يكن ثَمَّ ما يمنعكم !

يا حضرات الأطباء ! إن المريض المعذب هنالكم ، يتململ على فراش الألم ، ويساوره الموت ، لهو أخوكم ! وإن النساء التى استهدفهن الشقاء ، لهن اخواتكم ، والأطفال الذين تفترسهم المنية نائين عن آباء جرحى ، أو قتلى ، أو أسرى ، وفى حجور أمهات ، بائسات ، مهاجرات ، من ديارهن وأموالهن ، أبناؤكم وبناتكم ! فحناناً لهؤلاء ورحمة ! إن لم يَسْرِ إلى أسماعكم صريخ هؤلاء الذين يكبكبون فى نار الآلام الشديدة — وهل النار إلا الآلام الشديدة — فقد ملأ السمع من طرق شتى ما هم فيه !

أليس مثلكم ، إن لم تجيبوا نداء الهلال الأحمر ، كمثل ملاح هوت أسرته فى غدير وهو على شفا الغدير ؛ يستغيثون به مما هم فيه ، ويمدون اليه أيديهم ، ليأخذ بها ، وهو يلوى عنهم ، حتى هلكوا على مشهد منه ؟ ! نعم كمثل ملاح ، لأنه لا يعسر على الملاح أن يسبح فى غدير ، كما لا يضركم أن تباشروا عملكم فى الاستانة ، بعيداً عن مواقع الحرب ! بيد أن الجرحى والمصابين الذين تُدْعون

لإغاثتهم ، يطول عذابهم إن لم تغيثوهم ! أما أسرة الملاح فتزهق أرواحهم فى الغدير بسرعة .

يا حضرات الأطباء ! إن الإنسان الشفيق ، لا يألو جهداً أن يلتقط من الماء حيواناً أشرف على الغرق ! أفلا ترثون أنتم لإخوانكم وأبنائكم ؟ !

إنى أسائلكم ، بإنسانيتكم ، إلا ما أيقظتم فى قلوبكم عوامل الحنان ، التى ثارت فى فؤاد ذلك الزارع الألمانى ، فأنجى أسرة فقيرة ، أشرفت على الغرق ! !

ففى ذات سنة ، فى فصل الربيع ، فاض نهر (اتسن) حتى هدم القناطر ، وغطى كثيراً من الأراضى . وكان فى بعض جهات النهر قنطرة عتيقة ، فى أحد جانبيها كوخ مكاس ، فذهب بها الفيضان ، ولم يبق منها إلا ذلك الجانب ، وفوقه الكوخ ، والماء يلح عليهما ، ويتهددهما كل لحظة ، بالتهامهما . فوقف أهل الكوخ وسط الماء ، فى بهرة الموت ، يستغيثون ، والناس على الشاطىء لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ؛ حتى الملاحون خافوا على أنفسهم ، أن يلقوا بها فى ذلك التيار الجارف . ولم يغن شيئاً أن كان بين الواقفين عظيم من أهل اليسار يسوق الناس بالمال الجزيل ، لإغاثة هؤلاء المنكوبين . وإنهم كذلك ، إذا بزارع من عرض البر مقبل عليهم . فلما رأى ما فيه الناس ، لم ينشب أن رمى بنفسه فى زورق واقتحم به اللجة ، وسار به يساور التيار ، ويشق الجمد ، حتى بلغ الكوخ ، بمعونة الله ، فاستل أسرة المكاس من الخطر ، وأنزلها فى الزورق ، ورجع بها إلى الشاطىء بسلام . فلهج الشاطىء كله بحمد ذلك الفلاح المقدام ، ولم يكن إلا أن وضع بهم قدمه على الساحل ، حتى انهار ركن القنطرة ، وهوى الكوخ فى الماء .

هذا وقد مد ذلك الموسر العظيم يده إلى الزارع ، بكيس مفعم بالنضار ، قائلاً

له : خذ هذا المال مكافأة لك . فقال له الفلاح : معذرة يا سيدى ! إننى لم أعرض حياتى للخطر طمعاً فى مال ! وإذا أراد سيدى إكرامى بشىء منه ، فليبذله للمكاس ، فقد أتى الماء على ماله . وأخذ على طريقه ، ولم يعقب لسماع كلمة شكر !

كونوا أيها الأطباء الكرام ، مظهراً لرحمة الله بأولئك العثمانيين ، الجرحى والمصابين ، ورسلاً من الرحمن الرحيم ، لتخليصهم مما هم فيه !

كونوا رسل الانسانية ، وأخص صفات الانسانية الرحمة !

كونوا نواب قومكم المصريين ، فى معونة العثمانيات والعثمانيين ، واسعوا جهدكم فى خلاصهم من هذه الشدة !

يا حضرات الأطباء ! هذه أمتكم نهض موسروها نهضة يشكرون عليها ، فى شفاء الحاجة من جسم الأمة العثمانية ، وإن كانت الآمال لم تزل بعد منوطة بزيادة نهضتهم ! فهل لأطبائنا الكرام ، أن ينهضوا ، جهدهم ، فى شفاء المرض من جسمها ! ؟ وإلا فيا ليت شعرى : ما عسى يفيد الدواء الحاضر ، والطبيب غائب ، وقد صارت النوبة فى نهضة الأمة على معارفكم ؟ !

أيها الأطباء المحترمون ! إن لم يَجْرِ على يد أمتكم إرسال جند منها إلى تركية، ليشتركوا فى إراقة الدماء البشرية ، التى دفعت ، على قسر ، إليها — والضرورات تبيح المحظورات — لم يفتها برحلتهم مد العثمانيين منكم بجيش ، لإرقاء الدماء ، وتأييد السلام ! أليس مثل طبيب لا يسافر على قدرة لغوثهم ، كمثل ملىء يمسك فى هذا الوقت ماله ، لا يرعى فى ماله حق الله ولا حق الناس ، ولا يحقق فى شخصه رجاء قومه ؟ ! أليس مثل الأمة فى أمر معونة الدولة العثمانية ، إن قعدتم عن مشاركتها ،

وبكم خصوصاً مناط حاجة اخوانكم العثمانيين من وجه ، كآلة بخارية بلا وقيد ؟ ! أو كمدرس ضعيف الذكر ، قدم لدرس بلا مذكرات ؟ ! أو عينٍ ذَهَب لاستطلاع جيش بلا عين ؟ ! أو كرجل أراد ممالأة آخر على كتابة شيء ، فدحست أصابعه أو رمدت عينه ؟ ! غير أن الفرق بين عين رمدت ، وطبيب تخلف عن السفر ، عظيم جداً ! أما العين فترمد قسراً ، وأما الطبيب فرمد اختياراً ! هذا إذا قعدتم عن السفر بلا عذر ، وما أخالكم !

لبوا ، يا حضرات أطبائنا ، نداء الهلال الأحمر ، تنالوا بذلكم ، أنتم وأعقابكم ، فخراً ! ولأن يرث أعقاب الأطباء مذكرات لهم ، فيها حديث رحلتهم إلى الديار العثمانية ، لمعالجة إخوانهم ، وقت الحرب والوباء ، خير مما يجمعون ! ولا سيما من كانت رحلتهم مجاناً ! وما يبقى من الثناء الجميل ، والمنزلة العلية ، خير من ذلك ، وما عند الله خير وأبقى !

يا حضرات الأطباء ! إن الطبقات الأخرى ، إذا عرضت لجمعية الهلال حاجة لديهم ، بادروا إلى أدائها بلا أجر ، إلا ما يرجونه من الله تعالى ؟ ذلك بأنهم يعلمون أن هذه الجمعية — ولها من القلوب مكانة ، ومن الألسنة حمد — إنما تعمل ناصبة ، فى طاعة الله وحب الخير ! أتقعدون — بلا عذر — وأنتم من علية القوم وبكم أنتم يناط عملها ، عن مؤازرتها فى معالجة الجرحى والمرضى ، من إخوانكم ، لا يظن قعودكم بلا سبب صحيح !

هل على حضرات الأطباء من حرج ، إذا اجتمعوا وتشاوروا فى أمر سفرهم ، وجعلوا الرحلة مناوبة فيما بينهم ، حتى ينتهى أمد الحاجة ؟ والله تعالى يكشف قريباً عن الديار العثمانية ، تلك الظلمات المتراكمة فى جوها ، ويرجع به إلى الصفاء !

لا يخلدنكم إلى مصر بعيداً عن هذا الواجب ، أن يقال : كيف تسافرون إلى بلاد الحرب ، ولا تعلق ولد بكم ، ولا بكاء أهل ، وإن كانت هذه الأمور من شأنها أن تخلد ، فمن الحزم أن يكون المرء ماضياً فى سبيل الواجب !

عبد الملك بن مروان ، لما أراد السفر للغزو بنفسه ، تضرعت إليه زوجته عاتكة ، بنت يزيد ، تسأله البقاء ، وقد كانت حظية عنده . فلما أبى عليها ، وعزم على السفر ، بكت وبكى معها جواريها ، فتمثل بقول ابن أبى ربيعة :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حَصَان ، عليها نظم در يزينها
نَهَتْه فلما لم تر النهى عاقه ، بكت ، فبكى مما دهاها قطينها

سـافروا تغنموا . ع . ز

وأضع مع كلماتى هذه مائة وخمسين قرشاً فى صندوق الهلال الأحمر ، جاد بها على المرضى ، بعض الأخيار ، أجزل الله لهم المثوبة .

هل للمهاجرين من أنصار ؟ !

كأنى بالبلاد العثمانية ، التى استولى عليها الأعداء ، وأحلوا لأنفسهم ، من أعراضها ودمائها وأقدامها ، ما لا يحل ؛ والتى باتت تتوقع غارتهم ، والتى دمرتها نارهم — وهى كثيرة — غادرها أهلها مسرعين !وخرجوا منها خائفين مترقبين ! يسيرون عنها خطوة ! ويعطفون عليها بنظرة فنظرة ! ولولا خوفهم طلعة العدو عليهم ، لوقفوا بالأطلال كثيراً ؛ حتى نقعوا بالوداع غليلاً !

وكيف لا يقفون طويلا ، لتوديع تلك الديار ، وهو آخر العهد بمعاهد ألفوها ؟ وبلاد اختطوها ؟ انتظم بها شملهم ، وغنى أترابهم ، وأقام أصحابهم ، واتصلت أنسابهم ونَبَت خالفهم وحُصد سالفهم ؟ ! أليست سلامة هذه المعانى ، فى سلامة المغانى ! أجسامهم عجينة من تربتها ومائها ، وأمزجتهم مشواة بحرها وبردها وهوائها ، فلو رد الله التراب هنالك رجالاً لجاءوا على شكلهم ! أمهم واحدة ، وهى هذه الأرض التى يكرهون على الهجرة منها ، وأبوهم واحد ، وهو ماء أنهارها وغدرانها ! فأين يجد أحدهم من بلده بدلا ، وقد بدد الدهر شملهم ، وفرط عقدهم ، ورمى بكل خرزة فى مكان ؟ ! رفقاً أيها الدهر العنيف ، بالمهاجر الضعيف ، فكبيرهُ ، من قبلُ ، بين يديك صغير ، وعظيمه حقير ، وعزيزه ذليل ، ورفيعه وضيع ، والقدرة تذهب الحفيظة ! !

كيف لا تقف الأسرة لتذراف الشئون ، وقد رزئت فى مقرها الذى شادته ؟ دمرت النار دارها التى بنتها ، وشيدتها ونجدتها ، وارتبط بكل بقعة منها حديث من تاريخها ، وذكرى من ماضى آبائها وأجدادها ، ونيط بكل مكان منها أمل لمستقبلها ؛ حتى كأنما هى الدار صحف لتاريخ الأسرة ، ومجموع آمال ؟ ! دمرتها

فأصبح عاليها سافلها ، وأحالتها إلى جدث عظيم ، انبسط على غير نظام ، وقام على غير هندام ، توارت فيه تلك الآمال الكثيرة ، وغابت الصحف !

كيف لا يودعون أوطانهم ، ما استطاعوا ؟ وهذه أرضهم وعقارهم ، ومزارعهم وجناتهم ، وهذا طريفهم وتليدهم ، وما عملت أيديهم لهرمهم ، وعقبهم من بعدهم ؟! قد سلط عليهم فيه عدوان قاسيان : فعدو من النار ، وعدو من البلغار ؟ انتزعوا منهم ما حازت أيديهم ، وأجلوهم عنه بسرعة ، ولم يسمح لهم بموقف وداع ، يرخون فيه للعبرات أعنتها ، لعل انحدار الدمع يعقب راحة !

بل كيف لا يقفون ، ما استطاعوا ، موقف العبرات ، أو تذهب أنفسهم حسرات ؟ ! وهؤلاء كثيرون من أبنائهم واخوتهم واخوانهم ، الذين وقعوا فى الدفاع عنهم ، تركوا طعمة للنار ، تحت دورهم المتهدمة — ويالله كم عزيز عليهم غاب فى تلك الأنقاض — وآخرون منهم ، تركوا طعاما للذئب والطير ؟ !

غادر هؤلاء المهاجرون أوطانهم ، تحمل منهم الأرض محزونين ، لو أن جماداً رثى لإنسان قبلهم على كثرة همّ ، لرثت لهم تلك الفلوات ! سروا تحت الليل ، يروعهم الفزع ، فعل مهاجرين يتأثرهم عدو ، موقرون بأسباب المنية ، غرثى إلا من بغض العثمانى وحب الانتقام .

احتثهم الليل فاحتثوا ، وحدا بهم الفرار فجدوا . مهلا أيها الحادى بشيخ كبير ، وطفل صغير ! ورفقا بالقوارير ! لمست منهم الأرض الغليظة قدم المخدرات ، وأقلت سادة كانت تقلهم العربات ، وساخت فى الطين أرجل كانت تسوخ فى فرش وثير ، من سندس وحرير ! ينال منهم الجهد ، كما ينال منهم البرد ، فترعش أجسامهم ، وتحمر أنوفهم وآذانهم ، وتألم أيديهم حتى يذهب حسها ، ويبطل أو يكاد عملها !

يعثرون فى الليل فينكبون على وجوههم، فينهض الصبى من عثرته، باكياً يخافت بصوته، وقد علمته أمه ألا يرفع صوته بالبكاء، كى لا يسمع الأعداء! فتتناوله بيد مرتعشة، وتضمه منها إلى صدر محشو بأنواع الهموم، وتنسكب دموعها فوقه تحناناً عليه! فلو أحس مقرور فلاة بدفء لدمع غزير ينساب عليه، لذهب عن الصبى ألم البرد! كان بعض هؤلاء المهاجرين بعد نصب شديد، أخلدوا إلى الأرض لا يستطيعون مضيا. فمنهم من أثقله البرد، ومنهم من تورمت قدماه، بل منهم من انتهى به ذلك إلى مرض شديد، والمرض يأتى بلا رعاية حال، كزائر قليل الذوق يلم فى غير وقت! يهلك بعض هؤلاء، ويحيا بعض آخر، بما يرسل الله اليه من رحمة، لا يتسرب إلى طرقها خيال ولا تحيط بها تجربة!

تفرق هؤلاء المهاجرون فى غاياتهم فرقا شتى، وبعضهم قصد إلى السفن، يؤمون بلاداً ثانية، وقصد بعضهم إلى الاستانة وغيرها من البلاد العثمانية، فانتشروا بها فى مواضع شتى.

قصدوا إلى السفن، وليسوا بسياح، لا ولا لإيلافهم رحلة الشتاء، بل فراراً من الشقاء، الذى أصيبوا به فى مواطنهم! شرى كثير منهم مقاعد فى الدرجة الثالثة، وكانوا يغمضون فى شراء هذه المقاعد لتبعهم! وجلسوا بالأرض بجانب الطريق، على مقربة من آلة البخار، وقبل اليوم كانوا يتكئون على الأرائك، وتضرب دونهم الأستار! يمر بينهم الملاحون وخدم السفن، وفيهم مخدرات، لم يكنّ يُسْألن إلا من وراء حجاب! ترى السيد والسيدة — تعرف فى وجوههم نضرة النعيم — مع سواد الناس فى مجلس واحد، فتخالهم — لولا أنهم عثمانيون لا عرب — بقايا من أمراء الإسلام الأولين، جالسين إلى العامة! أو تحسبهم سادة متواضعين، جاءوا من درجاتهم، وجلسوا فى بعض الشئون مع اتباعهم!

وما هى جلسة تواضع ، ولكنه الدهر الذى لا يتعاصى عليه وضعٌ رفيع ، حطَّهم ! بدت الفاقة فى كثير منهم ، فقام بعضهم يسأل أجرة لبقية طريقه ، وآخرون يسألون حاجات أخر ! لا تلحفن فى المسألة أيها المظلوم الظالم ! فأكثر من تلتمس معونتهم ، فى حاجة إلى المعونة ! ولولا اعتصامهم بالحياء ، وشعورهم أن المسألة أخف مواقف العبد ، لتصدوا للسؤال كما تصديت ! !

وجاء منهم عدد لا يحصى إلى الاستانة وغيرها ، من المدن والقرى ، يتامسون ناصراً من الانسان ! لا يقصدون مسمى معينا ، ولا يتطلبون شخصاً خاصاً ! وجهتهم الانسان الرحيم ، عثمانياً أو غير عثمانى ، يساعدهم على تصريف الأيام !

امتلأت بهم المساجد، يعكفون عليها الليل والنهار ، لا يفارقونها إلا لحاجاتهم، وما هم بمعتكفين ! صوام لا يطعمون يومهم ، وليسوا بصائمين ! تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؛ ذلك بأن فرشهم وأغطيتهم قليلة ، على شدة البرد ! وأجوافهم خالية من ألوان الطعام ، ممتلئة من ألوان الشقاء ! ودُّوا لو كانت همومهم الكثيرة أزْواداً وفرشاً وأغطية ، كما يودون لو كانت أغطيتهم وفرشهم وأزوادهم القليلة هموما ! !

وامتلأت بهم التكايا ، وما هم من الناس بطلاب عرف ، فتجهم لهم بعض قُطَّانها ، وتبرموا بهم ! وياليت شعرى : هل يجدون فى التكايا راحة ، بعد أن كانوا فى سعة كقطع الشطرنج على رقعته ، فأصبحوا بازدحام التكايا ، كتلك القطع قد طويت وجمعت فى الصندوق ؟ فوارحمتا للمهاجرين ! !

بلغت بهم الحاجة إلى بعض البيوت ؛ فأما الأخيار من أصحابها فأكرموا وفادة من وسع رحابهم ، وأما القساة فضنوا بقرى أو مبيت ، أو كلمة لينة ، واستوثقوا من رتاج الباب والدار !

بقى منهم بعد ذلك فى المدن والقرى خلق كثير ، ليس لهم ملجأ إلا ساحاتها ،

والا طرقها ؛ فاستولى عليهم الجوع والبرد ، وعدم الراحة فى شىء ، فانتشرت فيهم الأمراض ، وفتك بهم الوباء ! فكأنى بالشوارع لا ترقأ فيها دموع الحزن ، ولا زفرات البرد ، ولا ضيق الحاجة ! أسمع من تلك الشوارع والساحات — لوسمع منها من بمصر — صراخ وليدة من الجوع ، أو صبى من البرد ، فتحنو عليه أمه ، وتخلع لها ملابسها القليلة ، ثوبا تلففه به ، وتضمه إلى صدر محزون ، فيشتد البرد على هذه الأم الرحيمة ، فتمرض أو تموت ، والصبى فى حضنها ، ويدها قابضة عليه ! أرى بناظر من الخبر ، وناظر من الخيال ، شوارع الاستانة ، وبعض البلاد العثمانية ، كثرت فيها الجنائز والنعوش ، تحمل آباء وأمهات ، تركوا من خلفهم ذرية ضعفاء ، غرباء ، ليس لهم من يكفلهم ! تلك الشوارع والساحات — وهى اليوم مهبط لأحزان الإنسان ومتنزل لضروب شقائه — إذا جن ليلها ، جن من المهاجرين ، على آباء محزونين ، وصبية يتضورون من الجوع ، ويألمون من البرد ، وأمهات موجعات ، باكيات بائسات ، يائسات إلا من رحمة يثيرها الله فى قلب امرىء خيّر ! أتجد تلك الأمهات المحزونات ، اللاتى كثير منهن مرضى فى المستشفيات ، أنصاراً لهن فينا ؟ !

هل يجدون فى مصر ، كتاباً خيرين ، إن لم يكن بأيديهم مال ينصرونهن به ، فان بها أقلاماً يثيرون بها عواطف المحسنين ؟ !

هل يجدن معلمين ، يحرصون على أن يكون من قلوبهم قُدًى لقلوب تلاميذهم ، كما أن ألسنتهم قُدًى لألسنتهم ، فينصروهن بفضل ما فى أيديهم ثم يحضوا تلاميذهم ، على مثل ما فعلوا ؟ ! يحسنون بذلك إليهن ، وإلى صبيتهن ، كما يحسنون إلى أبناء الأمة ، وقد تصدوا لتربية أبناء الأمة ! وكما يحسنون إلى أنفسهم قبل احسانهم إلى كل أحد ؟ !

هل يجدن من العلماء ووعاظ الأوقاف — وعليهم إسماع الناس صوت الدين

الرهيب فى الحث على الرحمة — أنصاراً لهن، يعنون حق العناية بأمرهن، ويأخذون على أنفسهم العمل لهن بجد ؟ !

هل يجدن فى طبقات الرؤساء على اختلافهم ، أجواداً يمدونهم ، ويأمرون مرءوسيهم بالمعروف فى حقهن ؟ !

هل يجدن فى شبابنا نخوة — والمرجو فى شبابنا النخوة — فيعينوهن بجزء وافر فى أيديهم ؟ !

هل يجـدن موسرين ، يغضون عن بعض يسارهم لهن ، يقرضون الله قرضاً حسناً ؟ و « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ؟ ! »

هل يجدن من أولى الحفلات الشائقة لموتاهم — والموتى أغنى خلق الله عن الحفلات — أنصاراً لهن ، يخفضون من حفلاتهم ، بعض ما نصبوا ، ويقدمون ثمن المخفوض لهن ؟ ذلك خير وأعظم أجراً ! وإن رأوا أن يعلنوا فى الصحف ما فعلوا ، كانوا قدوة حسنة لغيرهم ، ومن سن سنة حسنة فله أجرها !

عطفاً ، يا سكان العاليـات من القصور ، على هؤلاء اللاتى أشرفن هن وصبيتهن على القبور !

عطفاً ، يأيها الذى يقطع ليـله القصير ، فى نوم السبات ، غائصاً فى الفرش اللينة ، قد ضربت من دونها الأستار والكلل ، على هؤلاء اللاتى يقطعن ليلهن الطويل ، منبوذات بأولادهن فى العراء ، ساهرات باكيات منتحبات ! !

عطفاً ، أيها الموسر ، الذى حيزت له الدنيا بما فيها ، ففتنته عن مستقبل لا آخر له ! أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك ! لا يصدنك إحسان الغنى إليك ، بالجزيل ، عن احسانك إلى الفقير بالقليل ! اتعظ بغيرك ، ولا تعرض نفسك لأن يتعظ بك غيرك !

عطفاً أيها الاباء ، الذين يعجبهم ما فيه أبناؤهم و بناتهم من آثار الصحة والنعمة ، على هؤلاء اللائى يوجعهن ما فيه أبناؤهن و بناتهن ، من آثار السقم والابتلاء ! جودوا باليسير من فضول نعمكم الكثيرة ! ذلكم أقر لكم عيناً ، بأولادكم فى مستقبل كأيام هذه المهاجرات ، مظلم !

عطفاً ، أيها الذى لا يكفيه لدفء الليالى فى برد مصر القليل ، ما يواريه من رياش فاخر ، وما فوقه من غطاء حرير ، وما تحته من مهاد وطىء ، وما وراء ذلك من غرفة كثيرة المصابيح ، مقفلة النوافذ ، مرسلة السجوف ، وما وراءها من بنيان مشيد ، حتى يأمر فتوقد مدفأة ! عطفاً ! عطفاً ! على هؤلاء و بناتهن ، اللواتى في برد تركية القارس ، ولا ثياب ، ولا وطاء ، ولا غطاء ، ولا غرفة ، ولا بناء ، ولا مدفأة ! وجملة ما هن فيه : أرض جافية رطبة ، وقر الشتاء ، ولباس خليع من المحسنين ، والله يتولى المحسنين !

أحسنوا ، أيها الأغنياء ، بفضول أموالكم ، وأحسنوا ، أيها الفقراء ، ما استطعتم ، واتقوا النار ولو بشق تمرة !

وانفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين !

ع . ز

وقد دفعت إلى بعض الجهات جنيهين اثنين للمهاجرين ، ولو جاز امساك صلة لحقارتها ، لأمسكت جنيهى . لكننى أرجو ، أن يعصم الله بهما من الهلاك ولو نفساً واحدة ؛ فادركو المهاجرين حتى يدركها واسعو الثروة من حضراتكم ، واسعوا فى أخواتكم وإخوانكم ، لتسكين آلام الناس ما استطعتم . بارك الله فيكم .

ع . ز

ومما ترجمه الأستاذ عن الألمانية :

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم !

فى سنة ١٨٣٣ أراد شاب أن يسافر من أحد الثغور إلى أمريقا . فذهب إلى الميناء ، فوافق سفينة مهيأة للسفر ، ولكنها تنتظر ريثما تطيب الريح . فاكترى له موضعاً فيها ، ونقد الكراء ، ولبث فى الثغر ينتظر . وفى ذات يوم جاءه أن الريح صلحت ، وأن ربان السفينة سيقلع اليوم فى منتهى الساعة الخامسة . فلما دقت الساعة أربعا ، جعل طريقه إلى الميناء ، قائلا فى نفسه : (من ليس لك عليه حق الانتظار فانتظره . المسافر ينتظر القطار ، والقطار لا ينتظر المسافر) وسار حتى بدت له السفينة ، آخذة أهبة السفر ، رافعة أعلامها ، باسطة قلاعها ، ناشرة حبالها ، وصارت منه بحيث يسمع صياحه من فيها . فالتفت فرأى بجانب الطريق حديقة صغيرة ، بين نباتها واحدة رباعية الورق ، هى فى زعمه فأل حسن ، وآية على سعادة الطريق ؛ فعدل اليها فقطفها . فانقض عليه جندى ، كان يذهب ويجىء ، أمام مخفر بجانب الحديقة ، بندقته على كتفه ؛ وندبه إلى المخفر . فقال له : وما شأنى فيه ؟ فقال : اقرأ ، وأشار الى لوح معلق فى مدخل الحديقة . فرفع الشاب بصره فاذا هذه الجملة : (يعاقب بغرامة قدرها كذا درهما كل من قطع من نبات الحديقة) . فقال : مالى وللوح ؟ أنا ذاهب الى السفينة التى تسافر الآن الى أمريقا . فقال الجندى : مالى وللسفينة ؟ عليك أن تسير معى الى المخفر ، ومنه تذهب مع بعض الجند ، الى حكومة البلد ، حيث تدفع الجزاء . قال المسافر : يا أخى ! فى أقل من ساعة تسافر السفينة ، التى استأجرت فيها موضعاً ، ودفعت الأجرة ، فأسألك ألا تكون عقبة فى طريقى ! قال الجندى : لا شأن لى فيما تقول . وأخذ بتلابيبه . فقال له : مهلا وتَرَوَّ فى الأمر ! إنه مما لا يصح فى عقل ، أن القانون يريد أن يقطع على مسافر طريقاً بعيداً كطريقى ، ويخسره أجراً كالذى نقدته ، فى نباتة فذة ، قطفها بدون أن يعرف من أمر قطفها شيئاً ! فقال الجندى : حاول ما شئت ، ثم لا تجد منى غير مطيع

للأوامر ! ولما جرب الشاب ضروب الملاينة والمخاشنة ، والتهديد والمحاسنة ، فلم يفلح ، سار إلى المخفر ، فحكومة البلد ، ودفع الغرامة ، وعاد يعدو إلى الميناء ، والعرق يسيل منه ، والنصب قد أخذ فيه كل مأخذ ؛ ولكنه ألفى السفينة قد فارقت المرسى ، وتوسطت اللجة ! فأخذ يندب حظه ، و يسب الجندى والمخفر ، و يسخط على الحديقة وألوان النبات ، من ثنائى وثلاثي ور باعى ! وأقام فى ذلك البلد ، يتحين سفر مركب آخر إلى أمريقا . وفى بعض الأيام ، قصد مطعما ، فوقعت يده هناك على صحيفة فيها فصل من أمور الجو ، وحوادث السفن ، و إذا سفينته التى كان يحاول السفر فيها ، قد ابتلعها البحر ، ولم ينج من ركابها أحد . هنالك أدركه الحياء ، لسخطه على القضاء ، وعلم أن الله تعالى يرسل رحمته إلى عباده ، فى صور يسخطهم عليها جهلهم . فعول على تَلَقّى الأقدار بالشكر والسكينة ، و إن جرت ريحه بما لا تهوى السفينة

المريضة وولى العهد

كان بين زوار مدينة كرلسباد ، ذات الحمامات الشهيرة سنة ١٨٦٥ ، زائر كريم ، تحفه المهابة و يعلوه الوقار . و بينما هو يمشى فى أرجائها يتفرج ، إذا بأحد أمسك ثيابه . فالتفت فرأى جارية صغيرة ، شاحبة اللون ، تسأله صدقة ؛ فقال لها من ساقك إلى المسألة ؟ فقالت : أمى المريضة . فقال : وأين أبوك ؟ قالت : مات وخلانا للجوع . ثم انتحبت . فقال لها : أوصلينى إلى حيث تقيم أمك ! فسارت وهو يتبعها ، حتى وقفت على منزل صغير حقير ، يريد أن ينقض ، وأومأت إليه فدخل . وعرجا فى سلم لم يهدأ له أطيط ، حتى انتهيا إلى غرفة فوق السطح ، فأشارت إليه ، فدخل . فاذا حجرة حشوها الظلمة والشقاء ، و إذا امرأة فى زاوية منها ، فراشها الحشيش والخرق البالية ، قد نهكها المرض ، و بان فيها الذل ، وعلى كفيها رضيع ، و بين يديها مائدة قد أكل عليها الدهر وشرب ، وكرسيان مكسوران ، و إناء من الفخار ، هذا كل أثاثها . فلما أحست بالزائر ، نهضت على توجع منها وشكوى .

ثم قالت له : معذرة أيها الطبيب ! حقا لقد أساءت إليك ابنتى ! دعتك لعيادتى على ما بى من الفاقة ، فإنى لا أملك درهما أدفعه إليك جزاء ! فقال لها : أنا لست طبيبا . ثم سألها : أليس لك من ناصر ؟ فأجابته باكية ، قالت : ليس لى أحد يهمه شأنى ؟ حتى أهل بيتى الذى أقطن فيه فقراء . وقد كنت زوجاً لأحد العملة ، وكنا فى سعادة ورغد من العيش ، حتى اختطفه الموت ، ودفعتنى الفاقة ، فصرت أعمل ليلا ونهاراً ، عسى أن أحصل على القوت لثلاثة ، أنا على ما بى أقدرهم على العمل ، حتى أقعدنى المرض ، وصرنا فى ضنك ، وأحسبنا من الهالكين . فأخرج من كيسه جنيها ، ودفعه إلى الجارية تشترى منه طعاماً ، ولما رجعت به ، تولى اصلاحه بنفسه ، وتقريبه من المريضة ؛ ثم أخرج صرة من النقود ، ودفعها اليها ، تستعين بها على حاجتها . وكان معه خادم ، فصرفه إلى أمر ، ناجاه فيه ، وأقام ينتظر ، حتى عاد ومعه طبيب ، فخاطبه فى شأن المريضة ، ثم انصرف . فأخبرها الطبيب ، أنه مأمور بعيادتها كل يوم مرتين ، و إحضار حاجتها من الأدوية ، بنفقة من قبل ذلك المحسن . وأخبرها أن ذلك الزائر الكريم ، الذى تعرف إلى هذه الغرفة الحقيرة عند شدة أهلها ، هو فريدرك ولى عهد مملكة الروسيا . فلما سقط هذا الخبر فى أذن المريضة ، ابتهلت إلى الله تعالى ، تسأل له خير ما أعطى عبداً من عباده ، والله يجزى المتصدقين ؟



١٩٣٦/٤/٢٠٠٠/١